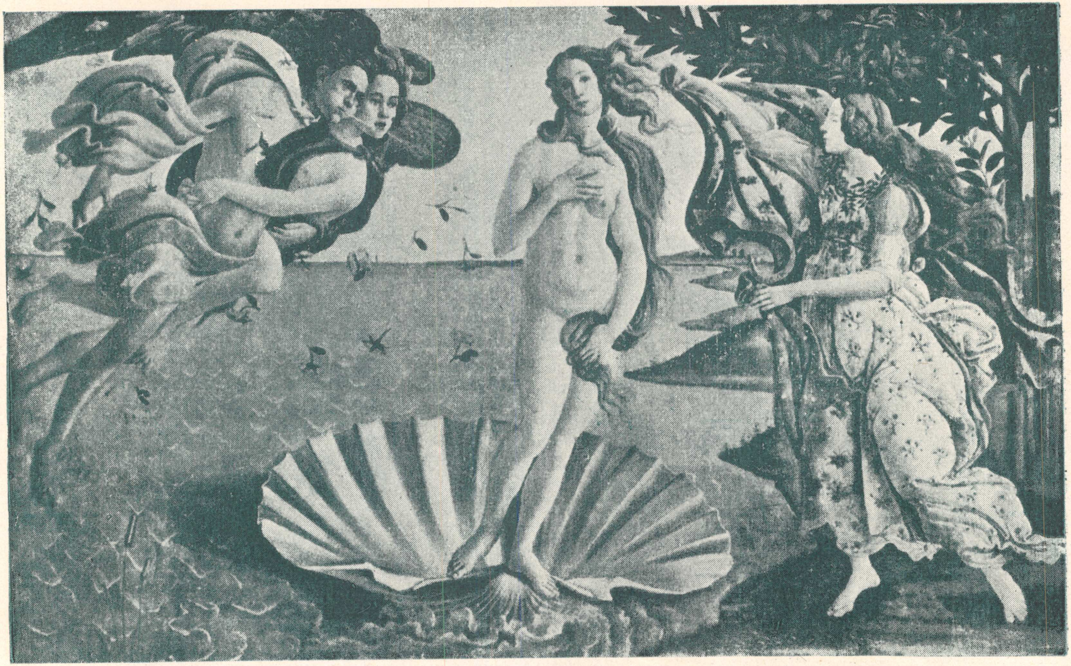

كتابي
١٠ قروش
حلمي مراد
ڤينوس تواسي كيوبيد ! (لوحة للرسام فرانسوا بوشيه)



أكانت بطلة ، أم سفاحة ؟ .. «جوديث» ، الحسناء التى أغوت قائد الاعداء «هولوفيرن» ، ثم قطعت رأسه ، كى تنقذ بلدها من الغزو !
(لوحة رسمها الفنان الخالد «بوتيتشيللى» عام ١٤٧٠ ، وتوجد بمتحف أوفيزى ، بفلورنسا)



مولد « فينوس » (لوحة لـ«بوتيتشيللي» رسمها عام ١٤٨٢ ، وهي معروضة بمتحف أوفيزي بفلورنسا)

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السادس والثلاثون (السنة الرابعة) : مارس ١٩٥٥
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة :اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٣ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الأولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد ان يكون لدى البعض اكثر من نسخة من الاعـداد المذكـورة .. فقد رأت ادارة «كتابى» أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الأولى، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة . فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الأعداد الى المشـتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة . وقيمة الاشتراك فى مصـر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن الخ ..) ترسل القيمة بشيك أو بحـوالة بريدية نقـدية MONEY ORDER عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيـمة بمـا يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة)

أيهمـــا تفضـــل ؟

عزيزى القارىء ..

◆ **أود** اليوم وأنا أقدم لك هذا العدد الاول من كتابى فى عامه الرابع ، أن أتحدث اليك فى أمر يتعلق « بكتابك » ، الذى شاركتنى - بتوجيهاتك المشكورة - مهمة النهوض به الى هذا المستوى الذى تلمسه اليوم ..

والموضوع يتصل بما تلقيته خلال الاشهر الاخيرة من رسائل ، يضمنها أصحابها شكواهم من « الحروف الصغيرة » التى تجمع بها الآن أكثر صفحات كتابى ، والتى « تتعب ابصارهم » .. وينتهون من شكواهم الى مطالبتى بجمع مادة الكتاب كله بالبنط المتوسط

ورغم ان فى هذه الشكوى عنصرا كبيرا من الوهم - بدليل أن جميع مواد الصحف اليومية والمجلات المصرية الاسبوعية تجمع بالبنط الصغير منذ نشأت مشكلة غلاء الورق فى غضون الحرب الاخيرة - أقول ، رغم ذلك فاننى لا أريد أن أستأثر وحدى بتقرير أمر جوهرى كهذا يتصل براحتك وأنت تطالع كتابك الذى خصصته بحبك ، فى أوقات الهدوء والاسترخاء .. **ومن هنا رأيت أن أحتكم بشأن تلك الشكوى اليك ، فأوجه اليك هذا الاستفتاء الجديد الذى أرجو أن توافينى فيه برأيك ، فتجيبنى على هذا السؤال الصريح :**

أيهما تفضل : أن تقرأ مادة الكتاب كلها بالبنط المتوسط المريح ، ولو اقتضى ذلك الاقلال من كمية المادة التى أقدمها لك فى كل عدد - (وأحسبك تدرك اننى انما ألجأ الى استعمال الحروف الصغيرة كى أحشد لك أكبر قدر من المواد فى صفحات الكتاب ، المحدودة مع الاسف ..)

أم تفضل أن تقرأ «كتابى» كله بالبنط الصغير - الذى يصفه البعض بأنه «متعب» - كى تستمتع بأكبر قدر من المواد بين دفتى الكتاب ؟

هذه هى المسألة - كما يقولون - أطرحها عليك بحذافيرها ، تاركا تقرير مصيرها بين يديك ! .. وبهذه المناسبة أحب أن ألفت نظرك الى جانب من «المشكلة» ، يواجهنى فى كل عدد ، هو التوفيق بين عدد صفحات الكتاب ، وبين المواد الوفيرة التى أحب أن أقدمها لك.. والتى أجدنى مضطرا الى تأجيل بعضها فى كل شهر - برغم البنط الصغير - كما حدث مثلا فى هذا العدد حين اضطررت فى آخر لحظة الى ارجاء موضوعى (مدرسة الآباء) و (أساطير القدماء) .. «لضيق ذات الصفحات» !

وفي انتظار ردك على هذا الاستفتاء الهام .. أهديك أطيب تحية .

حلمي مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول : « خطايا الحب » وكتب اخرى ، وكتابى الثانى : « قلب عذراء » وكتابى الثالث : « الهاربة من الجنة » وكتابى الرابع : « حواء الجديدة » وكتابى الخامس : « أحدب نوتردام » وكتابى السادس : « جريمة حب » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع « عشيقة نابليون » ، والثامن « مذكرات كيوبيد » ، والتاسع « صنم تحطم » ، والعاشر « حديقة الله » ، والحادى عشر «عندما تحقد المرأة» ، والثانى عشر «لعبة الحب والموت» ، والثالث عشر «توبة خاطئة» ، والرابع عشر «ايها الربيع ترفق» ، والخامس عشر «الشيطان على الأرض» ، والسادس عشر «اليدى هاملون» والسابع عشر «الارملة المرحة» والثامن عشر «حياة جورج صاند» ، والتاسع عشر «حياة سارة برنار» ، والعشرون « رباعيات عمر الخيام » ، والحادى والعشرون « حياة بتهوفن » ، والثانى والعشرون « حياة موسولينى » ، والثالث والعشرون « كوخ العم توم » والرابع والعشرون «الزوج والعشيق» والخامس والعشرون «البوهيمية» ، والسادس والعشرون «فتاة لها ماض» والسابع والعشرون «ترويض النمرة !» والثامن والعشرون « فن الحب » ، والتاسع والعشرون « الجريمة والعقاب » والثلاثون « المنافق » (طرطوف) ، والحادى والثلاثون « أميره مصر » والثانى والثلاثون «الأمطار» ، والثالث والثلاثون «أفروديت» ، والرابع والثلاثون «أقنعة الحب السبعة» ، والخامس والثلاثون «سالومى» .

◆ وتطلب من ادارة كتابى: ١٤ شارع ٢٣ يوليو بالقاهرة (عمارة العندول)، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ، ١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر والعدد العشرون وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذونات البريد الخارجيه . وتحرر الاذونات والشكات باسم صاحب المجله شخصيا .

مطبوعات كتابى

صدر منها حتى الآن :

١ ـ قصة مدينتين	٢ ـ ذات الثوب الابيض
٣ ـ الخالدون	٤ ـ الخاطئة

وثمن كل من الاول والرابع عشرون قرشا خالص اجر البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثاني ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش



نافذة "كتابي" تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

للمحرر

من مدينة الزنبق ٠٠ الى المدينة العائمة !

في العدد الماضى زرنا معا ((نابولى)) و ((كابرى)) و ((بومبى)) .. ثم واصلنا الترحال الى فلورنسا ، مهد ((دانتى)) و ((ميكيل انجلو)) ، وموطن الفكر والفن فى عصر النهضة والعصور التالية له .. ورأينا كيف يعيش الفن والحياة فيها منذ القدم جنبا الى جنب ، وكيف يمتزج تحت سماء ((مدينة الزنبق)) سحر الطبيعة وسحر الابداع الفنى معا ، وتلتقى يد الخالق ويد الانسان فى صعيد واحد !

واليوم نواصل طوافنا بفلورنسا عبر الزمن ، فنلم بطرف من تاريخ المدينة العريقة ، وماضيها البعيد والقريب .. ثم نزور أهم معالمها الاثرية والفنية التى ينعكس فيها مجد ذلك الماضى التليد .. وبعد ذلك نغادرها الى المدينة العائمة : ((فنيسيا)) (البندقية) !

اسرة مديتشى ٠٠ والعصر الذهبى لفورنسا

◆ **كانت** فلورنسا فى القرن الاول قبل الميلاد مدينة «رومانية» مزدهرة ، ثم ازداد قدرها بين مدن اقليم (توسكانيا) الهامة منذ القرن الثالث بعد الميلاد .. واستطاعت أن تقاوم عوامل الانحلال خلال اشد العصور الوسطى ظلمة ، وتخرج منها الى النور محتفظة بمكانتها الاولى ٠٠ وفى القرن الحادى عشر اصبحت المدينة نهبا لصراع محتدم بين سادة الاقطاع وبين الطبقة الكادحة من الصناع والتجار ٠٠ **ومن ثم انقسمت فلورنسا فى نهاية القرن الثالث عشر الى حزبين ، طرد أحدهما أتباع الآخر ، وكان « دانتى » بين المطرودين يومئذ !٠٠ وفى أوائل القرن الرابع عشر أصبحت فلورنسا من أهم المراكز الاقتصادية والثقافية فى ايطاليا ، ونشأت فيها صناعات نسج الصوف والحرير ، وتأسست فيها شركات كبرى من أصحاب المصارف والتجار ٠٠ وفى سنة ١٣٤٨ تفشى فى المدينة ذلك الطاعون الهائل الذى روى قصته ((بوكاشيو)) فى مجموعة**

أقاصيصه المشهورة باسم « ديكاميرون » ٠٠ وفى الاعوام التاليه ازداد بالتدريج ، نفوذ أسره ((مديتشى)) الغنيـة ، بفضل تأييد أفراد الطبقة الفقيرة ، حتى دانت لها مقاليد الحكم ٠٠ وكان عهد ((لورنزو دى مديتشى)) هو العصر الذهبى لفلورنسا ، فقد جمع الرجل بين حزم السياسى ، وبين رعايته للآداب والفنون ، كما تميز عصره بالنزعة الانسانية ، سواء فى الثقافة أو الفن ! ٠

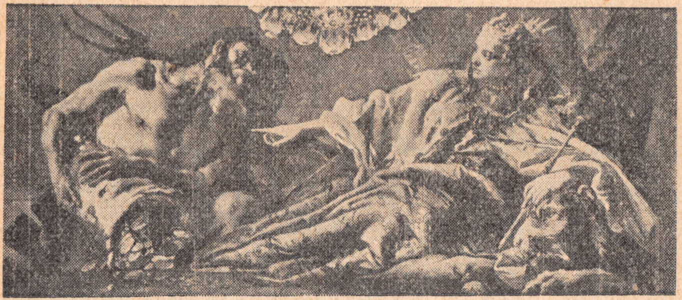
وقرب نهاية القرن الخامس عشر ، على اثر هزيمة «بييرو» خليفة لورنزو ، قلبت دوقية فلورنسا الى جمهورية حرة ٠٠ وفى الحقبة التالية لمع فى سماء الاحداث نجم الراهب المصلح «سافونارولا» ٠٠ لكن آل مديتشى لم يلبثوا أن عادوا الى الحكم ، ثم انتزع منهم من جديد فى عام ١٥٢٧ لتحل محله الجمهورية ، لكنهم عادوا فاستردوا عرشهم فى سنة ١٥٣٠ ـ بمساعدة البابا والامبراطور ! ـ بعد حصار شاق ٠٠ ورغم اضطراب الحياة السياسية فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، فان تلك الفترة تميزت بظهور عدد من أشهر نوابغ الفن والادب والسياسة فى فلورنسا خلالها ، مثل ميكيل انجلو ، ومكيافيللى ، وغيرهم

واستمرت اسرة دى مديتشى تحكم فلورنسا حتى سنة ١٧٣٧ ، حين خلفتها اسرة «لورين» ، التى حكمت بدورها ـ فيما عدا مدة سيطرة نابليون ـ الى أن تم توحيد «ايطاليا» سنة ١٨٦٠ ، فضمت فلورنسا وتوسكانيا الى الدولة الجديدة ٠٠ ثم اختيرت الاولى عاصمة لها (بين عامى ١٨٦٥ و ١٨٧١)

والآن تعال بنا نطوف بأشهر معالم عاصمة ايطاليا الثانية ٠٠ وما دمنا بصدد الحديث عن حكم أسرة مديتشى ، فلنبدأ جولتنا بالأثر الفنى الخالد الذى خلفته هذه الاسرة فخلدت به اسمها ، وأعنى بهذا الأثر :

كنيسة آل مديتشى : وهى تجمع بين المعبد والمتحف والمقبرة ، فى آن واحد ٠٠ فقد دفن فيها جميع حكام فلورنسا من « جراندوقات » اسرة مديتشى ، واطلق على القاعة التى دفنوا فيها « كنيسة الامراء » ٠ **وهذه القاعة تحفة منقطعة النظير من تحف فنون النحت ، والرسم ، والزخرفة ، والهندسة ، والمعمار ، والاضاءة ، وجميع الفنون التى تخطر على البال ٠٠ وفيها ثروات من المرمر الاسود والاحمر ، وهياكل و «عروش» محلاة بأثمن الاحجار الكريمة ، ولوحات كاملة مرسومة بذرات صغيرة من احجار الموزايكو الملونة ، وكأنها مرسومة بالألوان الزيتية !٠٠** وبالاختصار فان هذه القاعة وحدها تبلغ قيمتها فى تقديرى المتواضع ، وبغير أدنى مبالغة ، مئات الألوف من الجنيهات !

فاذا خرجت من هذه القاعة ألفيت أمامك ممرا يقودك الى قاعة اخرى بها ثروة فنية من نوع آخر ، فهى قد تبدو أبسط من الاولى فى مظهرها ، لا ترى فيها غير جدران واعمدة من الحجر الابيض ، ومجموعة من التوابيت الحجرية قد رقدت فوقها بضعة تماثيل ٠٠ **ولكن أية تماثيل ؟! حسبك أن تعلم ان القاعة ، أو المقبرة ، كلها من تصميم وتنفيذ «ميكيل انجلو» ، وانها استغرقت منه ٠٠ كم تحسب ؟ ٠٠ خمسة عشر عاما (من ١٥١٩ ــ ١٥٣٤) !** ومن محتويات هذه القاعة : قبر الجراندوق «لورنزو الثانى» ــ والد الملكة كاترين دى مديتشى ، أو كاترين دى مديسيس كما يطلق عليها الفرنسيون ، وقد صارت زوجة لملكهم هنرى الثانى ، وأما ، ووصية على ملكهم شارل التاسع فى شبابه الباكر ٠٠ وقد زين انجلو قبر والد كاترين هذه بتمثالين من روائعه ، لامرأة ورجل : يمثل احدهما الفجر ، ويمثل الثانى الغسق ٠٠ ويشرف عليهما من فجوة فى الجدار تمثال لصاحب القبر يمثله وقد جلس ساهما



«بتيون اله البحر يقدم كنوزه الى مدينة البندقية» ـ وقد رمز راسم الصورة الفنان «تيبو'و» الى المدينة بهذه الحسناء !

يفكر ـ وبالفعل ، أطلق انجلو على التمثال اسم « المفكر » ـ ٠٠ والى جوار القبر المذكور قبر آخر للدوق « جوليانو دى مديتشى » ، يعلوه تمثالان لامرأة ورجل آخرين يمثلان «النهار» و «الليل» ، وبينهما تمثال صاحب القبر يشرف عليهما من عل ٠٠ وبين المقبرتين تمثال آخر لأنجلو يمثل « العذراء والطفل »

فاذا خرجت من كنيسة اسرة مديتشى ، ألفيت نفسك أمام مكتبة الاسرة نفسها ، وقد بدأ «انجلو» العمل فيها عام ١٥٢٤، لكنها لم تتم الا بعد وفاته بزمن ، عام ١٥٦٨ ٠٠ ثم تسير فى شارع كافور ـ نسبة الى الزعيم الايطالى الكبير ـ حتى تبلغ :

قصر آل مديتشى : انشىء فى القرن الخامس عشر (من عام ١٤٤٤ الى ١٤٥٩) واستخدم كمقر للاسرة حتى عام ١٥٤٠ ٠٠ وفى عام ١٦٥٩ ابتاعته اسرة « ريكاردى » واضافت اليه اجنحة اخرى ٠٠ واليوم يستخدم القصر مقرا لمحافظة فلورنسا ٠

فاذا عبرت فناء القصر ، ودخلت الطابق الأرضى الذى الى يسارك ، فأنت فى :

متحف آل مديتشى : ويحوى كل الوثائق الخاصة بالاسرة ، وصور افرادها ٠٠ على ان اروع لوحات المتحف بلا نزاع ، اللوحة الضخمة التى تمثل « رحلة المجوس الى بيت لحم » ، والملائكة حولهم ينشدون ٠٠ **ومن الطريف ان الفنان الذى صنع اللوحة رسم فيها وجوه افراد اسرة مديتشى ، لبعض الاشخاص الذين يحفون بالموكب ٠٠ كما اظهر عميد الاسرة « لورنزو العظيم » فى صورة احد المجوس الثلاثة ٠ وفى ركن الصورة أظهر شقيقات لورنزو الثلاث ممتطيات جيادهن ٠٠ بل ان الرسام اظهر صورته هو بين اشخاص اللوحة ، وكتب اسمه على القبعة التى يلبسها !**

ولا يفوتنا قبل ان نغادر المتحف ان نزور افخم قاعاته على الاطلاق ، وهى قاعة « جيوردانو » ، التى زين الفنان سقفها بلوحات رائعة « مسلسلة » تمثل تاريخ اسرة مديتشى ٠٠ والقاعة لا تقل رواء وبذخا عن بعض قاعات قصر فرساى !

والآن ، هيا بنا نستكمل تتبعنا لمخلفات هذه الاسرة العريقة التى حكمت فلورنسا قرونا ، بزيارة القصور الخاصة التى كان يقطنها اقطاب الاسرة ، ويطلق اهل المدينة عليها :

فيللات آل مديتشى : وتقع فى ضواحى فلورنسا ، ومن اشهرها : « فيللا دى كاستيللو » ، التى ساهم عدد من اكبر فنانى العصر فى تصميم حديقتها الشاسعة ونافورتها الجميلة ، وفى تزيين قاعاتها باللوحات والتماثيل ٠٠ وبالقرب منها تقع « فيللا ديللا بترايا » ، التى أقام فيها الملك فيكتور عمانويل الثانى عندما اختيرت فلورنسا عاصمة لايطاليا بعد توحيدها ٠ **ومن اجمل معالم هذا القصر حديقته السخية بكافة انواع الزهور ، فى كل موسم ٠٠ ونافورته الفاخرة ٠٠ ثم تماثيل « فينوس » العديدة التى تزين ممراته ٠**

وعلى مسافة ١٨ كيلو مترا من المدينة تقع فيللا « بوجيو أكايانو » ، التى اشتراها « لورنزو العظيم » عام ١٤٨٠ وأمر باعادة بنائها ٠٠ فخرجت من ايدى الاخصائيين ، بعد خمس سنوات ، قصرا رائع الجمال والبذخ ! ٠٠ على ان هذا القصر الفاخر قدر له ان يشهد ـ فى اكتوبر عام ١٥٨٧ ـ النهاية المفجعة للدوق فرنشيسكو الاول ، و « بيانكا كابيللو » !

٠٠ فاذا فرغنا بذلك من آثار آل مديتشى ، مضينا نواصل جولتنا فى فلورنسا بزيارة :

قنطرة فيكيو (القنطرة القديمة) : وهى القنطرة الوحيدة التى أبقى عليها الالمان حين دمروا خلفهم كل طرق المواصلات اثناء انسحابهم من ايطاليا خلال الحرب الاخيرة ! ٠٠ وهذه القنطرة هى اقدم قناطر فلورنسا وأهمها ، **وهى فريدة فى نوعها بين قناطر العالم كله ، اذ تتميز بانها «مسقوفة» ! وانها اشبه بسوق أو ممر تجارى يزدحم بحوانيت «الصياغ» وتجار المجوهرات ٠ والى ما قبل القرن السادس عشر كانت بها حوانيت و «عربات» تبيع جميع انواع البضائع والحاجيات !**
٠٠ ومن الطريف ان صائغى المجوهرات قد أقاموا فى جانب من القنطرة تمثالا نصفيا لسلفهم الفنان والمغامر المشهور «بنفينوتو تشيلليني» ، اعجابا بفنه !

قصر « بيتى » : وهو من اعظم واضخم قصور فلورنسا ، تدخله من (ميدان بيتى) الفسيح المرتفع كالهضبة فى قلب المدينة ٠ وقد شيد الجزء الرئيسى منه عام ١٤٤٠ بتكليف من النبيل « لوكا بيتى » ، ثم أضاف اليه ملاكه اللاحقون عددا من الاجنحة والنوافذ ٠٠ وقد اتخذ مقرا لحكام فلورنسا منذ عام ١٥٥٠ حتى تم توحيد ايطاليا عام ١٨٦٠ ٠٠ ثم قطن به فى فترة ما ، الملك فيكتور عمانويل الثانى ٠٠ اما اليوم فقد جعل مقرا لمتحف بيتى ، ومتحف الاحجار الكريمة ، ومعرض الفن

الحديث ، ومتحف العربات ٠٠ وفى فناء القصر ، الى اليسار ، توجد لوحة منحوتة بارزة ترمز الى البغل الذى كان يستعمل فى نقل المواد اللازمة لانشاء القصر !

واذا نفذت من بوابة الجناح الايسر للقصر ، المعروفة باسم بوابة « باخوس » ـ اله الخمر ـ ألفيت نفسك فى « حدائق بوبولى » الغناء ، التى تعتبر من اجمل حدائق فلورنسا ، والتى كانت مهملة ، غير معتنى بها ، حتى اصلحها الدوق كوسيمو فى أواخر القرن السادس عشر على أيدى بعض كبار الاخصائيين الفنيين ، وعهد اليهم بانشاء المتنزه الكبير الذى يوجد بها الآن ٠ وعند مدخل الحديقة نافورة لاله الخمر تمثله عاريا مكتنز الجسم ، يجلس فوق ظهر سلحفاه تنبعث من فمها المياه !



لوحة للرسام الايطالى «فيرونيز» تمثل اغتصاب الحسناء «يوروبا» ابنة ملك فينيقيا ٠ والاسطورة تقول ان مغتصبها كان «زيوس» كبير الالهة عند الاغريق!

وبالقرب من مدخل الحدائق ، كان يقوم البيت المتواضع الذى ولد فيه السياسى الداهية « مكيافيللى » ـ وكان من أبناء فلورنسا ـ فى سنة ١٤٦٩ .. لكن هذا البيت دمرته القنابل للاسف خلال الحرب الاخيرة ! (وفى فلورنسا بيت آخر ولد فيه عظيم من ابنائها ، هو بيت « دانتى » شاعر الكوميديا الالهية ، ويقع فى شارع سمى باسمه .. وفى ميدان آخر قريب ، تقع الكنيسة التى يقال انها شهدت زواج دانتى من « جيما دوناتى » !

والآن ، تعال نصعد سلم القصر ، المؤدية الى :

متحف بيتى : وهو ـ الى جانب متحف «اوفيزى» ـ اعظم متاحف فلورنسا ، بل من اعظم متاحف العالم .. حتى ليكاد المتحفان ان يعتبرا فى درجة متحف «الفاتيكان» بروما ، و « اللوفر » بباريس ! .. وليس هذا بالطبع مجال تعداد معروضات المتحف ـ التى تحتاج وحدها الى عشرات الصفحات ـ وانما حسبى هنا ان أشير ـ مجرد اشارة ـ الى اسماء اصحابها ، واسماء القاعات التى عرضت فيها ! .. **فانها موزعة على اكثر من اربعين قاعة ، منها « قاعة الالياذة » ، و « قاعة الله » ، وقاعات : زحل ، ومارس ، وابوللو ، وفينوس ، وفلورا ، وقاعة العرش ، والقاعة الخضراء ، والزرقاء ، وقاعة الببغاء ، وقاعة الملكة مرجريتا ، وقاعة « بون » ، وقاعات : الايمان ، والحيطة ، والصبر ، والاحسان والعدالة ، والتسامح ، وقاعة الغلمان .. ثم قاعة التماثيل ، وقاعة « أوليس » ، فقاعة بوتى ، وقاعة الموقد ، وقاعة الحمام .. الخ**

وفى كل قاعة من هذه القاعات التى يصعب حصرها ، يعرض جانب من تراث الفن الخالد ، ممثلا فى لوحات اشهر الفنانين الذين انجبتهم الانسانية .. وهى لوحات لا تقدر بثمن ، ولو

قدرت لبلغت قيمة «الواحدة» منها ارقاما خيالية ! ·· وهكذا يجتمع فى هذا المتحف شمل كل هؤلاء العباقرة : رفاييل ، تيسيان ، روبنز ، موريللو ، بوتيتشللى ـ الذى قدمت لك ستا من اشهر لوحاته فى صفحات الصور المصقولة بهذا العدد ـ ثم : فيلاسكيز ، بارتولينى ، ماراتا ، جيرلاندايو ، بيروجينو ، بارتلميو ، دل سارتو ، فيورنتينو ، تنتوريتو ، كورتونا ، سلفاتور روزا ، ليبى ، سنيوريللى ، سودوما ، كارافاجيو ·· وعشرات غيرهم !

بل ان «المشكلة» تتفاقم اذا علمت ان قصر «بيتى» الذى نحن بصدده ، يضم الى جانب هذا المتحف الضخم عدة متاحف اخرى فى مختلف فروع الفن : فهذا **متحف الفضة** ، ويضم كنوزا من التحف الفضية الثمينة التى خلفها جراندوقات فلورنسا فى جميع العصور ، الى جانب تحف من الخزف «الصينى» ، والعاج ، والكهرمان ، والزمرد ، وغيرها من الاحجار الكريمة ·· الخ ، ويتألف هذا المتحف بدوره من عدة قاعات ، ترى فى احداها تجويفا هائلا فى الجدار رسمت عليه لوحة ضخمة تمثل كبير الالهة ينزل من جبل الاوليمب ليقدم صولجان الحكم الى اسرة مديتشى ! ·· وتتوسط قاعات هذا المتحف مناضد رخامية ، فوق كل منها صندوق زجاجى كبير عرضت فيه كؤوس فضية ثمينة « مشغولة » بدقة عجيبة ، وقد صاغها صائغو اسرة « هابسبرج » خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ·· وتحف بجدران القاعة تماثيل من المرمر من مخلفات مختلف العصور ·· وفى قاعة اخرى من هذا المتحف ترى مناضد كبيرة من المرمر الملون قد طعمت بأحجار الموزايكو الدقيقة بحيث نقشت منها لوحات فنية تكاد تنطق ـ

(وقد اختصت فلورنسا منذ القدم بهذا الفن الذى توجد فى وسط المدينة حوانيت كثيرة تنتج منه على التوالى تحفا تفوق



« باخـــوس ـ اله الخمر ـ يقدم خاتمه الى الحسناء اريادن » .. وترى معهمـــا فينوس الهة الجمال ـ لوحة للرســـام « تنتوريتو »

روعتها حد الوصف !) .. وهذه قاعة أخرى تعرض اللوحات «المنسوجة» على قطع كبيرة من القماش تعلق على الجدران .. وقاعة خامسة تبهرك اللوحات البارزة المنحوتة على حوائطهـا وسقفها .. وسادسة تلفتك فيها اول ما تلفتك صورة لنابليون الاول مرسومة على الصيني الازرق الثمين فى مصانع «سيفر» العالمية المشهورة .. وقاعة سابعة ترى فيها مجموعة خلابة من مجوهرات نساء حكام فلورنسا القدماء .. وقاعة ثامنة تعرض بها لوحات فنية كاملة مطرزة على القطيفة (المخمل) !.. وقاعة تاسعة ترى فيها مجموعة من اوانى الزهر الزجاجية المنقوشة بيد ابرع الفنانين .. وهذه تحف من اللؤلؤ ، و «الكريستال» ، والاصداف .. وساعات اثرية دقيقة من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. و .. و .. الى غير ذلك مما لا مجال لمجرد الاشارة اليه !

وفى جناح آخر من قصر بيتى ـ ايضا ! ـ متحف ضخم للفن «الحديث»، يتألف بدوره من سبع وعشرين قاعة !.. وفى جناح غيره متحف آخر شائق هو « **متحف العربات** » ، الذى يضم

مجموعة من عربات نبلاء المدينة القدامى ذوى الثراء والنفوذ ، ولكل عربة منها طراز خاص ، ومناسبة تاريخية : **فهذه العربة كانت تخص كاترين دى مديتشى ٠٠ وتلك استقلها البابا بيوس السابع اثناء عودته من المنفى على اثر سقوط نابليــون ٠٠ والثالثة صنعت فى عام ١٨٣٩ لفرديناند ملك نابولى ، وفى سنة ١٨٦٥ استقلتها ملكة البرتغال عند زيارتها لايطاليــا عقب زواجها ٠٠ والرابعة كانت تخص ليوبولد الثانى دوق توسكانيا ٠٠ الخ ٠٠ وفى « فترينات » زجاجية بانجدارين المتقابلين ، عرضت ألجمة الخيل وسرجها المصنوعة من البرونز المطعم بالفضة والذهب ! ٠٠ وفى قاعة اخرى نماذج تمثـل مختلف أزياء « بلاط » أسرة مديتشى فى مختلف عصورها ٠٠**

فاذا فرغنا من هذه الجولة «السريعة» بين ابهاء قصر «بيتى» بمختلف طوابقه ومتاحفه ٠٠ خرجنا منه الى شارع «كابونى» رقم ٢ ، حيث يقع :

المتحف المصرى : وقد تعجب اذ تعلم ان فى فلورنسا متحفا مصريا ، يتـألف من ٨ قاعات ، ترى فيه عـددا كبيرا من المومياوات والتوابيت واوراق البردى ، وتمثالا للالهة «هاتور» على شكل بقرة ترضع الملك الطفل «حورمحب» ٠٠ وتمثـالا نصفيا من حجر البازلت الاحمر لفرعون من فراعنة مصر عاش فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد (١٨٤٩ ـ ١٨٠١) ـ ولم يذكر اسمه ! ٠٠ وتمثالا آخر للالهة هاتور والملك سيتى الأول ٠٠ وتمثالا للكاتب المصرى ٠٠ وخصصت احدى قاعات المتحف للوحات منحوتة تمثل فئات الصـناع والزراع منهمكين فى أعمالهم ٠٠ كما خصصت قاعة أخرى لمعروضات المتحف القبطى ٠٠ وفى القاعة السادسة تماثيل مختلفة من حجر الكلس ، والخشب ، يمثل احدها امرأة تذرو تبن القمح الى الرياح ٠٠ وفى القاعة السابعة تماثيل صغيرة لالهة المصريين القدماء ،

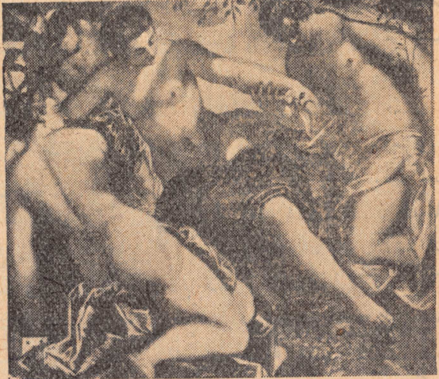
وعدد من الجعارين المقدسة ٠٠ اما القاعة الاخيرة فقد عرضت فيها عربة خشبية من عصر سيزوستريس (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)

متحف اوفيزى : وهو فى ضخامة وأهمية « متحف بيتى » الذى حدثتك عنه ، ويتألف بدوره من نحو أربعين قاعة كبرى ، موزعة على عدة طوابق وأجنحة ٠٠ ومن العبث محاولة التحدث عن هذا المتحف فى سطور ، أو فى صفحات معدودة ، لذلك أكتفى بان « أقنع من الغنيمة بالاياب » ، وأحيلك على عشرات الصور التى نقلها وينقلها لك كتابى عن هذا المتحف فى صفحاته المصقولة فى كل عدد ٠٠ على انه يمكن القول فى كلمة ان هذا المتحف قد اختص - دون متحف بيتى - بانه يضم مجموعات من لوحات وتماثيل الفنانين « ليوناردو دافنشى » و « ميكيل انجلو » ، و « رمبرانت » ٠٠ بالاضافة الى عشرات الفنانين الذين يعرض جانب من روائعهم فى كلا المتحفين ٠

ولا تحسبن اننا بذلك نكون قد فرغنا من متاحف فلورنسا ،



لوحة رائعة تمثل آلهة الاغريق الثلاثة: «فينوس» ، آلهة الجمال ٠٠٠ و « مارس » ، اله الحرب . . و «منيرفا» اله الحكمة . . واللوحة من رسم الفنان الايطالى « تنتوريتو »



« عطارد والحسان الثلاث »، هو الاسم الذى أطلقه الفنان الايطالى «تنتوريتو» على هذه اللوحـة الخلابة ، (ويرى عطارد فى الركـن الاعلى الايسر، مطرقا الى أسـفل)

فان فى « مدينة الزنبق » ـ الى جانب المتاحف التى أشرنا اليها ـ سبعة عشر متحفا آخر ، أرانى مضطرا الى تجاهلها تماما !

والآن ، وقد «أشبعنا» انظارنا من روائع الفن فى متاحفه المختلفة ٠٠ تعال نتابع موكبه فى اشهر كنائس المدينة :

كاتدرائيـة القديسـة مريم ذات الزهرة (سانتـا ماريا دل فيورى) : وتقع وسط ميدان كبير بقلب المدينة ، وهى تعرف من بعيد بقبتها التقليدية المشهورة ، وبرج الجـرس الشاهق الملحق بها ٠٠ وهى مكسوة كلها من الخارج بالمرمر الابيض والأخضر والاحمر ، على الطراز الرومانى ٠ وقد بدىء فى تشييدها فى عام ١٢٩٦ ، ولم يتم بناؤها الا بعد ١٦٥ عاما من ذلك التاريخ ! ٠٠ أما برج الجرس ـ ويبلغ ارتفاعه ٨٢ مترا ـ فقد بدأه الفنان المشهور « جيوتو » عام ١٣٣٤ ، لكنه مات بعد ثلاث سنوات ، فواصل العمل فيه آخرون حتى تم بعد ٢٢ عاما اخرى ٠ **وهو يعتبر اغنى صرح اثرى من نوعه فى ايطاليا كلها ، وينسب دائما الى مصممه الاصلى فيعرف باسم « برج جيوتو » ٠ وبه من الداخل سلم ذات ٤١٤ درجة تقود الى قمته التى يشرف المرء منها على منظر رائع للمدينة بأكملها ٠**

وقد نحتت على جدران البرج فى طابقيه الأسفلين مجموعة من اللوحات البارزة الخلابة تمثل جميع فروع العمل ، اليدوى والذهنى ، منذ بدء الخليقة ٠٠ فهذه لوحة تمثل كفاح الزارع ، واخرى كفاح الصانع ، وثالثة تريك فيلسوفين يتجادلان ٠٠ الخ ، كما ان بها لوحة طريفة تمثل « نوح » ، ثملا يترنح ، والى جواره برميل ضخم ملىء بالخمر ! ٠٠ اما الطوابق الثلاثة التالية من البرج فقد فتحت فيها نوافذ من الطراز القوطى ذات نقوش ملونة تبهر العين ٠٠

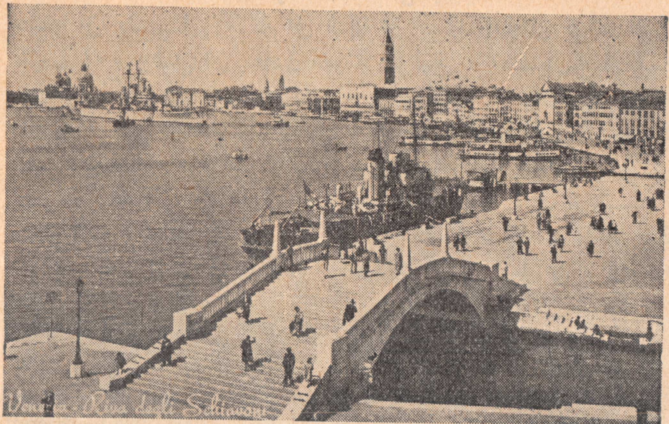
وقبة الكاتدرائية لا تقل عن البرج ضخامة وجمالا ، سواء فى الهندسة أو النحت أو الرسم ٠٠ وارتفاعها ٩١ مترا ، وقطرها ٤٥ ٠ وهى محلاة من الداخل بلوحات تمثل « يوم الحساب » للفنان « فاسارى » ٠٠ فاذا فرغت من تأملها فتعال نطوف بانحاء الكاتدرائية الرحبة ٠ انها مشيدة على الطراز القوطى – مثل كاتدرائية نوتردام بباريس – فترى جدرانها كلها أقواسا متداخلة ، وليست مساحات ذات ابعاد مسطحة مستقيمة ٠ والكاتدرائيات المبنية وفق هذا الطراز تعتمد على جمال فن المعمار اكثر مما تعتمد على النقوش المرسومة او اللوحات الملونة أو الأسقف المذهبة ٠٠ على ان بالكاتدرائية عدة اجنحة بها كنائس فرعية صغيرة نسبيا ، مزينة بالكثير من اللوحات والتماثيل الخالدة ، منها تمثال « شفقة » لميكيل انجلو ، وقد بدأه الفنان عام ١٥٤٧ وتركه بعد ٨ سنوات ناقصا ، وكان قد اعده ليوضع على قبره ٠٠ وهناك ايضا لوحة لفنان مغمور تمثل دانتى واقفا وفى يده كتابه « الكوميديا الالهية » يشرحه لسامعيه ، وخلفه ظهرت طبقات السماء الثلاث : الجحيم والمطهر والنعيم ٠ وفى مكان آخر لوحة تمثل « صعود المسيح » ، وتمثال « النبى داود » ٠٠ وغيرها من التحف التى لم أشر الى بعضها الا على سبيل المثال

متحف الكاتدرائية : ويقع بالقرب منها ، فى مبنى مستقل، وهو غاص بالتحف النادرة ، التى منها تماثيـــل : موسى ، وتضحية اسحق ، وكلاهما للفنان دوناتيللو ، ثم « عودة الابن الضال » ـ وهى لوحة «منسوجة» فى قماش ـ و «مريم المجدلية فى الصحراء» ، ومجموعة لوحات متجاورة تمثل مشاهد مختلفة من « حياة يوحنا المعمدان » ٠٠ الخ ٠٠ وقبل ان نغادر هذا المتحف تعال نتأمل «قناع الموت»، وهو وجه مجسم صنع مطابقا لوجه الفنان « برونيلليشى » على أثر وفاته ، والفنان المذكور هو مصمم قبة الكاتدرائية المشهورة وغيرها من الصروح الفنية التى ساهمت فى تجميل فلورنسا ٠

كنيسة يوحنا المعمدان : وتقع فى الميدان ذاته ، وعلى بعد خطوات من الكاتدرائية ٠٠ وهى بناء عجيب المنظر ـ ثمانى الاضلاع ! ـ شيد فى القرن الحادى عشر ، وأكملت زينته فى القرنين التاليين ٠ وله ثلاثة أبواب ضخمة تعد فى ذاتها من آيات الفن الفلورنسى الرفيع ، فقد نحتت على كل منها لوحات



« تاكسيات » البندقية ، أو زوارق الجندول التى تقل الراغبين عبر قنوات البندقية ، تنتظر فى موقفها امام عمارة مزدحمة بالقاطنين



قنطرة من القناطر الجميلة التى تربط بين بعض الجزر التى شيدت فوقها مدينة فنيسيا (ويبلغ مجموعها ١١٩ جزيرة !)

بارزة من صنع أشهر الفنانين ، تمثل مشاهد دينية من التوراة والانجيل ٠٠ **على أن أشهر باب من بين الثلاثة هو الباب الشرقى ، الذى صمم لوحاته ونفذها الفنان « جيبرتى » ، بين عامى ١٤٢٥ و ١٤٥٢ ٠٠ وقد أطلق ميكيل انجلو على هذا الباب اسم « باب الجنة » ، نظرا لجماله الرائع !٠٠ وهو مقسم الى عشرة مربعات ، نقشت عليها لوحات بارزة لمشاهد مختلفة من التوراة ، هى** : « خلق الانسان وطرد آدم وحواء من الجنة » ، « قابيل وهابيل » ، « نوح والطوفان » ، «ابراهيم يضحى بابنه اسحق » ، « عيسو يبيع بكوريته ليعقوب » ، « يوسف واخوته » ، « موسى يتلقى الشريعة فوق جبل سيناء » ، « سقوط أريحا » ، « داود يقتل جوليات الجبار » ، « لقاء سليمان وملكة سبأ »

والناظر الى هذه اللوحات المحفورة على الخشب ، لا يشبع من تأمل جمالها الخلاب ودقتها التى تبلغ حد الاعجاز ٠٠ **ولكن**

حذار أن ينسينا الاستغراق فيها ان موعد القطار يوشك أن يأزف !٠٠ وقبل أن نغادر مدينة الزنبق ، تعال بنا نقوم بجولة أخيرة في شوارع المدينة وحوانيتها ٠٠ ان كل معالم المدينة توحي بالقدم ، والعراقة ، وكأنها ما تزال تعيش فى عصر النهضة ٠٠ فأنت لا تكاد ترى فيها أبنية حديثة ، أو دورا عصرية زاهية ، وانما شوارع حجرية ضيقة ، وأبنية أو « بلوكات » عتيقة قاتمة ٠٠ ولكن وسط هذا الاطار الكلاسيكى الوقور تقوم المقاهى العصرية الضاحكة فى الميادين ، وتزدحم



« الجندول » ٠٠ الزورق الاسود الشبيه بالتابوت ! ٠٠ الذى صاغت منه الدعاية السياحية اسطورة خلابة ، تحوطها غلالات من احلام الهوى والهيام !

بخليط من أحفاد دانتى وسليلات بياتريس الحسان ، اللواتى يثرثرن أو يتناولن الشاى والمرطبات ، على أنغام الموسيقى الهادئة التى تعزف فى الامسيات ٠٠

ومرة أخرى ، حذار من الاستغراق فى الخيال والاحلام ٠٠ وتعال نهرع الى المحطة لنستقل منها القطار الصاعد الى الشمال،

الى البندقية ٠٠ ومحطة فلورنسا ، رغم انها ليست حديثة البناء ، ولا تقاس فى الاناقة والجمال بمحطة روما مثلا ، الا انها لا تقل عنها توفيرا لراحة السياح والمسافرين ٠٠ ويكفى أن تعلم أن بها مطعمين « مشرفين » ، يتسع كل منهما لمئات الطاعمين ، وقد كتب على أحدهما أنه لركاب الدرجة الاولى وعلى الثانى أنه لركاب الدرجتين الثانية والثالثة ، وذلك توضيحا لتفاوتهما فى الاسعار ، وان تشابها على وجه التقريب فى كل شيء !

المدينة التى لا تنام !

◆ **والمسافة** بين مدينة الزنبق والمدينة العائمة يقطعها القطار فى نحو أربع ساعات ونصف ساعة ، فلقد غادرنا فلورنسا فى السابعة مساء فأشرفنا على فنيسيا قبيل منتصف الليل ٠ وهبطنا من القطار لنجد مدينة الجندول أشبه بخلية النحل ، تضج بالحياة والحركة وكأننا فى منتصف النهار ٠٠ أفواج من جميع الاجناس تروح وتغدو متسكعة فى شوارعها المستلقية على صدر الماء فى دلال ٠٠ أو تجلس على مقاهيها المتلاصقة التى تعد بالمئات ٠٠ أو تنتقل من ضفة الى ضفة بواسطة القناطر الكثيرة المعلقة فوق القنوات فى هندسة يفوح منها عطر العصور الخوالى ٠ وتظل المدينة ساهرة تنبض بالحياة على هذا النحو الى الساعات الاولى من الصباح ٠٠ بل ان الحركة لا تنقطع منها تماما فى أية ساعة من الليل أو النهار ، سيما كلما وصل قطار واندفع منه مئات الوافدين يبحثون لانفسهم عن أمكنة فى الفنادق بشق النفس !٠٠ **فالحقيقة العجيبة ان البندقية من أكثر بلاد العالم حظوة باقبال السائحين وتهافتهم المجنون ! والحقيقة الأعجب منها ان المدينة ـ بينى وبينك ! ـ لا تستحق كل هذه الشهرة وذلك التهافت ٠٠ وانما هو « الفضول » ، أو « الغيرة » ، أو حب الاقتداء والتقليد ، الذى يغرى السائحين من كافة أركان الارض بارتياد**

هذا المكان دون غيره من بلاد الله الواسعة التى يفوقه بعضها فى السحر والجمـــال !٠٠ أو قل ان الحظ و « السمعة السياحية » لهما نصيب فى جذب الغرباء أشبه بفعل المغناطيس ٠٠ ومن يدرى ، قد يكون لشكسبير و « توماس مان » وغيرهما من الادباء الذين جعلوا البندقية مسرحا لقصصهم المشهورة ، جانب من الفضل فى هذا الاقبال ٠٠ فان المـــرء لا تطأ قدماه أرض البندقية حتى يرتد ذهنه بسحر ســـاحر الى قصـــة « شيلوك » تاجرها اليهودى القديم ، فى قصة شكسبير !

الجندول ٠٠٠ خرافة !

والعجيبة الثالثة من أعاجيب فنيسيا ، ان « الجندول » الذى قام سحرها وشهرتها عليه ، وتغنى به الشـــعراء والـــكتاب ، وقرنوا اسمه بنزهات العشاق وأحلام شهر العسل ، هو فى رأيى أكبر « وهم » أو خدعة فى تاريخ الدعاية السياحية عـلى الاطلاق ! فليس فيه سحر أو شبه سحر يوحى بخيال أو بأحلام ٠٠ **بل انه ، بلونه الاسود ذى الخطوط الضئيلة المذهبـــة ، والزى الاسود المماثل الذى يرتديه ملاحوه ، لأشـــبه ما يكون بتوابيت الموتى ـ وزى حملة القماقم ! ـ منه بخلوات العاشقين!**

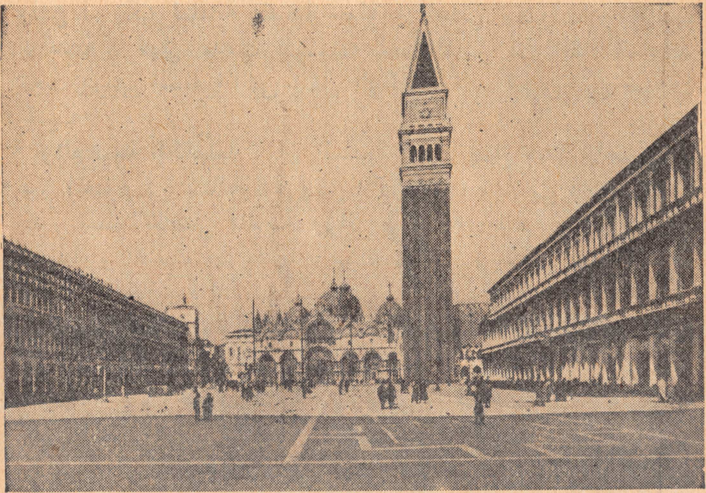
والعجيبة الرابعة التى لفتت نظرى فى المدينة العائمة ، ان الاحيـــاء العتيقة فيها ، بقنواتها الرطبة ومياهها الآسنة التى تلطخ شواطئها بعطن أخضر (قد يصلح لأن يستخرج منـــه «البنيسيلين» !) هى أنسب الاجواء ـ بقدر معلوماتى «الطبية» المتواضعة ـ لتوالد جراثيم الاوبئـــة والكوليرا والطاعون !٠٠ بل انك وأنت تعبر الممشى الخشبى الذى يصل الشاطىء ، أو المرسى ، بالزوارق أو السفن البخارية الصـــغيرة التى تذرع القنال الكبير ، **يذهلك أن تنظر الى الماء الذى تحت قدميك ، فاذا هو أشبه «بصفيحة قمامة» ، تطفو على سطحه الفضلات والقاذورات من جميع الانواع ، وفى مقدمتها قشر البطيخ !٠٠**

ولئن لم تكن لبلدية المدينة حيلة فى عطن القنوات وطحالبها الآسنة ، فهل عدمت الوسيلة لمنع الناس من القاء قمامتهم تحت مرسى السفن التى تنقل الركاب والسائحين بين ضفاف المدينة ؟

والعجيبة الخامسة ، ان البلدية التى تهمل هذا الاهمال غير المفهوم فى نظافة « عروس الأدرياتيك » ، هى ذات البلدية التى تنظم لقاطنى المدينة وزائريها متعة رفيعة تحمد لها — وحبذا لو اقتدت بها بلديات عواصمنا المصرية فى عهد وزيرها الطموح الحازم قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى — وأعنى بهذه المتعة الرفيعة اقامة حفلات موسيقية «مجانية» مرتين كل أسبوع فى ميدان « سان مارك » ، وهو أكبر ميادين المدينة ، حيث تعزف فرقة جبارة مؤلفة من نحو مائة عازف ، أرقى ألحان السيمفونيات الكلاسيكية ، لجمهور يقرب من العشرين ألفا .. **وانه لمنظر جميل حقا أن ترى عشرات الالوف من عشاق الموسيقى يتقاطرون على ساحة الميدان مساء كل يوم أحد وخميس ، فيتراصون حول منصة الموسيقى ، وقوفا — اذ لا يعقل أن تدبر المقاعد لكل ذلك العدد الغفير ، وتصف ثم ترفع من مكانها فى كل مرة ! — وتقضى الجماهير فى الاصغاء لموسيقاها الحبيبة على هذا النحو ساعة أو أكثر ، فى هدوء ونظام ، وكأن على رؤوسها الطير ، حتى ينتهى البرنامج فيتفرق السامعون كل الى سبيله ، مفعمى النفس غبطة وسعادة ، دون ان يدفعوا فى هذه المتعة الرائعة أجرا !**

١١٩ جزيرة .. و١٦٠ قناة !

◆ **والبندقية** مدينة يقطنها نحو ٣٢٥ ألف نسمة ، وقد شيدت فوق ١١٩ جزيرة صغيرة ، لا ترتفع عن سطح الماء أكثر من متر أو مترين ، ولا تبعد عن الشاطئ الايطالى الا مسافة ميلين ، كما لا تبعد عن غرض البحر — الادرياتيكى — بغير



فى هذه الساحة الهائلة لميدان «سان مارك» بفنيسيا يحتشد اكثر من عشرين الف مواطن مرتين فى الاسبوع ، ليستمعوا الى فرقة موسيقى البلدية المؤلفة من ١٠٠ عازف ، تعزف لهم أشهر السيمفونيات .. مجانا !

أربعة أميال . وتفصل الجزر بعضها عن بعض قنوات يبلغ مجموعها نحو ١٦٠ قناة ، وان كانت تربط بين بعض الجزر قناطر شيدت فوق القنوات . وتتم كل « حركة » المدينة بواسطة وسائل الانتقال المائية ، مثل الزوآرق ، واللنشات البخارية ، وسفن الرحلات الجماعية .. وقوارب الجندول . ويشق «القنال الكبير» المدينة الى شطرين غير متساويين ، وتربطها بالشاطىء الايطالى قنطرتان كبيرتان : قنطرة الخط الحديدى ، و « قنطرة الحرية » ، التى تعبرها مركبات المواصلات الاخرى المختلفة .. وفينسيا هى احدى المحطات

الهامة فى خط سير « اكسبريس الشرق السريع » الذى يربط لندن باسطنبول، مارا بباريس، وميلانو، وفينسيا، وبلغراد، وسالونيكا ٠٠

وتعرف البندقية أيضا باسم « مدينة القديس مرقس » - سان مارك - نسبة الى هذا القديس الذى كان أحد تلاميذ المسيح أو حوارييه الاربعة الأول ، وكان اثنان من التجار قد نقلا جثته من الاسكندرية الى حيث دفن هناك ٠٠ ثم شيدت فى المدينة فى القرن التاسع كنيسة سان مارك ، كى يدفن فيها القديس المذكور ، وسمى باسمه أيضا الميدان الهائل الفسيح الذى تشرف الكنيسة عليه ، والذى يعتبر أكثر مناطق المدينة ازدحاما بالناس ٠٠ وبالحمام ! ٠٠ وفى فينيسيا ، عدا كنيسة سان مارك ، ١٠٤ كنائس أخرى ، ونحو ٩٠٠ قصر من قصور النبلاء القدامى ! ٠٠ منها نحو مائتى قصر على ضفتى القنال الكبير ٠ ويرمز للمدينة عادة بصورة أسد له جناحان ٠

والميدان التالى لميدان سان مارك فى البندقية هو ميدان روما وأهم معالمه «جاراج» عصرى هائل لايواء السيارات يتألف من عدة طوابق ، ويتسع لالف سيارة ! ٠٠ ومن هذا الميدان يبدأ سير خطوط سيارات « الاوتوكار » الفاخرة الى النمسا ، عبر شمال ايطاليا ٠٠

جنة الاثرياء !

◆ **وفيما عدا** ميدانى سان مارك وروما ، لا يوجد بفنيسيا ميادين أخرى كبيرة ينطبق عليها وصف الميادين ٠٠ اللهم الا فى ضاحية المدينة ، الحديثة الخلابة : الليدو ٠٠ **ويندر أن تكون بين مدينة وضاحيتها مثل المفارقة الصارخة التي بين البندقية والليدو ! ٠٠ فبقدر ما تبدو الاولى مدينة عتيقة يرين على قصورها وفنادقها وشوارعها وكنائسها وسائر مبانيها ، طابع القرون الوسطى ، الذى لا يخلو من جلال ومهابة ٠٠ تبدو الثانية نموذجا فريدا فى العالم للضـــاحية العصرية ، الانيقة ، النظيفة ، ذات الفنادق العالمية الفاخرة ، والفيللات الحديثة الخلابة ، والشوارع الفسيحة البراقة التي يكاد المرء يرى صورته على صقال أرضها ! ٠٠ ويكفى أن يتأمل الزائر مصابيح الاضاءة فى الشوارع كى يحسب نفسه فى بهو فيللا أنيقة تزينه «أباجورات» عصرية !**

أما مقاهى الضاحية ، وحوانيتها ، ومشاربها ، وفنادقها ، فهى آيات فى فن « الديكور » والتنسيق والمعمار ، حتى ليخيل اليك وأنت جالس فى أى مقهى من مقاهى الشارع الرئيسى ، تتأمل المقاعد الفاخرة ـ المصنوعة من الالومنيوم الذهبى اللون! ـ وتجيل بصرك فى نظام اضاءة المقهى ، وفى نوع بـــلاط الرصيف ، وتصميم صالونات المقهى الداخلية ، وواجهات الحوانيت المجاورة ، وروعة الفيللا أو الفندق القريب ٠٠يخيل اليك وأنت تتأمل ذلك كله ـ على أنغام أوركسترا المقهى الذى يحتل مقصورة أنيقة على الرصيف ـ أنك تعيش في «ديكور»

وقصة فيلم سينمائي يخرج في «ستوديو» ، ولست في الطريق العام ، على قيد «دقائق» من المرسى الذى يلقى تحته قشر البطيخ !

واذا كانت ضاحية الليدو تقف في مقدمة اجمل ضواحي العالم ، فان موكب الحسن والاناقة والثراء الذى يمر بك وانت جالس في مقهاك ، لأروع موكب يمكن ان يجتمع في مدينة واحدة .. حتى لقد أحسست وانا أشهده يتلاحق امامي - دون « وعى » ، ولا تمهل ، ولا ابطاء ! - بانني قد أصبت « بتخمة » من الفتنة والجمال يتعذر وصفها .. فقد كان يخطر على الرصيف عدد لا يدركه الحصر من أجمل وأفتك و « أشيك » نساء العالم بلا مراء ! - وهو عدد لم اصادفه بهذه الكثرة وهذا « التركيز » ، في اية مدينة اخرى أو عاصمة من عواصم اوربا ، ولا في باريس !

فهل من عجب بعد هذا فى ان تختار فنيسيا - أعنى ضاحية الليدو - كى يقام فيها المؤتمر الدولى السينمائى فى اواخر اغسطس من كل عام ؟

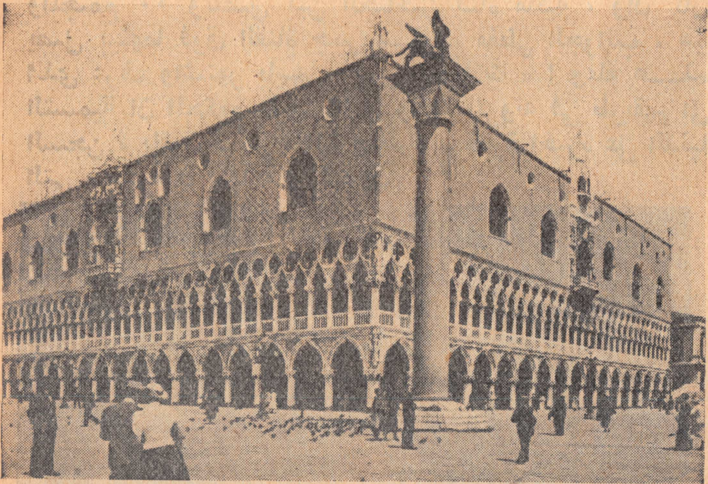
وهل كثير على ضاحية كهذه ان يقام فيها فندق عالمى مثل فندقها الأكبر « اكسلسيور » ، الذى يحوى ٥٧٦ غرفة ، والذى يلعب فيه القمار حتى الصباح ، اغراء للسياح ؟ .. وعلى ذكر هذا الفندق ، **كم اثلج صدرى ان اشهد تمثالين لابى الهول يقومان على جانبى سلمه الخلفية ! ... وهذه السلم تفضى الى شاطىء الاستحمام الخاص بنزلاء الفندق ، وهو من اكثر بلاجات العالم حظوة باكبر عدد من كواكب السينما واثرياء المجتمع - وقد رأيت فيه اثناء زيارتى النجمة الايطالية التى لمع نجمها هذا العام « جينا لولو بريجيدا » - وبالاختصار ، فلا ينقص هذه الضاحية شىء كى تصبح « جنة » الاثرياء !**

والآن ، وقد حان موعد عودتنا ، تعال نركب احدى سيارات الاتوبيس الفاخرة ، الى «ميناء» الليدو .. ومنه نستقل السفينة عائدين الى فينيسيا القديمة ، كى نبدأ منذ الغد زياراتنا لمعالمها الهامة :

قصر الدوج .. وجسر التنهدات !

◆ **وأهم** معالم «البندقية» التاريخية مبنيان متلاصقان : قصر الدوج ، المقر الرسمى لحكام المدينة الغابرين .. وكنيسة سان مارك . واذا كان الاول هو عنوان مجد فنيسيا الغابر - السياسى والمدنى - فان الثانية هى عنوان مجدها الدينى !

ولنبدأ بزيارة القصر ، الذى كان مقرا رسميا للدوج - أو الدوق - كما كان يطلق على حاكم المدينة ، ولكبار قضاة البندقية .. انه تحفة فنية خالدة على الزمان ، والأرجح انه بنى فى الأصل من الطوب - حوالى عام ٨١٤ - ليكون « قلعة » دفاعية ، ثم اعيد تشييده مرتين : الاولى شيد فيها الجزء الجنوبى المطل على البحر (خلال المدة بين عامى ١٣٠٩ -

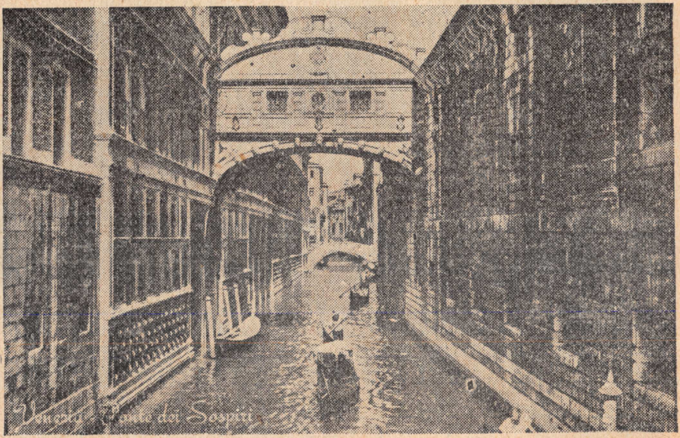


منظر خارجى لزاوية من «قصر الدوج» المشهور الذى كان مقرا لحكام (البندقية) طيلة الف ومائة عام ..

١٤٠٤) .. والثانية شيد فيها الجزء الغربى المطل على الميدان .. ولكن دون ان يعزز البناء فى الحالين بالتحصينات الدفاعية المألوفة ، نظرا لما كانت فنيسيا قد بلغته يومئذ من منعة وقوة بأس ! .. ثم أصيب القصر بعدة حرائق أتلفته ، فأعيد ترميمه عام ١٥٧٨ ، على طرازه الاصلى .

والقصر مشيد - من الخارج - على الطراز القوطى الشرقى ، وقد اتبع فيه التصميم الحديث نسبيا ، الذى يجعل الطابق الارضى على شكل «بواكى» مفرغة ، والطوابق التالية مملوءة الفراغ .. كما استخدم فى كساء واجهته المرمر الوردى والابيض . وقد جعل البناء مقسما الى جناحين أو قصرين ضخمين : **الخارجى منهما لسكنى الحاكم وبطانته ومستشاريه، والداخلى جعل سجنا لاعداء الحاكم والخارجين على القانون**

والمجتمع ·· وتفصل بين الجناحين قناة مائية ، وان كان يصل بينهما فوق القناة جسر مسقوف مغطى الجوانب ، هو الذى عرف واشتهر باسم « جسر التنهدات » ! وعلة هذه التسمية ان المحكوم عليهم كانوا وهم يعبرونه فى طريقهم الى السجن ، يلقون ـ من نافذة صغيرة ـ نظرة اخيرة على الدنيا التى سيحرمون منها ، ويتنهدون !



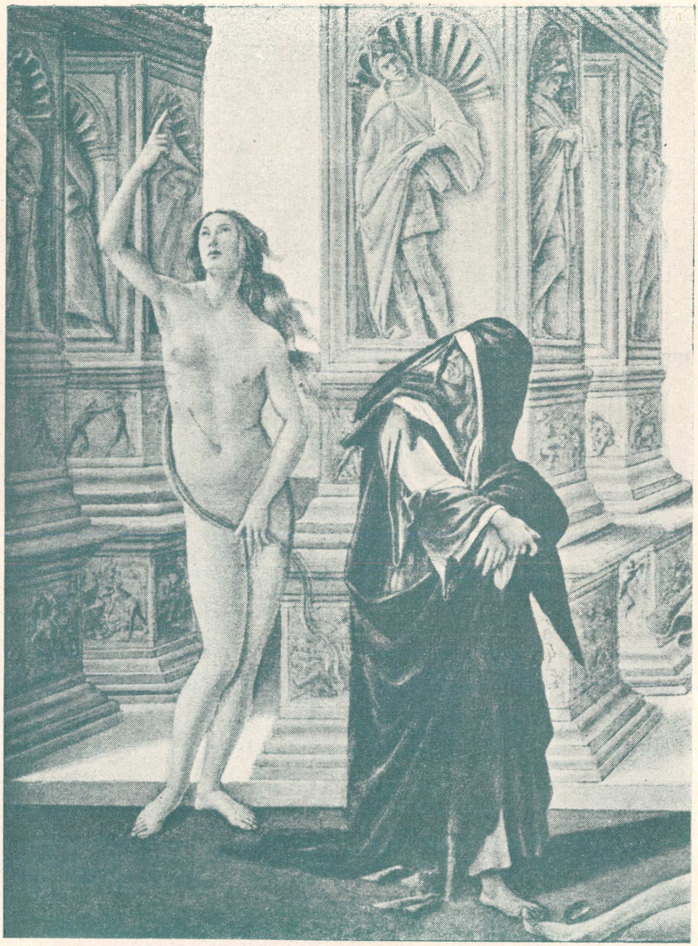
القناة التى تفصل بين « قصر الدوج » وبين السجن الرهيب الملحق به وفوق القناة « جسر التنهدات »

وقد ساهم فى تزيين القصر ١٠٥ فنانين، من رسامين ونحاتين ومهندسين · ويتألف من طابقين هائلين ، بهما عشرات القاعات الفسيحة التى زينت جدرانها وسقوفها بأبدع آيات الفن ، بجميع أفرعه ·· ومن بين هذه القاعات واحدة تعتبر اكبر قاعة فى العالم لا تعتمد على اعمدة البتة فى وسطها ، رغم مساحتها التى لا يكاد يدرك البصر مداها !

(وفى العدد القادم نواصل زيارة جميع معالم البندقية ·· ثم نواصل الرحلة الى : النمسا)

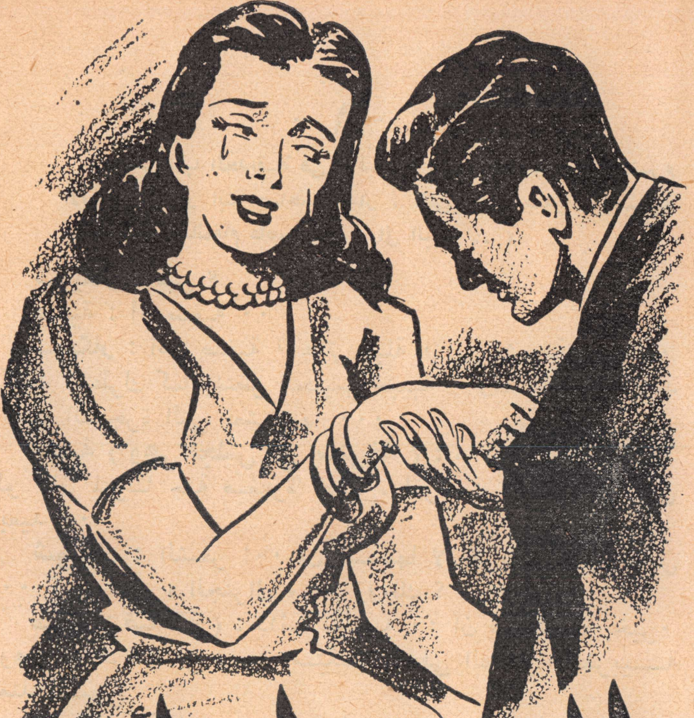


المشهد التقليدى لمدينة البندقية: طيران الحمام بميدان «سان مارك» بفينيسيا



الحقيقة (العارية) ووخز الضمير !

لوحة لـ «بوتينتشيللى» رسمها عام ١٤٩٠ ، وهى معروضة بمتحف أوفيزى



الفضيلة امرأة!

قصة مصرية
للأستاذ يوسف جوهر

- ١ -

(جرس باب الحديقة فى ((فيللا)) السيد مدحت يدق ، فتسرع الآنسة شويكار ابنة صاحب الدار ، التى تنتظر صديقتها صفية هانم زوجة القائمقام عاصم فهيم ، الى الباب ..)

شويكار : مين ؟

صفية : أنا صفية ..

شويكار : أهلا صفية . هاتى قبلة . آنى مشوقة اليك . كنت أنتظرك كما ينتظر الحبيب حبيبه . وقد أعددت المقاعد تحت الشجرة التى تعشقينها ...

صفية (وهى تجلس فى استرخاء) : ما أجمل حديقتكم .. لو كان لمنزلنا جنة صغيرة كهذه ، لقرضت الشعر منذ زمن بعيد ..

شويكار : الشعر !.. ان نسيمها لا يغرينى الا بالنعاس .. كيف حال « الجنرال » .. زوجك ؟

صفية (ضاحكة) : دائما تدللينه .. ان « عاصم » بخير . وهو مع فرقته فى رحلة استكشافية فى الصحراء الغربية منذ أسبوع

شويكار : كان ينبغى أن أراك اذن قبل الآن . فيم أمضيت الوقت ؟

صفية : فى المطالعة .. وفى خياطة ثوب لولو ابنة أختى . ان عيد ميلادها الثامن بعد أيام ، وقد اعتادت أن تنتظر منى الثوب الذى ترتديه ليلة العيد . دائما أصنعه لها بيدى ..

شويكار : المطالعة .. دائما المطالعة .. انك لا تسأمين الكتب أبدا .. يخيل لى أن هذه الكتب التى تقرئينها ، والتى لا عدد لها ، تذهب ببعض البريق الساطع فى عينيك .. البريق الذى سمعت « بعضهم » يتحدث عنه فى لهفة وحسرة

٠٠ أما تستطيعين أن تفطمى نفسك عن المطالعة يا صفية ؟

صفية : اذن فماذا أصنع بالوقت ؟ أنت تعلمين ان عاصم يقضى معظم وقته فى الثكنات الآن ٠٠

شويكار : لو ان « الجنرال » أنجب وارثا لسيفه ٠٠ أظن انه قد مضى على زواجكما الآن ثلاث سنين ؟

صفية : نعم ٠٠ خير أن لا يكون لى ولد ٠ الامومة مسئولية جسيمة

شويكار : لست معك يا صفية ٠٠ أن يكون لك ابن هو كل التعويض عن هذا الزواج غير المتكافىء ٠ ان القائمقام عاصم قد جاوز الخمسين ٠٠ ثم يكون أيضا رجلا عقيما ٠٠ ما ذنب شبابك الرائع ؟

خادم (يقبل ويتحدث الى شويكار) : التليفون يا سيدتى ٠

شويكار : عن اذنك لحظة ٠ **(تعود بعد لحظات)** ٠٠ أتدرين يا صفية من الذى تحدث ؟ انه « بعضهم » الذى يعجب بعينيك ٠ انه قادم الآن ٠

صفية : مين ؟

شويكار : يا مكارة ٠ أتتجاهلين ؟ ألم تضبطيه مرة وهو يحدق فيك كالابله ؟ انه فكرى المحامى ٠

صفية (مصطنعة الدهشة) : يجازى شيطانك ٠ خطيبك فكرى هو الذى ترمينه بهذه التهمة ؟!

شويكار : أهذه تهمة ؟٠٠ انى أطريه ٠٠ ان معنى ذلك انه يتذوق الجمال الرفيع ٠ ولو لم يفعل لظننت به الجمود ٠ لكنك تتحدثين كأنه خطيبى حقا ٠ ان رأيى لم يستقر يا صفية ٠ أنت تعلمين انه « مرشح » ٠ مرشح فقط ٠ ان الآخر ٠٠

صفية (مقاطعة) : مرشح ؟ ويل للمرشحين من قلبك ٠ انه الدائرة الانتخابية العصية التى تخذلهم دائما ٠٠ أما آن

لك أن تقلعى عن تقلبك وعبثك ٠٠ ان فكرى جدير بأن ينجح بالتزكية ، فانهخطيب قادر خلاب ، يستطيع أن يحقق كل أمانى الدائرة ٠٠

شويكار (فى تأمل) : يخيل لى أحيانا اننا لا نستطيع أن نتفق ٠ فهو مثلا لا يحب الرقص ، وأنا ٠٠

صفية (مقاطعة) : وأنت تريدين أن ترقصى كل الوقت ٠٠

(جرس باب الحديقة يدق)

شويكار : لا بد أنه فكرى ٠٠ سأفتح له ٠٠

فكرى : مساء الخير يا صفية هانم ٠٠ كيف حال القائمقام عاصم ؟ أما يزال يحلم بالحروب ، وبمجد الجيش ؟

صفية (ضاحكة) : الكاتب تخلده كتبه ، والمثال تخلده تماثيله ، والموسيقى تخلده ألحانه ، والمحامى تخلده مرافعاته ٠٠ والجندى تخلده المعارك التى يخوضها ٠ من حق عاصم أن يحلم بموقعة يبلى فيها ويقود رجاله الى النصر ٠٠ انه الآن فى الصحراء الغربية مع فرقته ٠٠ وأنت ؟٠٠ كيف حال مكتبك وقضاياك ؟

فكرى (ضاحكا) : ان القضاة لا يصغون الآن للمحامين كما كانوا فى الماضى ٠ اننا فى عصر « الضجر »

صفية (وهى تنظر الى شويكار) : يكفيك أن قاضى الغرام يطيل الاصغاء اليك فى هذه الايام ، ويفتح صدره لدفاعك الحار ٠٠

فكرى (وهو ينظر الى شويكار بدوره) : قاضى الغرام٠٠ ان ذلاقتى تشنق دائما على أهدابه الساحرة ، وتذوب فى ابتساماته ٠٠

صفية : ما هذه الجريدة التى فى يدك ؟٠٠ دعنى أتصفحها٠ سأحجب بها وجهى ٠٠ حتى أتيح لك أن تستمر فى مرافعتك ٠٠ **(تتصفح الجريدة ٠٠ ثم تصرخ فجأة صرخة خافتة وتقول:)**

أقرأت هذا الخبر يا فكرى ؟٠٠ « انقطعت أخبار الفرقة التى ذهبت منذ أيام الى الصحراء الغربية بقيادة القائمقام عاصم فهيم للقيام ببعض المناورات الاستكشافية ٠٠ وقد قلق ولاة الامور ٠٠ وخشوا أن تكون الفرقة قد ضلت الطريق ٠٠ واذا لم تتلق الاجهزة اللاسلكية نبأ منها الليلة ، فان الطائرات ستبدأ بحثها عند الفجر ٠٠ »

فكرى : هونى عليك يا سيدتى ٠ ان الصحف شغوفة دائما بالمبالغات ٠

صفية (مستأذنة) : لا بد لى أن أنصرف الآن لأتصل بوزارة الحربية ٠ يجب أن يبادروا بالبحث عن زوجى ٠٠ زوجى ٠٠

فكرى : سأكون سعيدا يا سيدتى ان استطعت أن أؤدى لك أية خدمة ٠

صفية : شكرا ٠٠ **(وتنصرف)**

فكرى (وهو يحدق بتأثر فى الناحية التى ذهبت منها) : كم تحبه !

شويكار : هذا عجيب ٠٠ مع الفارق الكبير فى السن !

فكرى : انها سيدة تعبد واجبها ٠ انها ودعت الصغائر يا شويكار ٠ الزوج فى عينيها رمز مقدس ٠٠ يجب أن تذهبى اليها وتلازميها الليلة ٠٠

شويكار (فى تردد) : كنت ذاهبة الى السينما ٠ انها الليلة الاخيرة لفيلم ٠٠

فكرى (فى اشمئزاز وتهكم) : ضحى ٠ ضحى بهذه السهرة من أجل صديقتك ٠٠ أنا ذاهب الآن ٠ وداعا ٠

شويكار : أهكذا ؟ سريعا ! ودون أن توقع على ميثاق حبنا بقبلة واحدة رقيقة ؟

فكرى : (ضاحكا فى فتور) : لقد أصبح سعر القبل فى الحب كسعر المواثيق فى قصاصات الورق ٠٠ خير لك أن

لا أقبلك .. سعدت مساء . سأتصل بأصدقائى فى الجيش لعلى أوفق الى مساعدة صديقتك .

شويكار : سعدت مساء . (**يخرج**)

- ٢ -

(بعد خمسة شهور . فى منزل القائمقام عاصم . صفية فى ثياب الحداد ، فان زوجها لم يعد من الصحراء !)

خادم : الاستاذ فكرى هنا يا سيدتى

صفية : فليتفضل ..

فكرى : سعدت مساء يا صفية . ما هذا الكتاب الذى فى يدك ؟ عن الصحراء أيضا ؟ رحلة احمد حسنين ؟ أف منك .. ألم أقل لك انك فى حاجة الى النسيان ؟

صفية : كيف أنسى مصير زوجى المحزن .. رجل يخرج ليؤدى واجبه فلا يعود . ولا تجد الطائرات بعد البحث الشاق غير بضع جثث مبعثرة فى الصحراء .. ليت جثته كانت من بينها .. ليت له قبرا أزوره .

فكرى (مواسيا) : لقد حدث ما حدث .. ما جدوى التصورات المحزنة ؟ يجب أن تنظرى الى الامام .

صفية (متنهدة) : الامام بالنسبة لأرملة حاجز أسود كئيب . ان كل حياتها وتذكاراتها فى الماضى .

فكرى : هذا الحائط الاسود الكئيب ستخترقه صداقتنا ، وستخرجين الى النور .. أو لم تعد لك ثقة باخلاصى ؟

صفية : انك لو لم تكن قد ظهرت فى حياتى لما كنت قد احتملت وجودى . ماذا كنت صنعت لو لم تكن الى جانبى !.. لو لم تلازمنى دائما ؟

فكرى : وأخيرا ها نحن معا .. يخيل لى أنه كان يجب أن نكون لبعضنا أكثر مما نحن الآن .. لو أننا التقينا فى الوقت المناسب قبل أن تتزوجي ، لتغير تاريخ حياتي وحياتك .

هى (ضاحكة فى مرارة) : حقا ؟ لكن . ان مجرد هـــذا التفكير يعد اثما فى حق شويكار خطيبتك وصديقتى .

هو (فى ضجر) : بالله يا صفية دعينى من شويكار . اننى أعلم الآن أن ارتباطنا لا ينتج الا الشقاء .

هى : لا ينتج الا الشقاء ؟!

هو : نعم .. حقـــا قد التقينا فى الماضى عند النقطة التى يلتقى عندها كل شاب وفتاة تضطرم فى قلبيهما لهب الاحلام ، لكن سرعان ما افترق بنا الطريق !

هى : لماذا افترق بكما الطريق ؟

هو : كنت أنشد فتاة أستعين بها على الحياة والكفاح . فتاة يذهب الحنان المتدفق من عينيها كل همومى ، ويغســل نفسى من شكوكها ويأسها وكفرانها بالناس ، وبضمائرهم ونواياهم . كنت أريد امرأة تنظر الى كرجل يكمل ضعفها ويحمى أنوثتها الرقيقة . ورأيت شويكار تندفع نحوى فحسبت أن حظى قد حبانى بامرأة كاملة . لكن سرعان ما تكشفت لى الحقيقة . لقد مالت لى لانها حسبت أنها تستطيع أن تستعين بى على الضجر . أن تنجو بى من السآمة التى تستولى عليها أحيانا .. فاذا ظهر فى أفق حياتها رجل جديد وظنت أنه يحقق لها حيـــاة شائقة ممتعة أكثر مما أستطيع . فانها تمضى ..!

هى : لكنى أحسب انك لم تكن تنظر اليها كذلك من قبل !

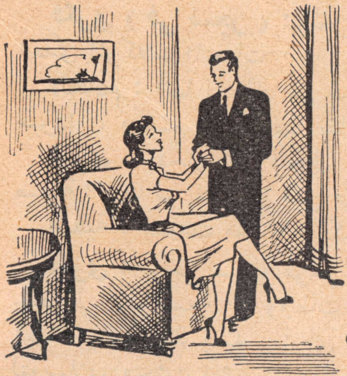
هو : كنت فى الظلام . لم أكن قد لقيت بعد امرأة كاملة . ان من يكون فى الظلام الحالك يقنع بنـــور الشموع . فاذا ما سطعت الشمس على حياته ، وقارن بين النورين ، ضحك من نفسه .. ونسى الشمع الذى خفق حينا فى ظلامه .

هى : ماهذه الشمس الجديدة ؟!

هو : أنت . أنت يا صفية .

هى (فى اضطراب) : أنا ؟!

هو : انك الآن فى الثلاثين !
هى : وبعد ؟
هو : وأنا أكبرك بثلاثة أعوام ٠ وستنتهى ايام الحداد ٠٠
هى : انك تتحدث يا فكرى الى أرملة ٠ يجمل بك أن تحترم حزنها ٠
هو : أتتعمدين ايلامى ؟ دعك يا صفية من هذا الاسلوب ٠ ان رأيك الذى أريده مسطر فى عينيك ٠
هى : ماذا تقرأ فى عينى ؟
هو : أقرأ انك تعرفين انك بالنسبة لى كل شىء ٠ الامل والمستقبل ٠ والسعادة ٠
هى : رفقا يا فكرى ٠ أنا حائرة مضطربة ٠ أعطنى وقتا للتفكير ٠
هو (فى ضجر) : لقد قتلنى الشك ٠ أريد أن أعرف الآن هل أنا سعيد أم شقى ٠ هل أنا فى النور ام فى الظلام ٠ قولى نعم أو لا ٠
هى : يا فكرى ٠ اعطنى وقتا قليلا ٠
هو : وداعا ٠ لو كانت لى فى قلبك صورة واضحة لما ترددت ٠
(يخرج ويغلق الباب وراءه فى عنف)
هى (صارخة) : فكرى ٠٠ فكرى ٠ **(ثم تتهالك فى كرسيها قائلة :)** يا الهى ٠ انه لا يعلم كم أحبه ٠ كم أجد السعادة كبيرة لا تحتمل ٠ **(وتنخرط فى البكاء ٠)**
هو (ينقر على الباب ويدخل ثانية) : لقد ظللت واقفا على الباب ٠ الآن أعلم أن لى صورة واضحة فى قلبك ٠ تبكين ! ما أعجب قلب الانسان ! لماذا نبكى من السعادة كما نبكى من الشقاء ! هات يديك أقبلهما ٠
هى (بصوت منتحب) : لقد عبدتك فى خيالى منذ بعيد ٠ فى حياة زوجى كنت أراك ملاكا غير رحيم يقتحم محراب زوجيتى



ويقلب تماثيله . كم كبدتنى اعادة التماثيل الى مواضعها من الالم والعناء .. فلما رحل الرجل الكريم ، وصرت حرة ، هاجمنى شعور مبهم بأننى أثمت بالخيال وأنا مقيدة .. لست تدرك كم يعذبنى الآن تصورى اننى سأصير بين ذراعى الرجل الذى تمنيته يوم لم يكن لى الحق فى أن أتمنى ..

هو (ضاحكا) : ألم أقل لك ان ضميرك يخيل لك أن دبيب النمل هو قصف المدافع ؟

هى : قل ماشئت . انى خائفة بقدر ما أنا سعيدة . يخيل لى ان قلبى وعاء ملء بالفرح وبالقلق ..

هو : اذهبى الى فراشك . سيغسل النعاس وساوسك من رأسك . قولى لى فقط ، قبل أن أنصرف ، تلك الكلمة الصغيرة التى تفتح باب الهناء ..

هى (فى عجب) : الكلمة الصغيرة !.. ما هى ؟

هو : كلمة السر ، التى تبيح دخول الفردوس . قولى لى .. انك تحبيننى .

هى (ضاحكة فى استحياء) : ما أرقك .. نعم ، انى أحبك .. أحبك أكثر منك !

- ٣ -

(بعد ثلاثة أشهر ، فى منزل الاستاذ فكرى المحامى ، فى المساء)

خادم : سيدة تريد مقابلتك يا سيدى .

فكرى (فى ضجر) : أتعرفها ؟ اصرفها بالحسنى ان كانت احدى الموكلات المتعبات .

الخادم : انها لم تأت من قبل يا سيدى . انها ترتدى ثيابا سوداء ، وتضع على وجهها نقابا .

فكرى : ادخلها فى الحال .. **(مخاطبا نفســه)** أتكون صفية ؟ انها لم تفكر من قبل فى زيارتى .

صفية : سعدت مساء يا فكرى .

فكرى : مرحى صفية مرحى .. أخيرا رضــيت أن تزورى حجراتى المتواضعة .. ووطأت قدماك أرض أحلامى التى خطر فيها خيالك منذ بعيد .. أى ريح طيبة أرسلتك ؟ لعلك لنت لتوسلاتى وجئت تبشريننى بأن الانتظار المفروض على قد انتهى، وانه قد آن لى أن لا أعيش وحيدا ؟

هى (متنهدة) : الانتظار !.. انتظارك لن ينتهى يا فكرى .. وا أسفاه .

هو : أتمزحين !

هى : انى هنا لأقول لك انه ينبغى أن لا تنتظرنى بعـد الآن ..

هو : لماذا ؟!

هى : لأنى لست حرة ..

هو : لست حرة ؟!

هى : نعم . لقد وضح ان زوجى عاصم ما يزال حيا .. إنه لم يمت !

هو (هازئا) : خرافة كبيرة !

هى : الخرافة الكبيرة حلمنا بالسعادة ، أما الحقيقة فهى اننى آتية من عنده .. الآن

هو : تعنين انك آتية من السماء ؟.. أعرف انه ليس فى عالمنـــا .

هى : لقد استدعتنى اليوم وزارة الحربية ، واليك القصة : كان حظ عاصم فى تلك الرحلة المشئومة أحسن من حظ رفقائه . فقد سقط بعد ما فرقهم اليأس فى الصحراء ، صريعا للقيظ والجوع والظمأ ، على مقربة من طريق تمر به القوافل .. وشاء القدر أن تمر قافلة لتجده نصف ميت والدم يتدفق بغزارة من شج فى رأسه نشأ عن ارتطامها بالصخور عند سقوطه .. وقد حملته تلك القافلة معها الى احدى الواحات النائية .. ولبث هناك فريسة لارتجاج فى المخ وحمى قاسية طرحته بين الموت والحياة زمنا طويلا .. حتى شفى أخيرا . لكنه خسر أثناء مرضه الطويل ذاكرته ! فقدها ، ولم يعرف منقذوه منه هويته .. فتركوه يعيش بينهم . ثم صارت القوافل تحمله معها حتى بلغت به احداها الحدود المصرية . وأخيرا ها هو ذا فى المستشفى العسكرى . انه عاصم بدمه ولحمه . لكن بدون رأسه . انه لم يعرفنى !

هو : وبعد ؟

هى : وبعد .. فقد جئت أودعك . ان الحلم قد انقضى !



هو: وستفضلين العيش مع رجل فاقد الذاكرة .. على العيش معى !

هى : انه واجبى .

هو : عن أى واجب تتحدثين؟ تضعين الاغلال فى عنقك بيدك ثم تسمينها واجبا ! .. ان القانون فى صفك . وهو يحميك من هذه الشركة الظالمة ويمنحك حريتك .

هى : ان القانون الذى أريد أن أعيش فى حمايته هو ضميرى ٠٠ وقد حكم حكمه ٠

هو (يائسا) : انى لأسائل نفسى : هل أحببتنى حقا ٠٠ انك تتحدثين ببساطة عن خروجك من حياتى ، كأنك لا تعرفين انك العامود الذى أقمت عليه آمال الهناء ، وان كل شيء سينهار من بعدك ٠٠

هى : فكرى ٠ ان الرجل الحق لا تهدمه امرأة ٠ لا ينسف حياته خروج امرأة منها مهما تكن ٠

هو : الآن أعلم انك لا تحبينني ٠ آنك تتحدثين عن عاطفتى كأن زمامها بيدى ٠٠ كأنها أسهم فى البورصة !

هى : أنا أعلم انك رجل ٠ وقد أحببت فيك رجولتك القوية ٠ يوم كنت تلقانى وأنا غير طليقة ، عند شويكار ، كنت أرى العاطفة تشتعل فى عينيك ٠ كنت لا أشك أن تلك النار تشب من قلبك ٠ لكنك لم تسمح لنفسك قط أن تؤذى السيدة المتزوجة بنظرة أو كلمة ٠٠ وعرفت أن أبواب ارادتك التى تحجز وراءها رغائبك الصارخة أبواب قوية ٠٠ فأكبرتك ٠ ماذا صنع القدر بنا ؟ انه أعادنا الى حالنا الاولى ٠٠ رد نفسك يافكرى وراء الحواجز التى كانت قائمة ٠٠ وراء الابواب ٠٠

هو (فى يأس) : يخيل لى أن هذه الرغائب ، وقد اقتاتت من الاحلام ورضعت من الامانى الدانية القطوف ، قد صارت قوية حتى لا يمكن حبسها !

هى : يافكرى تعقل ٠ انك محام ٠ ان صناعتك هى الانصاف ٠ ان أطعتك فمن للرجل المسن الذى هدمه المرض ، وسلبته الاقدار رأسه ؟ تصور رجلا يعيش بلا فكر ٠ رجلا فقد كل ثروته من الذكريات ٠ رجلا هو ابن يوم فقط ٠ تصوره وحيدا ٠ فى شيخوخته ٠ وحيدا لان امرأته قد فرت مع آخر ، مفضلة الهناء المسروق على الخبز الجاف المشروع ٠ أين ذهبت

الشفقة التى تملأ قلبك ؟ الشفقة التى دفعتك ذات ليلة الى أن تحمل على كتفك طفلا من أبناء السبيل رأيته راقـــدا فى الطريق ، لتضعه فى فراشك !

هو : ما أعجبك ٠٠ انك تتحدثين عن التضحية كما لو كنت تتحدثين عن نزهة خلوية !

هى : اننى لا أضحى ٠٠ ان السعادة تكون غالبا حيث يكون الواجب ٠ لماذا هذا اليأس ؟ ان حبنا باق ، ما دامت قلوبنا باقية ٠٠ كل ما هنالك أنها تنزل عن تبعتها الارضية ، وتبدأ مباشرة حياتها السماوية ، وعناقها الصافى ٠٠ كالصفاء نفسه ٠

هو : بدأت أفهم أى نور يتدفق من قلبك ٠

هى : بدأت تقتنع ٠٠ كنت أعرف أنك ستقتنع ٠٠ كنت واثقة من قلبك ٠٠ وداعا يا ٠٠ يا حبيبى ٠

هو : لماذا الوداع ٠٠ الى أين أنت ذاهبة ؟

هى : أنى ذاهبة الى زوجى ٠٠

هو : أنا ذاهب معك ٠ سنعنى سويا بالرجل المريض ٠٠

هى (فى ارتياح) : اذن فقد التقينا ، ولا حاجة بنـــا الى الوداع ٠٠

هو : نعم ٠٠ أرى قلبينا يلتقيان ثانية ويلتفان معا حـــول الرجل الضعيف ، ويبدآن عنده عناقهما العفيف ٠ كانت هذه عقيدتى فيك دائما ٠ انك امرأة فاضلة ٠٠ ما الفضيلة والطهارة فى عينى الا امرأة ٠٠ هى أنت ٠

اقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى أعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة للفيلسوف الانجليزى المعاصر « جود »
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك
- مراهق : البرتو مورافيا
- آلهة ومقابر وعلماء : سيرام
- الالمان ، شعبا وعباقرة : اميل لودفيج
- مستقبل زوجك فى يدك : مسز ديل كارنيجى
- ثمن اسرائيل : ألفريد ليلنتال

واليوم أقدم لك فيما يلى فصلا جديدا شائقا من فصول هذا الكتاب الممتع الذى لخص فيه الكاتب العالمى المعاصر « اندريه موروا » سبعا من اشهر القصص الطويلة فى الادب الفرنسى ، باعتبارها تمثل ألوان الحب السبعة !

وفى الاعداد القادمة ازمع ان اقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الكتب الممتعة ..



اقنعة الحبّ السبعة : لأندريه موروا

الحبّ الحرام!

(العلاقات الخطرة)

القنـــاع الثـــالث ٠٠ من أقنعة الحب !

◆ فى قصة « جوليا » رأينا روسو ، الخيالى ، يهرب من عصره ويصور الحب كما يريده أن يكون ! .. أما فى هذه القصـــة – « العلاقات الخطرة » – فالمؤلف ، الواقعى ، «لاكلو» يعيش فى عصره ويصور الحب كما يراه فى المجتمع بالفعل ! .. والمجتمع الذى عاش فيه لاكلو وصوره هو المجتمـــع الأرستقراطى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ٠٠ مجتمع ينعم فيه الرجال والنساء بفراغ كامل ، لا يعرفون الكدح من أجل العيش ، ولا يسمح لهم بممارسة (لعبة) السياسة التى تشغل جزءا كبيرا من وقت فراغ الرجل فى القرن العشرين ... فماذا يفعل الانسان ، حين لا يجد ما يفعله ، غير أن.. يحب !؟ ان الحب يصبح عندئذ هواية كالشطرنج، يتبادل فيها اللاعبان الغلبة ، ثم يغير كلاهما رفيقه فى اللعبة كى يمارس براعته وحيله مع آخر ، وهكذا .. !

انها لعبة قاسية ، لا ترحم ... ولكن ، هكذا الانسان !

المـــؤلف

◆ **ومؤلف** قصة (العلاقات الخطرة) هو الجنرال « كوديرلوس دى لاكلو » ، وكان عندما ألفها – عام ١٧٨٢ – ملازما بسيطا فى حامية مدينة (جرينوبل) لفت أنظار المجتمع الراقى فيهـــا بقوامه الطويل النحيف، وبشرته الشاحبة، وعينيه الزرقاوين، وحساسيته المرهفة ، وطبعه النارى ٠٠ وكان من المعجبين بروسو كاتب ذلك العصر ٠٠ **وقد يخيل لمن يقرأ قصـــته (العلاقات الخطرة) انه كان هو نفسه «دون جوان» من فرسان الغرام الخطرين ! ولكن أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، بل كان – مثل هنرى جيمس ومارسيل بروست – شغوفا بالتحدث الى النساء ، والاصغاء الى أسرارهن وقصصهن ٠٠ والنساء عادة**

يأتمن على أسرارهن الرجال الفضوليين «غير المحاربين» ، أكثر مما يأتمن العشاق الذين يمارسون الحب فعلا ، لا قولا ، أو كتابة ! ٠٠ وعندما نشر لاكلو فيما بعد (العلاقات الخطرة) استطاع أهالى مدينة جرينوبل أو خيل اليهم انهم استطاعوا التعرف فى أبطالها على بعض أشخاص مدينتهم الحقيقيين ، الامر الذى كفل للكتاب رواجا كبيرا !

وقد اتهم بعض النقاد القصة بأنها تصور حياة حفنة من الرجال العابثين والنسوة العاهرات ، ممن لا يمثلون المجتمع كله بحال من الاحوال ٠٠ مثلما حدث فى فرنسا أخيرا فى الفترة بين عامى ١٩٢٠ ـ ١٩٤٠ ، حين ملأ ثلاثون أو أربعون من المستهترين جو باريس وصحافتها بأنباء مغامراتهم وغرامياتهم، فى الوقت الذى كانت فيه بقية الشعب تحيا حياة عائلية نظيفة بلا جعجعة ولا ضجيج !٠٠ ويدعم أصحاب هذا الرأى حجتهم بأن الروائى يكون عادة أميل الى الكتابة عن العاهــرة منه الى الكتابة عن القديسة ، فان حياة الاولى أحفل بالحوادث والصور من حياة الثانية ٠٠ فضلا عن ان ضابطا فقيرا مثل «لاكلو» لابد قد غالى فى تصوير الجانب المظلم من حياة النبلاء ، مدفوعا بحقده المرير عليهم ، شأن أفراد طبقته فى تلك الفترة السابقة مباشرة لنشوب الثورة الفرنسية !

٠٠ وقد أثارت القصة بالفعل عند صدورها «هياجا» بين أفراد الطبقة النبيلة التى كانت موجهة ضدها ٠٠ فلم يبق شخص فى باريس وفرساى الا وتاق الى أن يعرف المـؤلف الجرىء ! وساء رئيس «لاكلو» فى الجيش أن يكون مرؤوسه الضابط روائيا «ماجنا» ، لكن الشـاب كان بارعا فى عمله متمكنا من فنه الحربى ، فشفع له ذلك لديه وأنقذه من غضبه ! ٠٠٠ ورغم تعرف الناس على شخصيات القصـــة بين أهالى (جرينوبل) ، فان الخاصة منهم اعتبروا الكتاب عملا أدبيا

غير مقيد بزمان أو مكان ٠٠ وقد فطن المؤلف الى هذا فقال : « ان القارىء المجرب يستطيع بسهولة ان ينزع عن شخصيات القصة أوصافها وثيابها التى تنطبق على بيئة معينة ، ويراها نفسيات عارية قابلة لان تلبس ثياب وأوصاف بيئته التى يعيش فيها ٠٠ »

والغريب فى الامر كله أن هذا المؤلف الناجح الذى ظفر كتابه بمثل هذا الرواج والتقدير ، لم يؤلف بعده كتابا آخر ! **٠٠ والاغرب من ذلك انه وهو خالق شخصية فالمون (الماجن) ، كان فى حياته الخاصة على خلاف ذلك ، فقد تزوج وصار أسعد الازواج ، وأشدهم تعلقا بزوجته ! ـ كما يظهر من خطاباته اليها ـ وكانت هى أخت أميرال الاسطول الفـرنسى وتدعى « سولانج دوبير » ٠٠ اصغ اليه وهو يقول لها فى خطاب : «اليك أدين بسعادتى طيلة الاثنى عشر عاما الماضية ، ولا شك ان الماضى أكبر ضمان للمستقبل ٠٠ واننى لسعيد بأن أراك تشعرين أخيرا بأنى أحبك ، ولكن اسمحى لى أن اذكرك بأنه خلال الاعوام الماضية كلها لم يحدث ما يجعلك تشكين فى ذلك ! » ٠٠ ثم يمتدحها فى خطاب آخر لكونها «عشيقة» خلابة، وزوجة كاملة ، وأم رقيقة ٠٠ فى وقت معا ! ٠٠ وحين تلوم نفسها على بدانتها يقول لها معجبا فى تورية لطيفة : « كلما صار لى منك قدر اكبر ، ازددت فى قلبى قدرا ! »**

وقد دامت عاطفته هذه نحو زوجته عشرين عاما ـ الامر الذى لا يحدث من رجل ماجن ! ـ وقد فكر لاكلو فى كهولته أن يكتب قصة أخرى يثبت بها ان السعادة الحقة لا توجد خارج نطاق البيت والعائلة ٠٠ لكنه لم يحقق فكرته. ويرى أندريه جيد انه حسنا فعل بعدم تحقيقها ، جازما بأن لاكلو الروائى الساخر، المولع بالمؤامرات والدسائس الغامضة ، لا يمكن أن يكون

مخلصا فى حبه للفضيلة ٠٠ بل لا شك أنه يضع يده فى يد الشيطان ! ٠٠ بينما يميل أندريه موروا الى عدم مشاركة زميله رأيه هذا، وان أقره على أن لاكلو قد عرف كيف يصور الشيطان فى قصته أروع تصوير ، وانه برع فى وصف «جحيم» الحب الحرام ! ٠٠ كما اتفق الكاتبان المعاصران فى أن لاكلو قد بلغ بقصته (العلاقات الخطرة) مرتبة .. « راسين » !

القصـــة

◆ الشخصيات الرئيسية فى القصة خمس :

الفيكونت دى فالمون : وهو دون جوان «محترف» خبير بفنون الغرام ، يستبيح لنفسه فيها ما يتورع عنه ابليس !

المركيزة دى ميرتوى : وهى فى طباعها واستباحتها وقسوتها توأم للفيكونت دى فالمون ، بل لعلها تفوقه وتبزه فى المناورات الشيطانية !

السيدة دى تورفيل : وهى حسناء من طبقة العامة ، تقية ، ومحتشمة..

سيسيل دى فولانج : وهى عذراء ساذجة ، خرجت حديثا من مدرسة الراهبات .. تريد امها ان تزوجها باسرع ما فى وسعها من « الكونت دى جيركور » ، وان كانت الفتاة تحب شابا آخر هو الشيفالييه « دانسينى » !

ثم **الشيفالييه دانسينى** : وهو بدوره يحب سيسيل ، لكن المركيزة دى ميرتوى توقعه فى حبائلها .. فتتخذ منه عشيقا ، دون ان تحبه !

٠٠ فاذا بدأت القصة رأينا العلاقات الخطرة بين ابطالها معقدة متشابكة : فان الكونت دى جيركور ، الذى تدخره أم سيسيل زوجا لابنتها ، كان يوما عشيقا للمركيزة دى ميرتوى ، وخانها خيانة لم تستطع الشريرة ان تغفرها له حتى الآن .. ومن ثم فهى تتحين الفرصة للانتقام منه ، بغير رحمة ! .. فنراها تلجأ فى هذا الشأن الى فالمون ـ الذى كان بدوره احد عشاقها الغابرين ، وظل صديقا وشريكا لها فى مؤامراتها ! فبينهما لا يوجد رياء كاذب ولا تظاهر خادع ، بل مشاركة قديمة فى المتعة، قد تتجدد فى اية لحظة ، دون ان يكون للحب نصيب فيها .. مثلهما مثل اللصين اللذين يعملان معا ، يحدوهما «تقدير» متبادل من أحدهما للآخر ـ فى عمله ـ لكنه تقدير لا يصل الى حد الثقة !

وهكذا تكتب المركيزة خطابا الى فالمون تقول له فيه : « .. **ولعلك تعلم كم يعلق جيركور من آمال على عفة الفتاة التى يزمع ان يتزوجها .. فاذا استطعت اغواء سيسيل ، والايقاع بها قبل الزواج ، امكننا ان ننتقم من عدونا .. ونسخر منه ! .. وفوق ذلك فان الفتاة تستحق ان تحظى بانتباهك ، فهى جميلة حقا ، وفى الخامسة عشرة ... زهرة نضرة لم تتفتح اكمامها بعد ! »**

لكن فالمون لا يبدى تحمسا للفكرة فى البداية .. فان الايقاع بفتاة غريرة لم تر أو تسمع من الحياة شيئا ، ليس بالمهمة الجديرة برجل مجرب مثله ! .. ومن ثم فهو يكتب الى المركيزة ردا على خطابها : « كلا .. فانى الآن مشغول بمغامرة سوف يحقق لى نجاحها المجد والمتعة .. انك تعرفين السيدة دى تورفيل ، وتعرفين تدينها وتقواها ، وحبها لزوجها ، ومبادئها الصارمة .. تلك هى القلعة التى أهاجمها الآن .. وهذا هو العدو الجدير بمثلى .. والهدف الذى اطارده ! »

وكان فالمون يقيم وقتئذ فى الريف ، فى قصر عمة السيدة دى تورفيل ! وكانت هذه تقيم عند عمتها فى الوقت نفسه ، فاستنفد حصاره للمرأة التقية كل وقته وجهده .. مما أسخط عليه صديقته المركيزة ! .. ماذا ؟ أيرتمى رجل مثل دى فالمون عند قدمى امرأة مثل دى تورفيل ؟

وتتلقى « دى تورفيل » خطابا من مجهول يحذرها فيه من نيات فالمون ، لكنها تدافع عنه بحرارة تفضح مبلغ اهتمامها بأمره : « انه يحدثنى بثقة كاملة ، وأنا أعظه بصرامة تامة .. وكل من يعرفه يستطيع ان يتصور كم ستكون هدايته الى الصراط المستقيم رائعة ! .. وعلى اى حال فان الذى يمكننى ان اجزم به هو أنه ، رغم صلته الدائمة بى ، وما يبديه من استمتاع بصحبتى ، لم يدع كلمة واحدة من كلمات الحب تفلت من فمه .. قد يحدث انه يتملقنى احيانا ، ولكن بلباقة يحسد عليها ! »

وهكذا يتمكن الشيطان ، وهو يرتدى مسوح الرهبان ، من ان يواصل تلقين دروسه للقديسة !

*

◆ **وتتشابك** المناورات الثلاث : فيعهد الشيفالييه دانسينى - الذى فرقت الظروف بينه وبين الاتصال بحبيبته سيسيل - الى فالمون بتوصيل رسائله اليها .. وهنا .. هنا فقط .. يغدو الايقاع بالفتاة أمرا شائقا فى نظر فالمون ، فان خيانة «صديق» تغدق شيئا من (التوابل) المشهية على اغواء فتاة بريئة ! وهكذا يبدأ فالمون مناوراته الشيطانية بأن يزعم لسيسيل



الغريرة أن تسلمها خطابات حبيبها فى وضح النهار أمر عسير ، ومن ثم يحصل منها على مفتاح غرفتها .. كى يحمل اليها الوديعة تحت جنح الظلام !

وذات ليلة يتسلل الى غرفتها .. ويجلس على حافة فراشها .. ويسرق منها قبلة .. ثم أكثر من القبلة !.. واذا هو قد أصبح عشيقا للفتاة الجميلة التى تهبه جسدها ، بينما يظل قلبها ملكا لحبيبها دانسينى ! انها تقبل هذه المشاركة الشاذة بغفلة طبيعية بالنسبة لسنها ! .. ومنذ تلك الليلة تستقبل فالمون كل ليلة مرحبة ، فيغويها طبقا لخطة منظمة .. وحين تصبح ، تكتب لدانسينى خطابا رقيقا يفيض حبا ووجدا !

لكن هذا النجاح لا يقعد فالمون عن مواصلة مطاردته للمرأة التقية دى تورفيل .. وكان قد بلغ معها مرحلة التحدث اليها عن الحب ، واغرائها بالاصغاء الى حديثه ! .. وتتنبه المرأة فجأة لما أصابها ، فتحاول انقاذ نفسها بالفرار ! .. لكن مقاومتها للداهية الماكر انما تلهب رغبته وتضاعف من شوقه الى اخضاعها ، بدل ان تيئسه .. فيكتب فى وصف شعوره بعد فرارها : « اننى لن استرد سعادتى ورضاى قط حتى انال هذه المرأة ، التى أكرهها وأحبها بنفس الانفعال !.. وان قدرى لن يغدو محتملا الا فى اللحظة التى تصير هى فيها رهن مشيئتى .. وعندئذ ، وأنا فى أتم هدوئى ، سوف يغبطنى أن أراها تصبح بدورها فريسة لنفس العذاب والاهوال التى أقاسيها أنا الآن .. ان الساعة التى أحلم بها سوف تاتى حتما ! »

وكان يحق له أن يأمل خيرا .. فان التعسة كانت قد تورطت فى حبه ، الى حد اليأس !.. ولكن كيف يتوصل الى تحطيم آخر أسوار مقاومتها ؟.. لمثل ذلك كانت « ترسانة » فالمون تحوى مختلف الاسلحة التقليدية : زعم الشيطان لها أن عزمه قد استقر ، بدافع من يأسه ، على اعتزال العالم .. والانزواء فى دير !

وأحدث التهديد فى المرأة الخجول أبلغ الاثر ، فرضيت أن تستقبله أخيرا .. وحين انفرد بها ، واجهها بتهديده الجديد المخيف : « دعينى أنالك .. أو أموت ! » .. لكنها تظل تبمده ، وتروغ منه .. واذ ذاك ، فى فحيح كئيب ، هامس ، يغمغم لها : « اذن .. لم يبق الا الموت ! »

فتسقط مغشيا عليها .. بين ذراعيه !

ويظفر بها ..!

*

◆ ثم تأتى مرحلة اليقظة ، والندم ، حين تكتشف دى تورفيل – التى كانت تحسب فالمون متيما بها – انه بعد أن نالها ظل كالعهد به ، ذلك العابث الماجن الذى عرفته ، وانه يخدعها .. فتعاتبه .. ويرد هو عليها بخطاب قاس .. فتدخل الدير ، يأسا ، وزهدا !

.. أما سيسيل فيكتشف حبيبها الشيفاليه دانسينى بدوره حقيقة ما حدث لها ، فيعمد الى تحدى فالمون – الجانى عليها – ومبارزته .. وقتله !.. وحين يصل نبأ موته الى مسمع « دى تورفيل » فى ديرها .. تلحق به !

ويتخلى جيركور عن خطيبته سيسيل بعد أن تلوثت .. فتدخل الأخرى الدير وتصير راهبة ، تقضى بقية حياتها فى التعبد .. والتكفير !

أما المركيزة دى ميرتوى – مدبرة هذه المآسى – فتصاب بالجدرى .. لكنها تنجو من الموت ، كى تعيش مشوهة : بعين واحدة ، ووجه كريه مفزع !.. وتنتهى القصة بهذه العبارة : « أى انسان لا يرتجف جسده هلعا ، حين يتدبر البلايا التى قد تسببها علاقة واحدة خطرة .. أو حب محرم ؟! »

العلاقات الخطرة .. بين الخيـــال والواقع !

◆ **تلك** هى شخصيات قصة «العلاقات الخطرة» كما صورها لاكلو ..

فهل هى شخصيات يمكن أن يتصورها العقل ، وهل يمكن أن توجد طبقا لمنطق الحياة ؟

نعم ..!

بل ان التاريخ يحدثنا بأنها وجدت فعلا ، وفى أشخاص يعرفهم هو .. ونعرفهم نحن !

أما الفيكونت دى فالمون .. فقد وجد فى شخص الشاعر « بيرون »!

أما المركيزة دى ميرتوى .. فهى خليط من « ليدى ميلبورن » و « ليدى اكسفورد » ، اللتين كانت احداهما « كاتمة سر » بيرون ..


لورد بيرون

والثانية خليلته ! ولو قرأنا الرسائل المتبادلة بين بيرون وليدى ميلبورن لوجدناهما يتحدثان فيها عن الاعيب الحب ، وحملاته ، ومناوراته ، بنفس اللهجة التى يتحـدث بها الفيكونت دى فالمون والمركيزة دى ميرتوى !.. اللهجة التى تعتبر كل مقاومة فى الحب صعوبة يستطيع ((الخبيـــر)) أن يذللها ، بطريقته الخاصة !

الفرق الوحيد بين بيرون وفالمون ان الثانى أفسـد سيسيل ، أما الاول فقد عفا عن ((ليدى فرانسيس وبستر)) فجنبها تلك الهـاوية ! .. وهنـا يحق لنا أن نتساءل : ما الذى يفسر شخصية فالمـون ؟ وهل طبيعى أن يكون انسان شريرا الى هذا الحـد ، قاسيا فى حبه على هذا النحو ، بينما الحب يرهف الحس عادة ، ويزيد من رقة القلب ؟.. تلك هى مشكلة ((الدون جوان)) الذى من هذا الطراز ، وهى مشكلة نجد لها فى حالة بيرون تفسيرا واضحا ومبررا معقولا : فان بيرون ، الذى خلق بطبعـه عاطفيا ، قد انقلب مخادعا لا يرحم فى اليوم الذى خانته فيه الفتاة التى أحبها وأخلص لها ! وهكذا يكمن وراء الحرب القاسية التى شنها عـلى النساء عنصر وعامل ((الانتقام)) ! وهو الباعث الاول فى تكوين شخصية ((الدون جوان)) .. يليه باعث ثان ، هو النجاح الذى يصادفه الشخص فى اكتساب قلوب النساء ، والذى لا يلبث أن يشجعه على غزو قلوبهن لمحض ارضاء غروره واعلاء مجـده فى هذا الميـدان ! .. ثم يلى هذين الباعثين باعث ثالث : هو الشعور بالملل الذى يغرى بفتح ميادين جديدة، والاشتباك فى ((معارك)) جديدة ! .. وفى هذه الاحوال تكون القسوة ، والانتصار على البراءة والسذاجة ، وتخطى العوائق الاخلاقية والدينية ، أشبه ((بالتوابل)) التى تفتح شهية الدون جوان على موائد الحب .. فنرى فالمون يستمد لذته من تعذيب المرأة التقية مدام تورفيل ، ويصف شعوره بقوله : ((نعم، يلذ لى أن أرى وأتأمل هذه المرأة المحاذرة تتورط دون أن تشعر فى طريق لا رجعة منه، تقودها منحدراته الخطرة بالرغم منها، وتضطرها

الى أن تتبعنى !٠٠ وحين تتبين الخطر الذى يكتنفها تتوقف برهة ، وتنظر حواليها ، فلا تجد سبيلا للرجوع أو التقهقر ٠٠ كل ما تستطيعه هو أن تتباطأ فى خطواتها ، ولكن لا بد من أن تتبع الخطوة الاخرى ! وأحيانا لا تجرؤ على مواجهة الخطر الذى أمامها ، فتغمض عينيها وتترك نفسها لرعايتى ٠٠ وكثيرا ما يمدها الخوف والرعب القاتل بالقوة على أن تبذل محاولة أخيرة ، فتلتفت الى الخلف ، وتركض مسافة قصيرة ٠٠ لكن قوة سحرية لا تلبث أن تجذبها الى نقطة أقرب الى الخطر من النقطة التى كانت فيها حين حاولت التمرد والفرار ! »

٠٠ وأخيرا يبلغ فجور فالمون و قحته حدهما الاقصى ، حين يحلو له وهو راقد فى فراشه مع عاهرة أن يتخذ من ظهرها « منضدة » يكتب عليها لمدام دى تورفيل التعسة : « لم أشعر قط من قبل بمتعة وأنا أكتب اليك مثل المتعة التى أحسها الآن ! ولا تملكنى يوما هذا الانفعال العذب الحاد الذى يتملكنى فى هذه اللحظة ٠٠ كل شىء حولى يزيد من نشوتى : الهواء الذى أتنفسه مفعم باللذة ، والمنضدة التى أكتب لك عليها - والتى تخصص لأول مرة لهذا الغرض ! - تبدو لى فى صورة مذبح الحب المقدس ٠٠ ما أجملها فى عينى ! ٠٠ أقسم لك أنى أحبك على الدوام ، ولتغفرى لى اضطراب مشاعرى ، فربما كان ينبغى ألا أسلم نفسى للذة لا تشاركينني اياها !٠٠ فلأتركك الآن كى أطفىء انفعالا يتزايد لحظة بعد أخرى ، بحيث يوشك أن يغدو أشد مما أحتمل ! »

لكن فالمون كان ليصبح أقل شرا وقسوة لو لم تكن بجانبه مدام دى ميرتوى ٠٠ فحين تستيقظ فيه بقية من عاطفة رقيقة ، تكتب هى اليه : « يبدو أنك قد وقعت فى هوى هذه المدام دى تورفيل ، ذلك النوع من الهوى الذى يجعل الرجل يرى فى المرأة صفات من السحر لا تملكها ! لكننى وأنا الخبيرة بك ، أعلم أنك غير قدير على الحب الطاهر أو الحب الرقيق ٠٠ غير قدير الا على ذلك الحب الذى يحسه السلطان نحو سلطانته المفضلة ، والذى لا يمنعه أحيانا من أن يخونها مع جارية ! »

وهكذا تقف له مدام دى ميرتوى بالمرصاد ٠٠ كتلة من الشر الخالص ، الذى لا أثر فيه لشعور ولا ظل فيه لشفقة ٠٠ فهى تبحث عن المتعة وحدها، لكن هذا أهون شرورها ، فانها الى جانب المتعة تسعى الى السيطرة ، والفوز ٠٠ وعند أية بادرة مقاومة تعمد فورا الى الانتقام !٠٠ بحيث يغلب على الظن انها عانت فى طفولتها وصباها نوعا شديدا من مركب النقص لا يجد تعويضا عنه

الا فى أفظع صور النقمة والشوق الى تدمير الرجال والنساء ، والسخرية من بعضهم ، وتلويث شرف بعضهم الآخر أو قتله ! .. وبغير هذا لا تستشعر رضى أو سعادة !

وفى الوقت الذى تستمتع فيه مدام ميرتوى بفجورها ، تتنكر أمام المجتمع فى ثوب المرأة الفاضلة !.. فيشيد أهل التقى بورعها ، بينما هى تستقبل العشاق فى بيتها !.. وهكذا تبلغ فى الرياء درجة النبوغ ، حتى لتباهى فى خطاب منها الى فالمون بقولها : « ماذا فعلت أنت ولم أفعل أنا أكثر منه ألف ضعف ؟ لقد أغريت وحطمت نساء كثيرات ، ولكن ما هى الصعاب التى حطمتها كى تبلغ غايتك ، بالنسبة الى ما حطمت أنا من صعاب ؟! »

ورغم ذلك فان هذه المتوحشة الحسناء تستطيع، حين تريد، أن تكون امرأة ترى عشيقها من فنون الهوى عجبا !.. اقرأ ما تصف به خلوة لها مع أحد عشاقها : **« كان أمامنا ست ساعات نقضيها سويا .. فاعتزمت أن أجعل منها كلها فترة ممتعة حقا ، بحيث اقتضانى الامر أن أتلون كل ساعة بلون جديد ، وأتقلب بلا هوادة بين الرقة والعبث ، والاقبال والاعراض ، والمزاح والجد ، والانفعال والفتور .. الخ .. ولا أذكر أننى بذلت يوما جهدا لارضاء رجل ونجحت فيه ، مثلما بذلت ونجحت فى هذه المرة !.. فاننا لم نكد نفرغ من العشاء حتى حلا لى أن أتصوره سلطانا وسط حريمه الكثيرات ، اللواتى تقمصت شخصياتهن ، الواحدة بعد الاخرى ، فكنت أتلقى مداعباته فى كل مرة بروح عشيقة تختلف عن سابقتها ! »**



✽

◆ **وبقدر** ما كانت شخصية مدام دى ميرتوى تمثل الشر، كانت شخصية مدام دى تورفيل تمثل الخير ، وكل ما يناقض طباع غريمتها ! كانت رقيقة، مخلصة، تعيسة، وقديرة على أن تموت حبا ، وتفنى نفسها فى سبيل من تحب .. وأخيرا كانت على النقيض منها فى طبقتها الاجتماعية ، فهى من طبقة العامة ، بينما تلك من طبقة النبلاء .. وهنا يكمن مغزى الكتاب كله ،

ومبلغ فضحه لفساد مجتمع الطبقة الراقية ، الذى كان من عوامل نشوب الثورة الفرنسية ! .. فان تلك الثورة لم توجه ضد الفساد السياسى وحده ، بل كانت موجهة ضمنا ضد الانحلال الخلقى الذى تفشى بين أفراد الطبقة الحاكمة ، والذى أثار فى البداية غضب الطبقة المحكومة ، ثم احتقارها ، ثم ثورتها فى النهاية !

تلك هى قصة « العلاقات الخطرة » وشخصياتها .. **فهل تعتبر القصة أخلاقية ، أم منافية للاخلاق ؟**

اقرأ ما يقوله « أندريه موروا » جوابا على ذلك : **« جرى عرف أصحاب النظرة السطحية على اعتبار هذه القصة ومثيلاتها « غير » أخلاقية .. بينما الحقيقة عكس ذلك ، فالكاتب الاخلاقى من واجبه أن يصف المجتمع غير الاخلاقى ، كى يأخذ الناس حذرهم من مزالقه الخطرة .. وهو يخيف قراءه ببشاعة ما يصوره ، لأنه صادق ، والصدق يخيف الانسان !** .. فالحب كما وصفه « لاكلو » ، وكما مارسه الناس فى القرن الثامن عشر ، جدير بأن يسمى بالحب المنطوى على حرب ، أو الحب المنطوى على متعة .. فهو ينبع من نفس العقلية المستهترة التى كانت تنبع منها آراء أهل ذلك العصر فى شئون السياسة .. وهى عقلية كانت تؤمن بديانة « القدرة على كل شىء » ، والتجديد فى مقاييس المجتمع والعواطف والاخلاق التى كونتها الحضارة على مر القرون ! »

وفيما يلى بعض المبادىء « الاخلاقية » التى استحدثها « المجددون » فى القرن الثامن عشر :

١ ـ المتعة خير خالص ، يجب أن يحاول الانسان ممارسته بكثرة و حدة ، ما واتته الفرصة !

٢ ـ اذا رفضت امرأة دعوة الى متعة ، فواجب الرجل أن يقنعها بالقبول .. ولكى يصل الى هدفه هذا يجب عليه أن يحطم حصون دفاعها ، وهى : التدين ، والخوف ، والقناعة فى أمور الجنس ، والاخلاص .. وهذا ما تأخذه مدام دى ميرتوى على عاتقها حين تخاطب سيسيل الساذجة بقولها : « اذن فأنت غاضبة وخجلى يا عزيزتى ؟ وأنت تعتقدين أن مسيو دى فالمون رجل شرير لأنه يجرؤ على معاملتك كما لو كنت حبيبته ، ويعلمك ما تتحرقين شوقا الى معرفته ، فى حين كنت تريدين أن تحتفظى بهذا الشرف لحبيبك ؟ .. لكن حبيبك هذا لا يستغل الموقف ، وأنت بمسلكه هذا لا تذوقين غير عذاب الحب ، دون متعه !.. الخ »

٣ ـ ان قواعد الاخلاق لا تنطبق على مخلوقات معينة تسمو فوق هذه « السخافات » !٠٠ وفى هذا تقول مدام دى ميرتوى : « لست من أولئك النسوة المخرفات اللواتى يبدو كأن الطبيعة قد وضعت حواسهن فى رؤوسهن ! ٠٠ وانما أنا قد وضعت لنفسى مبادىء خاصة هى ثمرة تأملاتى العميقة ، وليست ثمرة الصدفة ٠٠ أو حكم العادة ! »

و « المخلوقات » التى تسمو فوق « سخافات » الاخلاق هى تلك التى تتظاهر بعواطف زائفة لا تحسها ، كى تنعم بالمتع التى هى فى نظرها الحقائق الوحيدة فى الحياة ٠٠ وتدرس فى برود مواطن الضعف عند الآخرين ، كى تستخدمها للسيطرة عليهم ! ـ مثلما فعلت مدام دى ميرتوى ومسيو دى فالمون ـ **فهل يحقق هذا المسلك لاصحابه السعادة ؟**

ان قصة «العلاقات الخطرة» ترينا بوضوح أن المسلك المذكور يعجز عن أن يحقق السعادة لأحد من الذين اتبعوه !٠٠ فان مدام دى ميرتوى نفسها تنتهى الى الاعتراف بأن المتع الجسمانية تجلب الملل والسأم اذا لم تنعشها العاطفة الحقيقية ٠٠ وان المتعة ـ التى هى الدافع الأوحد الى اجتماع الجنسين ـ لا تكفى لتكوين رابطة بينهما ، فلئن كانت تسبقها الرغبة ـ التى تقرب بينهما ـ فانه يعقبها الاشمئزاز ـ الذى يبعد أحدهما عن الآخر ٠٠ هذا هو قانون الطبيعة ، الذى لا يقوى على تغييره سوى الحب وحده !

واذا قارنا بين مغزى كل من قصة « العلاقات الخطرة » وقصة « جوليا » التى كتبها روسو ، خرجنا من المقارنة بأن الحب الحرام ـ كما صورته القصة الاولى ـ يولد مللا ووحشة كئيبة ٠٠ بينما الحب الرومانتيكى العفيف ـ كما صورته القصة الثانية ـ يغالى فى تجاهل حقائق اللحم والدم !

فهل من الممكن الجمع بين هذين اللونين من الحب ؟

هل من الممكن أن تجمع شخصية بين عفة « سان بريو » بطل قصة جوليا ، وعنف « فالمون » بطل قصة لاكلو ؟

هــذا ما نجده فى قصص « ستندال » ٠٠ أو فى الوجه الرابع من وجوه الحب ٠٠٠ وموعدنا به العدد القادم ٠

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قرات معى فى الاعداد السابقة ، القصص الآتية على التوالى :

فضيحة «كارولين» ملكة انجلترا
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
امراة وملك (مدام دى مانتنون)
« تيبريوس » قيصر روما
الحب اقوى من الموت !
لوكريشيا بورجيا
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا
ملكة الغواية: بولين بونابرت
مأساة ملك بافاريا
الحب والجريمة تحت سماء فلورنسا
غرام الاميرة اليزابيث تيودور
ديزيريه : خطيبة نابليون
أوليمبيا : والدة الاسكندر
بيرينيس : ملكة فلسطين

واليوم اقدم لك فيما يلى قصة ((تيودورا)) ، راقصة القسطنطينية القديمة .. التى ارتقت عرش الامبراطورية البيزنطية العظيمة !

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى باذن الله المزيد من قصص التاريخ الشائقة ومآسيه الكبرى ..



ثيودورا

الراقصة التي صارت امبراطورة!

من السيرك .. الى العرش !

جوستنيان .. وتيودورا !

اسمان ضخمان من الاسماء التى احتلت مكانة مرموقة فى التاريخ : فالأول هو الامبراطور والمشرع الرومانى الذى يقرن اسمه بالتشريع الأشهر الذى كان الأساس الأول لمختلف قوانين الدول المتحضرة فى العالم ! .. اما صاحبة الاسم الثانى فهى زوجته الامبراطورة « تيودورا » ، التى قاسمته عرشه ، ومجده .. وألهمته سياسته وتشريعاته !

ولكن ، ترى أى خفايا ومآس كمنت وراء اسم تلك المرأة الرهيبة ، التى حكمت الامبراطورية الرومانية الشرقية ابان قمة مجدها البيزنطى .. أو بمعنى آخر حكمت «العالم» فى تلك الحقبة التى كانت فيها الامبراطورية المذكورة هى .. كل شىء ؟!

وأية قدرة اختفت وراء ارتقاء هذه المرأة العجيبة من خادمة «سيرك» ، فراقصة ، ثم «عاهرة» تمنح جسدها لكل من يدفع الثمن .. الى صاحبة صولجان تمسك بأعنة عرش القسطنطينية الزاهر فى أوج سنائه ؟

اليك قصة ذلك التاريخ الحافل .. الذى هو أروع واعجب من أخصب خيال !

امرأة .. ذات مواهب !

◆ .. **بدأت** حياتها بداية مشؤومة ، فان أباها ـ الذى كان مروضا للوحوش فى سيرك « القسطنطينية » ـ لم يلبث أن قتله دب مفترس ، فاضطرت زوجته الى تكليف بناتها الثلاث الصغيرات بالقيام بأعمال يدوية وضيعة فى السيرك ، نظير ما يقوم بأود الاسرة .. وحين كبرن وتجلى حسنهن ، قادتهن الى مصير أجدى نفعا ، وان لم يقل عن سابقه هوانا .. هو مواخير الدعارة !

كانت « تيودورا » لم تجاوز العاشرة حين دخلت ميدان هذه الحرفة الشائنة ـ سنة ٥١٨ ميلادية ـ لا كفاعلة أصلية فيها ، بل كشريكة مساعدة، تتبع أختها الكبرى « كوميتو » من بيت الى بيت ، حاملة كرسيها الصغير فوق راسها .. وهناك تنتظر حتى تتاهب أختها للانصراف الى البيت التالى، فتتبعها من جديد !

وحين بلغت الثانية عشرة ، اعتبرت « تيودورا » كفؤا - من حيث السن والحسن الجذاب - للقيام بكامل « واجبات » حرفة أختها !.. وعن هذا الطريق تعرفت الى بعض المشرفين على مسارح المدينة ، فارتقت على يدهم خشبة المسرح .. ولكن ذلك لم يعن ارتقاءها من حيث المكانة الاجتماعية ، ففى ذلك العصر كانت الممثلات والغانيات وجياد السباق ، فى مرتبة اجتماعية واحدة .. باعتبارها جميعا مجرد « أدوات » - دون مستوى البشر - لتسلية الجماهير !

لكن تيودورا لم تلبث أن اشتهرت بأنها تملك « مواهب » غير عادية ! كانت لها طريقة فذة فى نفخ وجنتيها ، وتقطيب وجهها ، والتلوى ألما تحت وطأة « ضربات وهمية » ، بحيث كان النظارة جميعا يضجون بالضحك ، ويجدون فى رقصاتها تفريجا عن متاعب يومهم وأعمالهم .. كما وجد فيها الشبان الارستقراطيون لونا « شهيا » يضاف الى ألوان الطعام التى تحفل بها مآدبهم الخاصة !.. ويقول المؤرخ « بروكوبياس » انها - فى مأدبة عشاء من تلك المآدب - سامرت ، على انفراد ، عشرة ضيوف وثلاثين عبدا !.. « وحين أشرق الفجر كانت أقل الجميع تعبا وارهاقا ! »

وهكذا أضحت قبلة جميع شباب القسطنطينية ، وموضع بغض وكراهية جميع نسائها !.. واستغلت فتنتها ودهاءها فى اجتذاب كل من تضعه الاقدار فى طريقها .. بل بلغ من بخلها وحبها للمال أنها صارت تبيع حسنها لكل من يدفع الثمن ، للنبلاء والعامة على السواء ! لم يكن يعنيها فى شىء لون « دم » الرجل ، بقدر ما كان يعنيها لون « عملته » النقدية !.. كانت مجردة من الكرامة بقدر ما كانت مفعمة بالفتنة !.. امرأة خلقت كى تقبل وتعانق ، لا كى تؤتمن ! وكم من مرة باعت ليلة من لياليها لمزايد دفع ثمنا غاليا .. حتى اذا ما جاءها من يدفع ثمنا أكبر ، طردت الاول من بيتها ورحبت بالثانى !

وحذرتها أمها من مغبة تصرفاتها هذه ، قائلة : « سوف تصيبك يوما ما مصيبة كبرى ! » .. فأومأت شقيقتها الكبرى « كوميتو » برأسها ، وأضافت : « أو تنال صفقة هائلة ! » .. فابتسمت تيودورا وأجابت : « أنا على استعداد لاخذ الاثنتين ! »

.. لكنها كانت تجهل أنها وهى تنطق بهذه العبارة انما كانت تنطق بنبوءة : فان مستقبلها التالى كان كله سلسلة متتابعة الحلقات من البركات .. والضربات !!

خليلة حاكم « بنغازى » !

◆ **وجاءتها** البركة الاولى الكبرى فى صورة نبيـــل « تيرانى » يدعى « هيكيبولس » كان قد عين لتوه حاكما لاقليم « بنغازى » فى شـــمال افريقيا ، فأقام – احتفالا بمنصبه الجديد – حفلة ساهرة راقصة دعا اليها عددا من أصدقائه ، « واستأجر » تيودورا كى تحيى لهم الحفلة .. فأبدعت الراقصة فى فنها الى حد أطرب هيكيبولس ، فهتف بها فى نوبة ثملة طالبا منها أن تصحبه الى مقر منصبه فى افريقيا !

فسألته : « بصفة زوجة لك ؟ »

– آسف ، هذا مستحيل .. فان القانون يمنع صراحة زواج النبيل من ممثلة كما تعلمين ..

– حسنا .. سوف أصحبك كخليلة لك !

وكانت خطوة « لا بأس بها » بالنسبة لابنة مروض الوحوش ، أن تنتقل من السيرك الى بيت الحاكم !.. على أن ذلك لم يكن ما أرادته تيـــودورا بالضبط ، فان افريقيا كانت فى ذلك العصر قارة موحشة مليئة «بالبرابرة»، فعاودها الحنين الى حياة الليل البراقة فى القسطنطينية .. وهكذا سئمت العيش مع هيكيبولس – وان لم يسأم هو عشرتها ، وكان قد وضعها فى جناح الحريم بقصره ، حيث لا أنيس لها فى وحدتها الموحشة غير الجارية التى تقوم على خدمتها وحراستها ! – ومن ثم أغرتها نزوتها بأن ترشو جاريتها كى تيسر لها ادخال أحد الشبان الى مخدعها بين الحين والآخر ، عندما يكون الحاكم مشغولا بتصريف شئون الولاية !

وكان تهورها هذا سببا فى الضربة الاولى التى أصابتها فى الصميم : فقد توجه هيكيبولس ذات ليلة الى جناحها على غير انتظار ، فاكتشـــف خيانتها .. وطردها من فوره شر طردة الى الصحراء !

وبدأ عذابها الاكبر .. قضت أياما تعسة تقطع الصحراء الشاسعة التى تبدو بلا نهاية ، فى قيظ الصيف وهجيره ، مارة بقرية بعد قرية ، أشبه ببائعة حب جائلة بين الدروب التى ناء عليها الفقر بكلكله ، لا تجد غير لقمة الخبز التى تحفظ جلدها على عظمها ، وأسمالها البالية على جسدها المنهوك! .. فى قدميها النحيلتين « صندل » بلى من طول المسير ، وفوق رأسهـــا عاصفة رملية عاتية .. وبين جنبيها عاصفة من اليأس أقوى وأمر !

وشيئا فشيئا شقت طريقها الى الاسكندرية .. ولكى تحصل على « جواز المرور » عبر أبواب المدينة ، حيث الحارس بابتسامة داعرة ، فأدرك حرفتها .. وسمح لها بالدخول ! .. وفى المدينة التى يقطنها نصف مليون رجل

ـ ومائة ألف غانية ! ـ كان لا بد أن تجد تيودورا وسيلة للعيش ، ان لم تلق رفاهية وميسرة ..

ولكن ، لم يمض عليها زمن وجيز فى « باريس العالم القديم » حتى قبض عليها ـ فى احدى مشاجرات الطريق ـ فوصم ظهرها بقضيب من الحديد المحمى .. وقدر لها أن تحمل « طابع الحسن » هذا حتى نهاية حياتها !

وتتابعت نوبات تسكعها فى الطرقات ، بحثا عن الرزق ، حتى قيضت الاقدار لها رجلا ثريا خلصها من تسكعها ، وكان تاجرا من مدينة (أنطاكية) ، فلما انتهت مهمته فى الاسكندرية هجرها وهجر فيها خليلته ، دون ما اخطار أو كلمة وداع ، رغم أنها كانت فى طريقها الى أن تصير .. أما !

كل ذلك وتيودورا ما زالت فى الثامنة عشرة ، وكانت قد جرعت مرارة الحياة حتى الثمالة ، فلم يبق لها من يأسها غير أحد مخرجين : الانتحار .. أو الدير !

واختارت الثانى !

تقتحم حياة « ولى العهد » !

◆ **وأخلدت** الى الاستقرار تحت سقف الدير زمنا .. حتى ولد ابنها الموعود ، فعاودها الحنين الى الارتحال .. وأبحرت الى أنطاكية بحثا عن والد الطفل ، فاذا هى تكتشف أنه قد مات !.. وازاء ذلك لم تجد بدا من أن تترك الطفل على عتبة دار جدته ، وتكر عائدة .. الى القسطنطينية هذه المرة : « لعلى بعودتى الى وطنى أستعيد حظى السعيد ! »

وفى عاصمة الوطن التقت تيودورا بصديقة لها من الممثلات القديمات تدعى « ماسيدونيا » ، فأعطتها هذه خطاب تقديم وتوصية الى ولى عهد الامبراطورية « جوستنيان » ، قائلة لها : « **لقد عرفته حين كان دمه حارا فتيا .. فلعلك ـ مع توصيتى ـ تستطيعين اغراءه بأن يأمر باعادتك الى السيرك .. هذا اذا استطعت التوصل الى مقابلته !** »

فأجابتها تيودورا : « لا بأس فى أن أحاول .. »

وحاولت .. ونجحت !

فذات ليلة ، جلس جوستنيان يعكف على أوراق الدولة ويصرف شئونها ، وهو يجرع حساء اللحم المفضل لديه .. حين سمع حفيفا خفيفا خلف الستارة القائمة على نافذة الحجرة .. وفى اللحظة التالية كانت تيودورا تدلف الى وسط الحجرة ، فقطب ولى العهد حاجبيه وقال لها فى غير مبالاة : « عندى الليلة ما يشغلنى ، ولست أريد أن يزعجنى أحد ! »

وكاد يدق الجرس مستدعيا أحد الحراس ، حين استوقفه شىء ما فى

معارف وجهها : نظرة مألوفة !.. لقد رآها فى مكان ما .. آه نعم ، فى السيرك ، منذ سنوات ... وكيف يتجاهل رجل تلك الابتسامة التى نصفها سخرية ، ونصفها رثاء !

وسألها جوستنيان :

- ولكن كيف استطعت تخطى نطاق الحرس ؟

- تسللت من الخلف يا مولاى ، وتسلقت أعراش الكروم ، فكدت أسقط ويدق عنقى .. ثم ، هأنذا !

وكان ذيل ثوبها مشقوقا ، فكشف عن ساق مستديرة رائعة .. كما راقت لولى العهد جرأة الفتاة ، فسألها : **« وماذا تبغين منى ؟ »**

فأجابت ببساطة وهى تمد اليه يدها بخطاب الممثلة ماســـيدونيا : « صداقتك ! »

وقرأ الخطاب .. ثم مر بأنامله فى خصلات شعره الغزيرة ، متسائلا :

- اذن فأنت تريدين العودة الى السيرك ؟

- إذا لم يكن من ذلك بد يا مولاى .. لكنى أفضل عدم الذهاب !

ونظرت اليه نظرة تستثير الجماد ، فالتقت عيونهما فى ابتسامة تفاهم !

- اذن فلن تعودى يا صغيرتى الى السيرك !

ترفس النبلاء بقدمها !

◆ **كان** جوستنيان ، وارث عرش الامبراطورية الرومانيـــة الشرقية ، فلاحا بلغاريا بحكم مولده ، فلما تولى عمه « جوستن » عرش الامبراطورية فى سن الثامنة والستين ، بعد معارك طاحنة ، تبنى جوستنيان كابنه ووريثه فى العرش ... وكان جوستنيان ذا عقل راجح ، وجسم كأجسام الفلاحين .. ورغم ميله الى العزلة فانه كان يحرص على احاطة نفسه بمظاهر العظمة والرواء فى المناسبات القليلة التى يظهر فيها للجماهير ! وبالاختصار ، كان أشبه بوحش متمدن .. وقد وجد فى تيودورا الحلية التى تزين تاج ملكه - حين يتولى العرش فى المستقبل - وتكمل سناء قصره البيزنطى ..

لكنها كانت حلية يأنف منها سواد الشعب فى القسطنطينية .. فلئن جاز أن يصير الفلاح امبراطورا ، فانه لا يجوز بحال أن تصير الغانيـــة امبراطورة !.. ومن ثم خرجت جماهير المتظاهرين تصيح غاضبة : «تسقط الزانية ! ان اسمها ليس (تيودورا) - أى عطية الله - بل (ديمونودورا) .. عطية الشيطان ! »

على أنه كانت هناك عقبة أشد صعوبة من غضب الجماهير ، هى غضب الامبراطورة « لوبيسينا » زوجة العم - الامبراطور جوستن - التى كانت

ذات خلق صارم ومبادىء متزمتة ، فأبت أن تكون خليفتها على العرش غانية منبوذة !

وهكذا اضطر جوستنيان الى أن يصبر حتى تموت الامبراطورة ـ وكانت متقدمة فى السن ـ فلما تم له ذلك ، أقنع عمه بأن يلغى القانون الذى يفرق بين الطبقات ويحول دون زواج النبلاء من فتيات المسارح ودور اللهو ..
ومن ثم أصدر الامبراطور فقرة جديدة فى القانون هذا نصها : « ان باب التكفير والتوبة مفتوح أمام الاناث التعسات اللواتى قضى عليهن سوء الطالع أن يمتهن أنفسهن فى المسرح .. ومن ثم فهن فى حل من عقد الزيجات القانونية مع أرفع مواطنى الامبراطورية ! »

وهكذا تزوج جوستنيان من تيودورا ، فوضع حدا لازدراء الشعب لها وتحقيره اياها !.. وحين تولى الزوجان الملك عرفت تيودورا فى البداية بأنها « زوجة الامبراطور » .. ولكن لم يمض زمن طويل حتى عرف هو بأنه « زوج الامبراطورة » !.. فان شخصية تيودورا القوية حجبت شخصية جوستنيان .. ولم تشهد امبراطورية بيزنطة امرأة ، حتى من ذوات الدم الازرق ، وضعت التاج على رأسها بخيلاء وغطرسة أكثر من ابنة مروض الوحوش ! كان النبلاء يجلسون فى قاعة الاستقبال ساعات ، فى انتظار ان يمثلوا بين يديها ويقبلوا قدميها .. فاذا ما ادخلوا عليها فى النهاية وانحنوا على قدمها الجليلة ، رفستهم بها فى وجوههم فى احتقاروطردتهم من حضرتها!



وعينت تيودورا فى بلاطها فرقة من الجواسيس ، مهمتهم أن ينقلوا اليها كل ما تلتقطه آذانهم من أحاديث الناس عنها ! .. فكانت الكلمة الطائشة التى تصدر فى حقها حتى من اكبر شيخ فى الدولة ، تكلفه راسة .. او فى القليل لسانه ! .. فاذا ابدى الجلاد ادنى تريث فى تأدية واجبه ، احتراما لشخصية الضحية التعسة ، هددته تيودورا بسلخ جلده حيا !

المنتقمة الجبارة !

◆ **وكانت** طماعة شرهة ، بقدر ما هى شريرة .. تصادر أموال الاغنيـاء من رعاياها لصالحها ، ثم تشفق عليهم من عذاب الفاقة فتسلبهم أرواحهم أيضا !.. وكانت موهبتها التمثيلية الاصيلة تمكنها من أن تسبغ على موت ضحاياها طابعا تمثيليا مؤثرا ! من ذلك انه نمى الى علم الامبراطور ذات يوم أن والى احدى المناطق المتاخمة للامبراطورية - ويدعى فيتاليان - يدبر اعتداء على بلاده . فدعاه جوستنيان - بناء على نصيحة تيودورا - كى يزوره مع حاشيته فى عاصمة ملكه (القسطنطينية) ، بحجة المفاوضة فى شأن عقد محالفة بين بلديهما .. ولو ارتاب الوالى فى الامر أدنى ارتياب لأمر بقطـع أذن الرسول الذى حمل اليه الدعوة وأعاده الى مولاه مثلوم الكرامة !.. لكنه لم يرتب فى الامر - أو لعله خشى مغبة المجاهرة بالعداء قبل الاوان ! - فقبل الدعوة ، ووصل الى القسطنطينية ترافقه حاشية من أخلص أتباعه ..

وغالى جوسـتنيان وتيودورا فى اكرام وفادة الوالى ورجال حاشيته ، فأقاما لهم حفلات مصارعة الوحوش وسباق المركبات والرقص الشرقى ، ثم احتفلا تكريما لهم بالقاء مائة سجين فى ساحة الملعب الكبير ، طعاما سائغا لعشرين أسدا وثلاثين فهدا مفترسا !

وفى الليلة الاخيرة ، أقاما لهم حفلة وداع ساهرة من أروع الحفلات التى شهدتها الامبراطورية ، صفت فيها ثلاثمائة مائدة بالعاج والاحجار الكريمة وسط القاعة المشهورة باسم « قاعة المضاجع التسعة عشر » ذات السقف الذهبى والاغطية المحلاة بخيوط الذهب !.. وبعد أن نعم الضيوف بأفخـر الوان الطعام والشراب والخمور ، وشنفوا حواسهم بأبدع آيات العازفات على الناى ، ومتعوا أبصارهم بأروع « نمر » الراقصات الفاتنات .. اسـتأذن منهم صاحبا الجلالة الامبراطورية فى الانصراف ، تاركين لهم حرية اللهـو والمتعة حتى الصباح ..

وحين أرسل الفجر خيوط أشعته الاولى على المكان ، وقعت على منظر من أبشع ما شهدت العيون : كانت تحت كل فراش فى القاعة بركة من النبيذ ، امتزجت ببركة أخرى .. من الدم ! فقد أصدرت تيـودورا أمرها الى كل راقصة بأن تذبح ضيفها ، حين تفقده الخمر وعيه أو قدرته على المقاومة !

وزيرة .. ومشرعة !

◆ **ولم** تنس تيودورا أصلها ، وزميلاتها القدامى من بنات الهوى - وكانت تعرف بحكم « الخبرة » آلامهن ومآسيهن - فأقامت لهن ملجأ على شـاطىء البحر ضم شمل خمسمائة منهن .. لكن بعضهن أبى الانصياع لحكم الفضيلة

« الاجبارية » والتوبة المفروضة ، فالقين بانفسهن فى لجة البحر طائعات !

وكانت تيودورا ذات نشاط خارق ، دفعها الى أن تمد رواق اهتمامها الى شتى شئون الدولة ، فصارت تقوم بزيارات تفتيشية لمصانع نسج الحرير ، والمصابغ ، وأحواض بناء السفن ، وتجرى التعديلات فى ادارتها .. بل **واعانت زوجها فى اعداد تشريعه الخالد المشهور باسم «تشريع جوستنيان» ! - الذى يعبر أساس أكثر القوانين الحديثة - كما سنت الكثير من القوانين التى تحد من حرية الرجل وحقوقه ، كى تضيف مزيدا من حقوق المرأة وحريتها ، (حتى لتعد فى هذا المجال أول زعيمة للنهضة النسائية فى التاريخ !)**

.. ثم خلعت أحد بابوات الدين ونصبت آخر مكانه .. وأصرت على أن تحضر وزوجها المحاكمات ، وتنظر فى العرائض والالتماسات التى يقدمها أفراد الشعب ، حتى صارت سيطرتها على الامبراطور وتدخلها فى شئون الحكم مثلا يتندر به الناس سرا فى أغانيهم !.. ولكن حتى أعداءها أنفسهم لم يملكوا الا أن يعترفوا بأن جوستنيان قد وقع تحت سيطرة امرأة نادرة الذكاء ، استطاعت برغم ضعة منبتها أن تضطلع بمهام منصبها ببراعة فائقة ، وتؤدى دور الملكة القديرة والبطلة اللامعة فى « دراما » رائعة من درامات عصر بربرى !

غصة فى حلق الامبراطورة !

◆ **لكن** الملكة الجبارة لم تسلم من غصة تسكب المرارة فى حياتها وتنغص عيشها ، فقد عجز جوستنيان عن أن يمنحها نسلا ، ووليا للعهد يرث عن أبويه مجد الامبراطورية .. ورغم أن ابنها غير الشرعى من عشيقها القديم «هيكيبولس» كان قد صار شابا مكتمل النضج ، فانها لم تشأ أن تعترف بنسل يمثل حقبة من حياتها كانت حريصة كل الحرص على ان تتناساها ! **وحين أغرى التهور الابن بأن يقدم على زيارة أمه - التى صارت امبراطورة - فى مناسبة ما .. كان ذلك آخر عهد الناس برؤيته أو سماع أى نبأ عنه ، فان تيودورا كانت تعرف كيف « تتخلص » من الضيوف غير المرغوبين ، حتى لو كانوا من صميم لحمها ودمها !**

واستأنفت تيودورا حياة المجد الذى تنقصه السعادة .. حياة المرأة التى يحتقرها الشعب من أجل قسوتها ، وان كان يعجب بعبقريتها السياسية وذكائها الفذ !.. لكن اعجابه أخذ يتناقص بالتدريج ، نتيجة لتصرفاتها الطائشة الحمقاء : فقد ضاعفت الضرائب ، وشنت الحروب ، فزاد الغلاء ، وانتشرت البطالة والمرض والانحلال ، فالموت .. وخفضت نصيب الفرد من

الحنطة الى الثلث ، فبدأت الجماهير الجائعة تتجمع حول القصر الامبراطورى هامسة متذمرة ، ثم ارتفعت الهمسات الى صيحات ، فأفاق الحراس ذات صباح ليجدوا تمثالى جوستنيان وتيودورا فى الحديقة ملطخين بالوحل !.. ثم انتقل العدوان من التمثالين الى من يمثلانهما ، واتخذ التذمر صورته الجدية يوم الاحد الحادى عشر من شهر يناير سنة ٥٤٠ ميلادية : كان النظارة فى ميدان السباق ينشدون النشيد الوطنى أمام مقصورة جوستنيان ، وكانت تيودورا غائبة - لحسن حظها - حين انقلب النشيد فجأة الى لهجة عدائية ، فهتفت آلاف الحناجر فى صوت واحد : « يسقط الامبراطور المسرف ، والامبراطورة السفاحة .. فلتذهب العاهرة .. فلتعد من حيث أتت ! »

بحر من الدم !

◆ **وانسحب جوستنيان فورا من الملعب ، وقد صار وجهه فى بياض الشمع .. ولم يكد يبلغ قصره حتى أصدر أمره باعدام زعماء الفتنة ! لكنها كانت غلطة جسيمة ، فان السبعة الذين أعدمهم ، خلفهم فى الحال سبعمائة !.. واستشرى التمرد فى المدينة ، فأغلقت الحوانيت ، واندفع جمع ثائر مسلح بالمدى والاحجار والفؤوس نحو قصر تيودورا يهتف غاضبا : « احرقوا الماخور المذهب !.. الموت للطغاة !.. النصر ! » .. وعصف المتظاهرون بمخازن القصر ، وسكبوا براميل النبيذ ، وخاضوا بحرا فى لون الدم القانى صارخين : « أين القاتلة .. قودونا اليها ! »**

كانت تيودورا راقدة فى مخدعها تعانى آلام سرطان انقضت عليه شهور وظهر أن لا شفاء لها منه .. وكانت قد سقطت فريسة غيبوبة مريحة ، أشبه بحلم جميل ، لا ألم فيه .. ولا تمرد .. ولا معارضة لأوامرها الامبراطورية . لا شىء سوى جيش من الجنود يصيحون صيحات النصر ، كما خيل اليها فى غيبوبتها !

وأيقظها الضجيج من سباتها .. انهم يدقون باب الجناح الامبراطورى .. اذن فهذه هى نهاية انتصارها ؟ كلا .. ورفعت جذعها فوق مرفقها ما استطاعت ، ودقت الجرس لوصيفتها : « ألبسينى ثوبى الرسمى القرمزى ، وعليه العباءة الذهبية »

وألبستها ، وأوقفتها على قدميها ، فعضت شفتها من فرط الألم الذى يمزق لحمها .. وهتفت : « **أزيحى الستائر جانبا ..** »

- لكن ذلك يعنى الموت المؤكد يا مولاتى ..!؟

- **قلت أزيحى الستائر جانبا ..**



ـ حسنا يا مولاتى ..

كانت السماء لهبا قرمزيا .. لقد اشعلت الجماهير النار فى المدينة ، فاندفعت السنة اللهب كوحش هائج جائع تلعق المبانى بشراهة ونهم .. واستدارت تيودورا نحو وصيفتها : « افتحى النافذة .. »

لم تكد النافذة تفتح حتى انطلق خلالها الى داخل الحجرة حجر كاد يصدم رأس تيودورا !.. لكنها لم تعبأ به ، بل تقدمت مستندة على ذراع وصيفتها نحو الشرفة المطلة على الشعب المائج ..

وبغير وعى تراجع زعماء المظاهرة الى الخلف مشدوهين .. لقد اذهلتهم جرأتها :

ـ انها قوية الاعصاب فيما يبدو ..

ـ نعم ، ولكن يقال انها مريضة .. انظر الى وجهها الابيض الشاحب ..

ـ يا للمسكينة .. لقد كانت واحدة من أفراد الشعب مثلنا ..

ـ وما زالت واحدة منا ، ولو كانت ملكة ..

ورفعت تيودورا يدها تسكت الجماهير : « **قولوا لى ماذا تريدون ! »**

ـ الخبز .. ولا شىء غيره !

ـ سوف تنالونه .. وتنالون الى جانبه حفلة خاصة فى السيرك ، أروع حفلة شهدتها القسطنطينية ..!

وتناقلت الألسنة وعدها الصريح ، فلم تلبث أن ارتفعت صيحة الجماهير : « تحيا الملكة تيودورا ! »

المذبحة الرهيبة !

◆ **الثامن** عشر من يناير ، والنيران المشتعلة فى المدينة لم تخمد بعد ، والجماهير تتقاطر نحو ميدان الملعب الكبير .. مائة الف متفرج جاءوا ليشهدوا الحفلة المجانية !.. ووصل الملكان ، وصعدا الى مقصورتهما .. كان الامبراطور يرتدى سترة سوداء ، والامبراطورة ترتدى ثوبا من الساتان

الابيض .. ووقف النظارة يهتفون : « الله يحفظ جوستنيان .. الله يحفظ تيودورا »

وبدأت الحفلة ، فتوالت الاستعراضات ، والرقص ، والسباق ، والمهرجانات التى سوف تستمر من الصباح الباكر الى ما بعد الظهر .. ووزع على الحاضرين جميعا غداء فاخر مزود بالتوابل والخمر والمشهيات ، على نفقة تيودورا الخاصة !.. وقبل أن ينتهى الحفل غادر الملكان المكان . انهما يحرصان دائما على الانصراف فى الوقت المناسب ، قبل أن يبلغ السيل الزبى !

وانتهى السباق الأخير .. **ثم حدثت المفاجأة : شىء لم يكن فى البرنامج المرسوم ! ان « بليساريوس » قائد جيوش الامبراطور يتقدم نحو ساحة الملعب مع فرقة من الجنود الالمان المسلحين ، فتحييهم الجماهير بالهتافات المدوية . انها ولا ريب مناورات معركة وهمية قد أعدت لتسليتهم وامتاعهم .. لا شك انها فكرة تيودورا .. برافو تيودورا !**

لكنها لم تكن مناورة ، بل حقيقة !.. ويصيح القائد فى جنوده :

ـ « استعدوا .. صوبوا .. أطلقوا ! »

ويتطاير الى قلب الجماهير طوفان من الأسهم المسددة .. انها فكرة تيودورا !.. وتعلو صيحات الفزع الرهيب : « لقد وقعنا فى الشرك ! » ، ويتدافع الالوف نحو أبواب الخروج .. لكنهم يواجهون هناك بفرقة أخرى من الجنود المسلحين ، من البرابرة الفلاحين الذين يتوقون الى أن يخوضوا حقولا من الدم ، فيهتفون بالقائد : « نحن على استعداد يا جنرال بليساريوس »

لم يبق مهرب للجماهير « المحصورة ! » .. ويختلط صليل السيوف بأزيز السهام ، وطعن الرماح ، وحشرجة المحتضرين .. انه موكب الموت !.. واستمرت المذبحة حتى الغروب ، فانعكس قرص الشمس القانى على بركة ضخمة حمراء من الدم .. ان ثلاثين ألف رجل رقدوا مذبوحين فى ساحة الملعب !

وحين وقفت تيودورا على نتيجة المؤامرة ، وهى تعض شفتيها من ألم المرض ، اغتصبت ابتسامة مرة فرحا بالنصر : لقد فتكت بالثوار المتمردين !

موعد .. مع العاشق الأخير !

◆ **لكن** ثائرا واحدا لم يستطع بليساريوس ولا جنوده الالمان ان يحموا تيودورا من غائلته : قدرها !.. وكمحاولة أخيرة من الامبراطورة للفرار من خصمها اللدود ، هرعت الى ينابيع « بروزا » المعدنية الساخنة .. وذهب

معها حرس من أربعة آلاف رجل ، ليحموها خلال الطريق ..
وجربت المياه المعدنية .. والصلوات .. وأعمال البر .. ولكن بلا جدوى .. فقد ظل الوخز المروع يفتت جنبها ، كلاعب سيف يعبث بضحيته قبل أن يصيبها بسهمه الاخير القاتل !.. ولم تبق لتيودورا غير أمنية واحدة : أن تموت قبل أن يشوه المرض الطويل شكلها !

وكان لها ما تمنت .. فحين رقدت تلفظ أنفاسـها الاخيرة ، لم تكن تجاعيد السن قد ارتسمت على وجهها او غضنته !.. وتركت وصية مختصرة : « اغسلوا جسدى بحمام من زيت الورد ، وعطروه بأفوح العطور ! »
.. كأنما أرادت أن تمضى الى موعدها مع حبيبها الاخير - الموت - بجسد معطر .. شهى !

خدعة جازت على فرعون !

◆ كلف أحد فراعنة مصر القدماء مهندسـا مصريا يـدعى « سنيدوس» بتشييد « فنار » شاهق عند مصب النيل ، فوق صخرة كبيرة .. فأتم المهندس المهمة على خير وجه ، بعد أن حرص على أن ينقش اسم الملك على طبقة الطلاء الخارجى للفنار .. فلما انقضت سنوات ، كانت عوامل الطبيعة والمطر والرياح قد أزالت طبقة الطلاء التى نقش عليها اسم فرعون ، وعندئذ ظهر فى مكانه اسم المهندس الماكر نفسه ، وكان قد نقشه على الحجر الجرانيتى الذى يلى طبقة الطلاء !

الادباء .. وبرج ايفل !

◆ بالرغم من الشهرة العالمية التى لبرج ايفل الباريسى المشهور، فانه كان عند تشييده محل انتقاد الكثيرين وتهكمهم ... ومن ذلك ان الاديب الكبير « بلزاك » كان يشيح بوجهه عنه فى اشمئزاز ، قائلا انه لا يستطيع احتمال «ضخامته المبتذلة» ! .. وكان ممن يؤيدون بلزاك فى هذا الرأى الشاعر الانجليزى « وليم موريس » ، فقد لاحظ أحد أصدقائه انه يكثر من الجلوس فى المطاعم التى أعدت فى مختلف طوابق البرج ، سواء ليتناول الطعام ، أو ليكتب أشعاره .. فقال له الصديق : « يبدو انك معجب بهذا البرج ! ».. فأجابه الشاعر من فوره : «معجب ؟ اننى أجلس هنا لانه المكان الوحيد فى باريس الذى أستطيع فيه أن اتجنب رؤية البرج ! »

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و « كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قرأت معى فى هذا الباب فصول كتاب «غزو السعادة» لبرتراند رسل .. فكتاب فرويد المشهور «التحليل النفسى» ، يليه «كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة» ، ثم «الجنس الاخر» ، و«عش حياة ايجابية» ، و«ابواب الحب المغلقة» ، و«فن الحب» للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم «الانتصار على الخوف» ، للاخصائى المعروف «جميس بندر» .. و «عش بحكمة تعش سليما» للاخصائى الالمانى «برنارد ديتمار» ثم : « كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة » لويلفريد نورثفليد

واليوم أقدم لك الجزء الثالث من الكتاب الرائع «الرغبة فى الحياة» .


THE WILL
TO LIVE
BY
ARNOLD A.
HUTSCHNECKER,
M.D.
"الرغبة في الحياة"
كل الطرق تؤدى الى :
الصحة!
للطبيب والعالم النفسانى: ارنولد هتشنيكر

« كتابى » يتابع موكب العلم عن كثب !

◆ زار مصر فى الشهر الماضى عالمان كبيران من علماء الصحة العقلية فى العالم ، هما الدكتور فرانك فريمونت سميث ، والدكتور جون ريز ، خلال جولة يقومان بها فى الشرقين الاقصى والاوسط . وقد ألقى أولهما محاضرة فى كلية الطب عن الاتجاه الحديث فى الطب البدنى والنفسى .. فكان مما قاله بالحرف الواحد - نقلا عن «أهرام» ٥ فبراير - « ان الطبيب انما ينبغى أن يعالج «المريض» لا «المرض» فحسب ، فان مشكلات الشخص وانفعالاته تؤثر فى حالته الصحية . ومن ثم وجب على الطبيب ان يعالج هذه المشكلات والانفعالات ، وهو يعالج المرض» .. ثم ضرب العالم الكبير بعض الامثلة من أمراض تنطوى على جانب انفعالى ، فضلا عن الجانب العضوى ، فذكر ضغط الدم ، وقرحة المعدة ، والربو .. وقال ان هذا الجانب الانفعالى يكون له أثر فى درجة المرض وفى مدته ..الخ»

وان كتابى ليزهو بأنه قد افرد جانبا كبيرا من صفحاته - منذ أول يناير الماضى - للمساهمة فى نشر هذه النظرية الحديثة ، قبل أن يشرع العالمان الكبيران فى القيام بجولتهما للتبشير بها ، كما لابد لاحظ كل من تتبع من القراء تلخيصنا للجزئين الاولين من كتاب « الرغبة فى الحياة » فى العددين الماضيين .. واليوم ، ونحن بسبيل تقديم الجزء الثالث من الكتاب فيما يلى ، يسرنا أن ننوه بهذا السبق ، لا على سبيل المن به على القارىء ، وانما توكيدا لاهمية الكتاب الذى نلخصه .. واعترافا بجميل القراء الاعزاء الذين يحفزنا تشجيعهم المتواصل على التفانى فى التنقيب لهم عن أنفع الكتب والمؤلفات .

القلب .. بين معناه المادى ، ومعناه المعنوى !

◆ **اذا** كان التنفس دليل حياة الجسد ، فالقلب رمز لحياة النفس ، فنحن «نهب» قلوبنا اذا احببنا !.. ومما يذكر عن «توسكانينى» الموسيقى ذى الطباع الثائرة ، الذى يسكب من قلبه فى موسيقاه ، ان الاخصائى الذى فحص قلبه حين بلغ الثمانين من عمره ، قال له : « ان قلبك فذ فى قوته يا مايسترو ..»

فاجاب توسكانيني : «لا عجب .. فانا لا استعمله قط !»

ونحن نقول من قبيل المجاز ، ان فلانا مات «كسير القلب» .. وكنا نعتبر هذا مجرد تلاعب بالالفاظ ، ولكن الرأى الذى بدأ اليوم يسود ، هو أن من الناس من يموت «كسير القلب» بالفعل ، أى يموت من فرط الحزن والاسى !.. وفى هذا يقول الدكتور «فرانز جرودل» - اخصائى القلب - فى بحث نشره منذ عهد قريب : ((**ان الصلة الوثيقة بين النفس والبدن لا تبدو واضحة قدر ظهورها فى الجهاز الذى ينظم الدورة الدموية ، ففى الانفعالات السارة تزداد سرعة الدورة ، وفى الانفعالات المكدرة ، تخف سرعتها ، ويبطىء نبض القلب !)) .. واذا كان القلب يستجيب لعواطف متناقضة - كالحب والكراهية - فلا عجب فى أن يغدو فى بعض الاحيان هدفا لعواطف هدامة قوية ، الى جانب العواطف ((البناءة)) المنتجة !**

زارتنى مرة مريضة - ارملة فى التاسعة والستين من عمرها كانت تعيش الى عهد قريب وحيدة ، فوق مصنع انشأته بجدها لتربى من دخله خمسة اولاد ! - وكانت تظن انها تعانى مرضا فى القلب ، اذ كانت ضعيفة ، تعانى دوارا وارتخاء وضيق صدر ، وتشكو من سوء الهضم وارتباك المعدة وارتفاع ضغط الدم .. ولكن الفحص لم يسفر عن شىء من العوارض البدنية لمرض القلب .. وسمعتها تقول انها فى صراع مع المدينة باسرها ، اذ كانت النية تتجه الى ازالة مصنعها لتوسيع الطريق التى يقع على حافتها .. فضلا عن ان احوال المصنع فى انهيار .. الخ

ودعيت بعد عامين لزيارتها مرة ثانية ، فوجدتها تبكى وتخال انها موشكة على الموت .. فهى تشعر باوجاع فى قلبها ، وضيق فى تنفسها .. وكان المصنع قد ازيل من مكانه ، ومات احد اولادها فى نوبة قلبية !.. وتبينت ان قلبها قد تضخم ، وان ضغط الدم مرتفع بدرجة مفزعة .. وما كانت الادوية

لتجدى شيئا لولا ان الرغبة فى الحياة عاودتها ، اذ ما لبث ابناؤها ان شيدوا المصنع من جديد فى موقع آخر ..

غرام الشيوخ .. وبال عليهم !

◆ **وتأتى** أولى نوبات القلب عادة ، بعد صدمة عاطفية ـ كموت عزيز ، أو خوف طاغ ـ على ان هذه لا تكون فى الواقع سوى اسباب عرضية ، لسنا ندرى اية انفعالات عاطفية سابقة قد مهدت لها فى كل حالة من حالات الاصابة بها .. فمثلا دعيت مرة لعيادة رجل فى الثالثة والخمسين من عمره ، سليم الجسد ، ولكنه اصيب بنوبة تعذر عليه معها التنفس، واخذ العرق يتفصد من جسمه .. واخبرنى بانه اصيب بأول نوبة مشابهة قبل ذلك بيومين . وكان مريضا متمردا ، اصر على معارضة الكثير من تعليماتى فى اليومين التاليين ، متشبثا بان لا علاقة لمرضه بالقلب ، وما هو الا نتيجة ارتباك الهضم ..

على اننى لحسن الحظ عرفت سر تمرده هذا : كان رجل اعمال ناجحا ، اعزب ، احب منذ ثلاث سنوات ولكن اخاه الاكبر ـ وكان يحترمه كل الاحترام ـ عارض زواجه من حبيبته ، فحاول مرتين ان ينسى حبه ، ولكنه فشل .. ولم يعد يكترث لحياته .. لم تعد لديه «رغبة فى الحياة» !

واستطعت اقناع أخيه بحقيقة الموقف، فوافق على الزواج ، وحدثت المعجزة ، فلم تعاود المريض نوبات قلبية بعد ذلك !

ولقد ذكرنا من قبل أن فى حياة المرء « فترات خطرة » ، منها سن الخمسين ـ لا سيما عند النساء ـ ومع ذلك فان معظم الذين يصابون بأمراض القلب فى هذه السن هم من الرجال ، لا سيما الذين نالوا قدرا من النجاح غير قليل ، ونالوه بفضل جهودهم وكفاحهم .. فهؤلاء فى الواقع لا يعانون الازمات القلبية نتيجة لكفاحهم من أجل منصب أو مال ، وانما ـ فى الغالب ـ من أجل مسائل عاطفية !.. فكثيرا ما نجد رجلا فى الخمسين من عمره يقع فى هوى فتاة فى زهرة العمر .. فاذا أصيب مثل هذا الرجل بمرض فى

القلب ، فما ذلك الا لان غرامه يملؤه قلقا ، اذ هو لا يعـرف هوادة فى اقباله على فتاته ، خشية أن تتحول عنه ، فضلا عن أنه يظـل فى خشية من أن لا يستطيع ارضاءها ٠٠!

وهناك حالات أخرى مبعثها الصدود الجنسى من الزوجة - ولو من قبيل الاشفاق على الزوج المسن - فان الزوج فى هذه الحال يفسر الصد على أنه مظهر لفقدانه آخر فرص الحب ٠٠ ومن ثم يكره الحياة بلا حب !

وكثيرا ما يقال لنا ان النوبات القلبية تأتى بلا انذار ٠٠ ولكنا - أيضا - كثيرا ما نجد أن من يصاب بنوبة قلبية مفاجئة ، غالبا ما يكون قد أعد وصية ، أو قام باجراء يشتم منه أنه قد توقع اقتراب أجله !٠٠ والواقع أن توقع الموت ليس دليلا على أننا مشرفون على الموت فعلا ، ولكنه ينم عن أن ثمة « جدالا » ناشبا فى أعمق أغوار نفوسنا مع غريزتنا الهدامة ، ومن ثم فنحـن ندبر الاجراءات التى يترتب عليها مصير ما نهتم به من مسئوليات ٠٠ على أن هذا الجدال الحامى قد ينتهى الى قرار حاسم يبعث فينا شجاعة جـديدة ٠٠ والفارق بين أولئك الذين يقررون - دون أن يفطنوا - التشبث بالحياة ، وأولئك الذين يستسلمون - دون أن يفطنوا أيضا - للموت ، هو وجـود « رغبة فى الحياة » عند الفريق الاول !٠٠ فمريض القلب «الميئوس منه» ، يكون فى الواقع بلا هدف يرغبه فى البقاء ٠٠

وليس لدى الطب تعليل شاف لسر تعرض الرجال للنوبات القلبيـة أكثر من النساء ٠٠ وقد يكون اختلاف أدوار الفريقين فى الحياة هو السبب ، اذ لا يزال الرجل - رغم ازدياد المساواة بين الجنسين - مضطرا الى أن يثبت رجولته بالنجاح واحراز الفوز فى الحياة ، كما لا تزال المرأة تحتفظ لنفسها بفرصة التراجع والرضى بأن تكون « امرأة » قبل أى شىء آخر !

وهكذا نرى ان الدنيا تتطلب من الرجل ان يكون مقداما ، « مكافحا » فى علاقته بها .. يقابل التنافس بتنافس مثله ، والعدوان بالعدوان ! .. **فاذا اشتدت قسوة الصراع فوق طاقته ، أو وجد المعركة لا تستحق ما يبذله فيها ، بحث عن مخرج .. ومن ثم ينقلب المسلك المكافح الذى يتخذه المرء ازاء الدنيا ، الى اتجاه هدام ، يصيب أثره الاعضاء التى كانت تشترك فى الانفعالات العاطفية فى الصراع الاول .. وقد سبق أن شرحنـا كيف يختار المرء داءه ، فالداء يختلف باختلاف الشخص ٠٠ فهنـاك من يصيبه الاجهاد بالسكر ، وهناك من يصاب بنوبة قلبية ! .. ويتلو امراض القلب فى كثرة الاصابة بها ، « الروماتيزم » ، وهو الآخر لا يزال لغزا غامضـا بالنسبة للاطباء ، ولكنا على الاضواء السابقة نستطيع ان نجلو غوامضه بدوره ..**

و « الغيظ » ، من الانفعالات العاطفية التى تظهر انعكاساتها فى أعراض امراض بدنية ! وقد تكفى صفعة ، أو لفظ سباب يطلقه المغيظ ، للتنفيس عن غيظه .. فان الغيظ « المكتوم » هو الذى يتطور الى امراض بدنية خطيرة .. وكذلك الكراهية ، والخوف ، والشعور بالذنب ، تفسر كثيرا من الامراض التى تصيب الانسان !

اللجوء الى المرض فرارا من الحرج !

◆ **وهناك** أوقات « نحتاج » فيها الى المرض ، اذ يكون فى هذه الحال بمثابة استراحة من الصراع ، نستجم خلالها ونستجمع قوانا ، او نعيد النظر فى موقفنا ، أو نستكمل استعدادنا ونضوجنا ! .. وفى هذه الاحوال لا يكون المرض هزيمة ، اذ ليس من الضرورى ان تكون الغريزة الهدامة هدامة على طول الخط ، ولا ينبغى أن ننظر الى الغريزتين ، الهدامة والانشائية ، كغريمتين فى صراع دائم ، وتضارب ، بل انهما تعملان معا فى انسجام - فى حالة الصحة السليمة - لتمكيننا من ان ننجز خير ما فى طوقنا انجازه .. فاذا حدث تضارب بين رغباتنا الصادرة عن غرائزنا الكامنة ، وبين النواهى والاوامر التى يمليها الوعى والضمير ، ومطالب المجتمع .. فهنا قد ينشأ المرض ، الذى يأتى فى موعد مناسب ليحفظ على المرء كرامته ويجنبه الخزى !

وفى كثير من المناسبات ، يكون المرض مخرجا لا غنى عنه للدبلوماسيين والساسة الذين على خلاف مع رؤسائهم .. اذ نرى من الوزراء من يستقيل لمرضه - والمرض كثيرا ما يكون حقيقيا فى هذه الاحوال ! - كما نرى من المؤتمرات ما يؤجل لانحراف صحة أحد الاعضاء .. ومن وراء ستار مرض الوزير يأتى وزير جديد ، وتعلن سياسة جديدة ، وتعود عجلة الحكومة الى استئناف سيرها ..

والانسان قد يتعرض من آن الى آخر لمشكلات يصادفها فى معاملاته ويستعصى حلها ، فيتعذر عليه ايجاد الانسجام بين الظروف الخارجية ، وبين الحاجة أو الرغبة الصادرة عن الغرائز الكامنة فى اعماقنا .. أو هو قد يصادف عنادا من هذه الغرائز يتعذر معه تحقيق التكيف الذى يستلزمه الموقف الخارجى .. ومن هنا ينشأ المرض ، اذ تخف الغريزة الهدامة لنجدة الانسان !

وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة ممثلة لامعة ، اصيبت اثناء التجارب التى كانت تجرى قبل افتتاح الموسم المسرحى بالتهاب مفاجىء فى الزائدة



الدودية ٠٠ وكانت يومئذ فى أوج مجدها ، تحظى بالتقدير العام ٠٠ وأجريت لها عملية ناجحة ، وانهالت عليها مظاهر العطف ٠٠ وكان الكل آسفين لالغاء المسرحية التى كانوا يتوقعون أن تبلغ فيها قمة نجاحها ٠٠ أما هى فكانت تحمد فى سرها للعملية الجراحية أن أنقذتها ، فقد تبينت فى التجارب الاخيرة أن الدور الذى اضطلعت به فى المسرحية الجديدة لم يكن يلائمها على الاطلاق ٠٠ ولم يكن ثمة متسع من الوقت للبحث عن مسرحية جديدة ٠٠ كما كان المضى فى العمل على افتتاح الموسم بهذه المسرحية يعنى الفشل المؤكد لها !٠٠ وكادت الممثلة تجن ، حتى لقد تمنت لو تصاب بحادث يقضى عليها .. واخذ جزعها يشتد كلما اقترب موعد الافتتاح ٠٠ حتى انقذتها « الزائدة الدودية » !

وكثيرا ما يتسنى للمرء المسوق بمطامع سواه ان ينقذ نفسه باجراءات يتخذها دون ان يفطن ٠٠ فالابن الذى يكلف نفسه اكثر مما يطيق لارضاء ابويه ، او الزوج الذى يكافح كى يصل الى ما وصلت اليه زوجته من نجاح ، قد يحتاج الى المرض احيانا كوسيلة للدفاع عن نفسه ! ٠٠

ومن هذا ما حدث لأحد مرضاى ، وهو فتى فى السادسة عشرة من عمره ، كانت امه لا تفتأ تفخر بذكائه وقواه العقلية ، ولا تكف عن حفزه على مضاعفة جهوده .. وكان قبيل الامتحان الكبير فى كل عام ، يقع فريسة مرض من الامراض .. ومع أنه كان يخرج من الامتحان فى مقدمة الناجحين ، الا انه ظل ينظر الى الامتحان كمحك لمقدرته ، فيتولاه القلق من ان لا يقدر له ان يصل الى ما ترجو له امه الوصول اليه .. فالمرض فى هذه الحال درء يقيه الالحاح المستمر من امه ، وفرصة يهدىء خلالها من حدة اندفاعه ، وينسق ما يحتشد فى رأسه من معلومات .. أو يتعلل بها لتبرير تخلفه عن الاولوية المطلقة !

النصب والاحتيال .. حتى فى العواطف !

◆ **واليك** قصة غرام تلعب فيها الغريزة الهدامة دور الحليف الخفى : فلقد أرسلت لى ارملة شابة جميلة صديقا لها كى افحصه واقرر ما اذا كان قد تعرض قبل ثلاثة اسابيع لنوبة قلبيـة « حقيقية » ؟ .. وعرفت المريض حين رأيته ، اذ كان يلازم السيدة اثناء ترددها على عيادتى . وكان شابا فى الثلاثين من عمره ، طويلا ، عريضا .. وقد أصابته النوبة حين كان يقود سيارة ، فنقل الى مستشفى ، حيث عولج ثلاثة اسابيع . وثبت من الفحص الذى أجريته ان كل آثار النوبة قد تلاشت ، وليس ثمة ما يخشى منه على قلبه .. وكان السر الذى قدر لى ان اكتشفه فى صدد علاقة الارملة بذلك الشاب ، ان زوجها الاول كان قد مات بداء القلب ، فلما أحبها هذا الشاب وأعيته الحيل لاقناعها بالزواج ، خف المرض لمساعدته .. فاذا بالنوبة تصيبه ، وتذكرها بما أصاب زوجها الأول ، فخشيت ان تكون سببا فى موت رجل آخر .. وقبلت الزواج ! ـ على انها لم تلبث ان احست، بعد عام ، بأن ماجرى كان نوعا من « النصب والاحتيال » العاطفى ، فلم تتردد فى طلب الطلاق منه !

والذى يهمنا من الأمر هنا ، ان الغريزة المدمرة كانت « حليفا » للعاشق الشاب فى « النصب والاحتيال » العاطفى ! .. **ومن المألوف ـ الذى تؤكده ملاحظات الاطباء ـ ان الطفل السقيم المعلول ، قد يستحيل اذا ما كبر الى انسان قوى موفور الصحة !.. وقد نجد لذلك تعليلا من الناحيـة الطبية ، هو انه يصاب بحصانات من الامراض التى انتابته فى طفولته .. بيد ان ثمة تعليلا آخر ، هو انه يحاول ان يتغلب على تأثير البداية السيئة فى حياته ، كما أن التوهم أن عمره قصير ، يذكى فيـه الرغبـة فى الاستمتاع من الحياة باقصى ما يسعه ، ومن هنا يعنى بنفسه ، ويدخر جهوده ليركزها على الاهداف التى يريد ان يبلغها قبل ان يحين اجله .. وهو يكافح فى اتجاه انشائى ، ليجعل لعمره القصير من القيمـة ما لا يقل عما للعمر العادى ، فاذا كل نجاح يحوزه يضاعف من قـدرته على مغالبة الضعف !**

ثم ان المرض قد يحدث احيانا فى الجسم ما يحدثه العلاج بالهزات المفتعلة ، كالانسولين او الكهرباء .. وكذلك كثيرا ما تكون فترة النقاهة فرصة للمريض كى يدبر اموره ، ويتخذ قراراته ، ويرسم طريقا جديدة لحياته ، غير الطريق التى التمس الفرار منها بالمرض دون ان يفطن ..

« حلفاء » ضد المرض !

◆ **أذكر** لأحد اساتذتى قولا كان دائما يردده : « كثيرا ما أخطىء فى التشخيص ، ولكننى ابدا لا أخطىء فى العلاج ! » .. ووراء قوله هذا معان كبيرة : فلقد توفرت الآن الادوية الفعالة التى تقضى على أعراض الكثير من الامراض ، وعلى جراثيمها وميكروباتها ، ولكنا لم نوجه بعد هجماتنا الى « الظروف » والأحوال التى جعلت المريض يتأثر بتلك الجراثيم ويعجز عن مقاومتها ! ذلك لأن الصراع ضد المرض ينبغى ألا يقتصر على الطبيب وحده ، بل لا بد من قيام التعاون ازاءه بين الطبيب والمريض .. اذ لا يكفى ان يذهب الثانى الى الأول ويقول له : « اشفنى ! » ، وانما يجب ان يحاول جاهدا أن يفهم سر مرضه .. وليس لنا أن نتوقع أن يفعل هذا وحده ، أو لتوه ، بل يجب ان يتلقى من معونة علم الطب ما يهيىء له راحة الجسم والعقل أولا ، قبل ان يطلب اليه المساهمة فى الدفاع عن نفسه ضد المرض ..

كانت بين مريضاتى سيدة أنيقة ، رشيقة ، جميلة ، فى الاربعين من عمرها - وان كانت خفتها وحيويتها تضفيان عليها شبابا خالدا ، يجعلها تبدو فى الثلاثين ! - وكانت مثالا للأمريكية الحديثة التى تجمع بين البيت والعمل فى كفاءة ، ولكن يبدو أن هذا التوفيق ذاته يعرض قلب المرأة لمطالب كثيرة : فكرية وعاطفية ، فتظل دائما فى صراع !.. فقد عانت مريضتنا هذه أولا من افراط فى نشاط الغدة الدرقية ، انتهى بها الى عملية جراحية .. والى اختتام زواجها الاول بالطلاق .. ثم انصرفت الى العمل .. ولم تلبث أن تزوجت للمرة الثانية ، فاذا مرضها يتخذ اتجاها آخر : فبينما كان افراط الغدة الدرقية من مظاهر المسلك التحفزى العدوانى ، السابق ، اذا بها ترتد الآن الى المسلك «المتخاذل» ، فكانت حين زارتنى تشكو من آلام فى البطن ، ومن الشعور بالتعب .. وكلها أعراض تنم عن أنها كانت



تصبو الى الحب ، والحماية ، والتخلص من المسئولية ! .. ولكنها فى الوقت ذاته كانت تشكو من صداع مزمن ، وهذا من اعراض الغضب المكبوت .. اى المسلك المتحفز ! .. فما سر هذا التناقض ؟

سره ان المرأة فى عصرنا تتحمل من المسئوليات ـ سواء باختيارها أو بحكم الضرورة ـ أكثر مما يكفى للشخص الواحد ، فلا تلبث أن تتمرد على هذا العبء ، ولكنها فى الوقت ذاته ـ ودون أن تعى ـ تمضى فى أداء التزاماتها .. وهذا التضارب يؤدى بها الى المرض .. ولكنها ، ككل النساء ، تكره المرض .. او ـ كما عبرت مريضتى ـ « لا تجد وقتا لديها للمرض » ! ومن هنا لا يكون المرض مهربا من المسئولية ، بل يكون عاملا طارئا للاخلال بجدول نشاطها الملىء بالاعباء ! .. وهكذا تجد نفسها امام حلقة مفرغة : من التضارب (بين الاعباء وبين الاستمرار فى تحملها) ، الى المرض ، ثم الى اشتداد الصراع ، بسبب المشكلات الجديدة التى ترتبت على المرض .. الخ .. وواجب الطبيب هو ان ينفذ خلال هذه الحلقة المفرغة ، بالقول والعمل .. فيعمل من جهة على كسب ثقة المريض ، ويستعين بالأدوية من الجهة الاخرى على مغالبة آلامه ، ثم «يستدرجه» الى الاشتراك فى مكافحة المرض .. !

ذلك لأنه مهما كانت وسائل الطبيب العلمية ، فانها لا تمكنه الا من معرفة أعراض المرض ، وآثاره الجسدية .. أما سبب المرض ومبعثه فلا يعرفه سوى المريض .. وحتى اذا لم يفطن اليه المريض أو يكشفه ، فانه يستطيع ان يساعد الطبيب على معرفته ، بالافضاء اليه بظروفه .. وبالحوادث التى صادفته ، والانفعالات العاطفية التى أثارتها هذه الظروف والاحداث ..

وقد تكون هذه الناحية داخلة فى إختصاص الطبيب النفسى ، ولكن هذا لا يكون الا فى الحالات العويصة والحادة .. أما فيما عدا هذه الحالات ، فأعتقد ـ من تجاربى ـ أن فى وسع الطبيب اذا وجد تجاوبا وتعاونا من مريضه ، ان يساعده على تفهم مرضه وسببه ، وعلى الاشتراك فى علاج نفسه ..

على ان مهمة الطبيب فى النفاذ خلال حلقة المرض المفرغة ، ليست دائما سهلة .. بيد ان كل عناء فيها كفيل بأن يجد الجزاء فى النهاية ، لأن الطبيب اذا ما توفر له ادراك الانفعالات التى انبعث منها سبب المرض ، الى جانب ما يتسلح به من معرفة عملية ، يغدو أقدر وأكفأ على توفير العلاج الناجع ، الشافى ..

وهناك صنف من المرضى ، صعب المراس ، يشعر بالنفور من الطبيب والطب ، فهو لا يلجأ اليهما الا كارها ، مكرها ٠٠ وهو فى هذه الحال ، يقبل على الطبيب وكأنه مقبل على عدو !٠٠ وخليق بالطبيب هنا أن يتشبث بالحلم وطول الأناة ، وان يستخدم فنه العلمى اولا فى تخفيف آلام المريض، وبذلك يمهد الطريق الى كسب ثقته كخطوة تالية ٠٠ ذلك لانه كما يسيطر العقل على الجسم ، نجد أن هذا يؤثر على ذاك !

الاب ٠٠ سر مرض الابن !

◆ **والخوف** عقبة أخرى ينبغى على الطبيب أن يزيلها قبل أن يكتسب المريض الى صفه ويتحالف معه ضد المرض ٠٠ ذلك لأن الخوف قوة تحيل التوعك الى مرض ، وتحيل الألم المحتمل ، الى ألم لا يطاق ٠٠ فهو ايضا من الاعراض التى يجب على الطبيب ان يبادر الى علاجها ـ تماما كالاعراض الجسدية للمرض ـ اذ أنه من مظاهر النشاط الهدام ، ولكنه فى كثير من الاحيان يكون مكبوتا ، مختفيا وراء ستار من الهدوء والرزانة ٠٠ ومن هنا تنشأ صعوبة مهمة الطبيب فى علاجه !

ومن الكلمات الخطيرة التى تجرى على ألسنة كثير من الأطباء ، دون ان يدركوا النتائج التى قد تترتب عليها ، كلمة « مستعص » ، او « لا شفاء منه » ٠٠ ذلك لان هذه الكلمة تبعث اليأس فى المريض ، فتساعد على نشاط رغبته فى القضاء على نفسه ! ٠٠ فى حين ان الطبيب لو استعان بشىء من الحكمة وطول البال ، ، لاستطاع ان يتبين ان السر فى اخفاق أسباب العلاج العلمى بالأدوية والمستحضرات والأجهزة ، انما يرجع الى أن الرغبة فى القضاء على النفس كانت لدى المريض من البداية ، وان لا سبيل لنجاح أى علاج ما لم تتم مغالبتها والقضاء عليها !

ان المريض الذى يبدى النفور والعداء ، يعانى من روح متحفزة عدوانية ، بثتها فيه محاولاته أن يهيىء نفسه لمجابهة الصعوبات التى يتورط فيها ، وان لم تنجح هذه المحاولات .. أما المريض الوادع ، المستكين ، فيعانى من روح متخاذلة ، أى انه لا يبذل قط أية محاولة ليكيف نفسه وفقا لظروفه ، وانما هو يبحث عن شخص يلوذ به وينشد الحماية لديه ، كالطفل اذ يأوى الى والديه فى الملمات ! ٠٠ ومثل هذا الشخص لا يكون عونا للطبيب ـ كما توحى المظاهر ـ بل يكون عالة عليه ، اذ انه يطمع فى ان يعمل الطبيب كل شىء وحده ، فلا يتحالف معه ضد المرض ٠٠

والواقع أن اسراف الآباء فى العناية بأبنائهم ، وفى تولى شئونهم عنهم ،

كثيرا ما يكون سببا فى امراض الابناء ! .. واذكر ان كان بين مرضاى يوما مريض مسن كان يشكو من قرحة معوية ، وذات يوم جاءنى ابنه - وكان فى التاسعة والعشرين من عمره - يشكو من حموضة فى جوفه .. وتبينت من حديثه انه كان يعانى الربو منذ طفولته ، لم يبارحه الا فيما بين الثالثة عشرة والحادية والعشرين من عمره .. وكان سعيدا فى حياته الزوجية والعملية ، ولكنه كان دائم الانشغال بأبيه ، الذى كانت حياة الاسرة كلها ترتبط به وتعتمد عليه .. وكان من أول ما عنيت به ان «الربو» من الامراض التى تنشأ عن التبعية ، اعنى عن اعتماد المرء على سواه ، وعدم استقلاله بعواطفه وشئونه .. ولقد درج الأطباء على الاعتقاد بأن الربو المزمن داء لا شفاء منه ، ولكننى حرصت فى علاجى لمريضى على ان اجعله يلمس ان علاقته الوثيقة بأبيه ، تكمن وراء دائه .. وان قلقه البالغ بشأن مرض ابيه ، ليس سوى مظهر لحاجته الى الاعتماد على ذلك الأب الذى كان مرضه يشغله عن ان يوفر له المساعدة الكاملة التى كان يطمع فيها منذ صغره .. فلما بلغ مرحلة المراهقة ، بثت انفعالاتها فيه شعورا بالقوة ، والثقة فى نفسه ، فاستطاع ان يستقل مؤقتا عن شخصية ابيه .. ولكنه حين تجاوز العشرين ، وهبط الى ميدان العمل ، صادف اعباء وصعابا حيرته ، فاذا به يرتد الى ما كان فيه من قبل من رغبة فى الاعتماد على غيره .. فعاوده الربو منذ تلك السن !

ومذ تبين المريض هذا ، بدأت صحته فى التحسن فعلا ، حتى تغلب على الربو وتخلص منه نهائيا !

يرفض « الاستياء » من حماته .. ليحتفظ بصحته !

◆ **ننتقل** الآن الى الامراض « العصبية » .. وقد يقال ان من السخف ان نقسم الامراض الى عصبية وغير عصبية ، ما دامت جميعا تشترك فى ان لها أصلا من الانفعالات العاطفية .. ولكن الواقع ان من الامراض ما ينبعث « مباشرة » عن ازمات عاطفية .. وأول ما ينبغى على الطبيب فى هذه الحال ، ان يفحص المريض فحصا دقيقا ، ليستطيع ان يؤكد له ان ليس به أى مرض عضوى ، وبذلك يهدىء من مخاوفه .. ثم يعمل بعد ذلك على استخدام الأساليب الطبية فى علاج اعراض المرض .. ويلى ذلك ، فهم مبعث المرض ، وهذا عنصر ضرورى للشفاء .. وقد دلتنى تجاربى على ان المريض يستطيع ان يتفهم داءه ، لو انه عرف الطريق التى تؤدى بالارهاق العاطفى الى الظهور فى شكل أعراض جسدية ..

اننـــا حين نطعم الجسم بمصل الدفتريا مثـلا ، انما نساعده على أن ينشىء لنفسه حصانة ضد المرض .. وكذلك المريض الذى يعـرف أن أساس مرضه يرجع الى انفعال عاطفى معين ازاء موقف من المواقف التى تعرض له فى حياته ، لا يلبث أن يبنى لنفسه حصانة ضد هـذا الانفعال العاطفى .. وهذا جزء رئيسى من تكييف الجسد والعقل للموقف .. ولقد رأيت رجلا « يرفض » أن يستاء من حماته ، لانه أدرك قبل كل شىء أن استياءه العاطفى قد يؤدى الى آلام جســدية ، ومن ثم بنى استحكاماته و « تحصيناته » العقلية ضد هذا الموقف وضد استجابته العاطفية له !

على انه قبل ان يبلغ اى امرىء هذا الوضع ، يجب اولا ان يطمئن الى انه لم يولد وبه ضعف يحكم عليه بالمرض ، أو ان جسده مصاب بضرر يجب معه ان يتقبل المرض كمصير محتوم .. وثانيا يجب ان يدرك ان المرض ليس نذير حظ تعس ، بل انه هو الذى يجلب المرض لنفسه ، وهو الذى يستطيع ان يتفاداه ! .. والخلاصة ، ان مرض الجسم يجب ان يعتبر اشارة الى نشوب كفاح فى سبيل التكيف مع ظروف المعيشة ..

بداية الطريق .. الى الصحة

◆ **والآن** وقد أنقذنا المريض ، فهل نتركه ؟.. بل يجب أن نطمئن على سلامته واستقراره ، اذ لا يكفى أن يشفيه الطبيب من القرحة ، أو الربو ، أو النوبة القلبية ، لانه اذا لم يكن هو ذاته قد أدرك الدافع الداخلى الذى ألقى به فى أحضان المرض ، فان هذا المرض لن يلبث أن يعـاوده ، فتكون وطأته فى هذه المرة أشد وأخطر .. ومن ثم فعلى الطبيب والمريض أن يهاجما معا ذلك الدافع الداخلى !

وخير طريقة لاجتذاب المريض الى التعاون مع الطبيب ، هو مطالبته بأن يراقب أعراض المرض ، ومدى شدتها ، والاحداث الخارجية والداخلية التى تؤدى الى نوبات الالم .. فان هذه المراقبة تمكنه من أن يلاحظ نفسه ويعنى بها .. فضلا عن أن المرء لا يستطيع أن يراقب أوقات الالم وشدته والاحداث التى تسبقه ، دون أن يرى علاقة بين الجميع .. ولا يلبث بعد زمن أن يفطن الى حالته العاطفية وانفعالاته ، وكيف تؤدى به الى المرض .. وادراك هذه الحالة هو بداية الطريق الى الصحة !

ان كلا منا نتاج ما ورث عن أهله ، والبيئة التى ولد فيها ، والجو الثقافى المحيط به ، وشخصية أبويه ، وآثار مدرسته ، وتأثيرات الدين والعادات والتقاليد والمثل الخلقية فى المجتمع الذى يعيش فيـه .. ومعظم هـذه الاشـياء التى اشتركت فى تكويننا ، فوق طاقتنـا ، فلا سبيل لنا الى

التحكم فيها .. على اننا اذا عجزنا عن تغيير الماضى ، نستطيع أن نعدل الحاضر ، وأن نصوغ المستقبل .. وذلك بطريقتين : أولا ، بأن نعرف كيف نعضد الرغبة فى الحياة فى أوقات الضيق والملمات ، حتى نستطيع أن نجتاز أزمات الحياة بأقل قدر من الضرر .. وهذا هو البرنامج العاجل ، برنامج الطوارىء .. أما البرنامج الطويل الاجل - وهو الذى يمثل ثانية الطريقتين - فيتجه الى تنمية الرغبة فى الحياة بكل الوسائل الممكنة ، لنزيد نصيبنا من السعادة فى الحياة ..

والبرنامج المؤقت يتطلب أولا أن ندرك أن الاجهاد الذى قد يودى بنا الى المرض - أو الارهاق بمعنى آخر - عبارة عن تأثير ينصب على الجسد من متاعب خارجية أو داخلية ، أو النوعين معا .. فالنزاع مع شريك فى العمل ، أو مع الزوج أو الزوجة ، وعدم اشباع الحاجات الجنسية ، واصابة صديق بضرر ما .. كل هذه أمثلة من كثير من مسببات الاجهاد..

فاذا كان هذا الاجهاد مؤقتا ، واستطعنا أن نتغلب عليه ، أو أن نروغ منه ، فان الجسد لا يلبث أن يستريح ، وبذلك ينجو من الضرر .. ولكن الاجهاد الذى يطول به الأجل - خارجيا كان أو داخليا - لا يدع للجسد فرصة للانتعاش ، وتجديد قواه ، وحشد امكانياته - وهو مانسميه بـ «الاستجمام» أو « الراحة » - ومن ثم يضطر الجسد الى استنفاد كل ما لديه من طاقة .. وعلى ذلك ، فعلينا أن نبحث عن طريقة لكسر حدته .. يجب أن نتعلم كيف نصون طاقتنا الحيوية ، وننميها .. وهذا فى حد ذاته « فن » !.. فليس مجرد نسيان المشكلات بتعاطى الخمر ، أو بمجرد السير فى الهواء الطلق ، نسيانا فى الواقع .. ولا هو مغالبة للارهاق ..

ولقد يفيد النشاط الجنسى كثيرا من الناس فى تخفيف الاجهاد عنهم ، اللهم الا اذا كانت العلاقة الجنسية سببا فى زيادة الارهاق بسبب الشعور بذنب دفين ، أو بسبب عداء مكتوم فى النفس .. الخ

وفى وسعنا أن نروح عن أنفسنا باللعب مع أطفالنا ، أو بالاقبال على فلاحة حديقة الدار ، أو بالانطلاق فى نزهة فى الخلاء ، على شريطة أن نستمتع بمناظر الطبيعة التى تصادفنا ، ونطرح عنا المشكلات تماما ، فلا نسمح لها بالتسلل خلسة الى أفكارنا !

.. كما أن حسن اختيار الغذاء الذى نتناوله أثناء فترات الاجهاد ، من العوامل التى تساعد على مناهضة هذا الاجهاد .. لأنه حين تثقل وطأته ، يعرقل عملية تجدد الخلايا فى الجسم ، ويشيع الاضطراب فى جهازنا الهضمى .. لذلك يحسن أن نختار أغذيتنا فى هذه الاحوال ، بحيث

تساعد على عملية تجدد الخلايا ، وبحيث تقاوم اضطرابات الجهاز الهضمى .. فاذا قل افراز الصفراء - أثناء فترات الارهاق - وجب علينا أن ننصرف عن تناول الاطعمة الدسمة .. والشخص الذى يصاب بالحموضة فى فترات الارهاق يجب أن يتناول من الاطعمة ما يكون قلويا .. وهكذا !

على أن من أهم عوامل التخفف من الارهاق : النوم .. وهناك طرق لاستجلاب النوم الذى كثيرا ما يهرب منا فى هذه الحال ! وتختلف كمية النوم التى يحتاج اليها الجسد باختلاف صاحبه .. اذ المهم فى الامر ، هو أن تكون الكمية كافية لانعاش الجسم ..

البناء .. طوبة طوبة !

◆ والخلاصة ، انك لكى تتغلب على المشكلات التى تطاردك، ينبغى ألا تتوقع أى تغير ما لم تغير نفسك أولا ، فتضع لنفسك «برنامجا» للتغيير ! .. وليس هذا بالشىء الذى يتطلب منك عناء ، لان فى وسعك أن تقسم هذا البرنامج على أمد طويل ، بحيث تقوم بهذا التغير خطوة فخطوة .. وتبنى صرح حياة جديدة سليمة ، طوبة اثر طوبة ، فى اناة .. سيما وان البرنامج الصعب تصحبه صعوبة الاداء ، ومن ثم تعود الى الارجاء، ثم الاهمال ، والشعور بالهزيمة واليأس .. وكلها تضاعف من سوء حالك بدلا من أن تساعد على تحسينها !

.. واذا ما عرفت خطأك أو ضعفك ، فيجب ألا تقف عنده لتبكى أو لتنحى على نفسك باللائمة ، أو لتسخط على الدنيا والحضارة ، وانما يجب أن يتجه سخطك الى العمل على البدء فى السعى لحياة أفضل ، فان المجهود الانشائى - الذى تقرره بحيث يتلاءم مع امكانياتك ومقدرتك - سيبدد من اثر الشعور بالخيبة والاسى على أخطاء الماضى .. وان فى العمل ، والعمل الانشائى - وخاصة اذا كان موضوعه نفسك - لذة ما فوقها لذة .. ويجب ألا يضيرك البطء ، ما دمت تمضى قدما .. فى عزيمة و « رغبة » !

الحياة
قصة



روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : لستيفان زفايج
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام : فيكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : ليون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- تاييس : اناتول فرانس
- بلاد العميان : هـ.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- البوهيمية : هنرى موجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- شيرى : كوليت
- الجريمة والعقاب : دستويفسكى
- لحن كرويتزر : تولستوى
- أميرة مصر : جورج ايبرز
- الامطار : سومرست موم
- أفروديت : بييرلويس
- جيجى : كوليت
- البجعة السوداء : توماس مان

واليوم أقدم لك هذه القصة التى احدثت ضجة : ((الشيطان فى الجسد))



LE DIABLE
AU CORPS
Par
RAYMOND
RADIGUET
القصة التى احدثت ضجة !
الشيطان
.. فى الجسد
للروائى الفرنسى
ريموند راديجيه

القصة .. وقصة القصة !

الشيطان فى الجسد !

.. ولو أنصف مؤلفها لأطلق عليها « الشيطان امرأة ! » .. فهى قصة فتى يافع ، مراهق ، خجول ، تلقفته امرأة تفوقه نضجا ، وخبرة ، وجرأة .. ففتحت أكمام الزهرة التى كانت ما تزال مغلقـــة ، تتمطى تحت ندى الفجر الذى لم يسفر بعد .. وأزاحت الستار عن الرجل فى الفتى الذى كان ما يزال ينعم بسكينة الجهل ، أو الجبن !.. فلما جرفه التيار الذى أزالت من طريقه السدود ، لم يعدم لحظات كان ضميره يتململ فيها قلقا ، واشفاقا على الزوج المخدوع - المحروم حتى من فتات المائدة ! - أما هى ، فلم يتململ لها يوما ضمير أو نفاية ضمير .. وانما استمرأت اللعبـــة واستطابت المرعى فمضت مع « الكبش » فى الشوط الى آخـــره ، فى استباحة وتهتك لا مزيد عليهما !.. حتى الخطاب كانت تستكثر أن تكتبه الى الزوج الغائب فى ميدان القتال ، يرعى حرمة الوطن وهى لا ترعى له حرمة .. وحين مرض وأرسل الى مصحة ، أبت أن تفارق عشيقها لحظات لتلقاه فى المحطة فى فترة وقوف القطار !

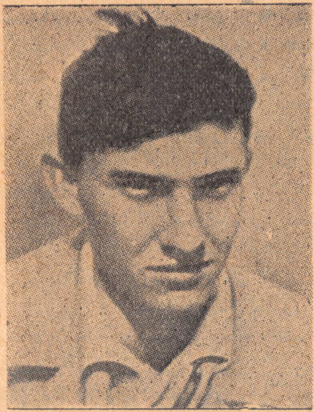
هل هى قصة « غير أخلاقيــة » ؟

◆ **قد** يقول قائل ان القصة « غير أخلاقية » .. **وأنا أعارض هـــذا الرأى ، بل أذهب فى معارضـــــته الى حد القول بأنها - على العكس - « أخلاقية » ، وأخلاقية الى مدى بعيد .. فأنت تخرج من قراءتها بأكثر من مغزى أخلاقى : تخرج منها** بأن تلك الصلة الدنسة قد انتهت بالفتى ، رغم مراهقته ، الى شعور بالاشمئزاز ، والندم ، والهم ، والمسؤوليـــة الباكرة ، جعله يشتهى الموت !.. **كما أن القصة** ، بواقعيتهـــا الصريحة ، تفتح العيون على مشكلة هامة من صميم مشكلات المجتمع ، هى مشكلة حاجة الشباب المراهق الى رعاية الوالدين وتفهمهما الصريح - السليم - لنفسيته، ولطرق معالجتها . والقصة اذ تفتح العيون على هذه المشكلة ، تردفها فى الوقت نفسه بتقديم الحل لها ، حين تعرض هذه النفسية المبلبلة علـى حقيقتها ، كما هى ، عارية من كل نفاق أو زيف !

ثم ان للقصة مغزى أخلاقيا آخر ، فهى تصور مدى الانحلال والاباحية اللذين ينحدر اليهما المجتمع فى أوقات الحروب - كما انحدر اليهمـــا

المجتمع الفرنسى أثناء تلك الحرب العالمية الأولى - الامر الذى يتعين على كل دولة أن تعد له عدتها مقدما، وتتأهب لمواجهته بكل سلاح من جهود وخبرة رعاة الشباب فيها، وحكمة علماء التربية وأخصائييها .. ويكفى فى تصوير ذلك الانحلال أن نرى الزوجة تزهو أمام ابن عمها بعلاقتها بعشيقها .. والأم تقف على هذه العلاقة، فتتجاهل وتغضى !

وأخيرا، فلعل المغزى الاخلاقى الاخير - أو قد يكون الاول - للقصة، هو أن الزوجة المستبيحة تدفع فى نهايتها ثمن آثامها، مضاعفا، مضافا اليه الفوائد .. بالربح المركب !



المؤلف « ريموند راديجيه »، عام ١٩١٩ (قبيل اصدار قصته)

خيال .. أم حقيقة ؟

◆ **هذه** هى قصة « الشيطان فى الجسد »، كما ستقراها فى الصفحات التالية .. لكن للقصة بدورها، ولمؤلفها، قصة أخرى « خارج » القصة .. لعلها أعجب وأفجع من كل قصة !

فعندما أصدر الكاتب الفرنسى اليافع « ريموند راديجيه » قصته هذه، فى سنة ١٩٢٠ - وكان يومئذ فى السابعة عشرة من عمره - أحدث ظهورها ضجة مزدوجة، أى ضجتين : ضجة فى دوائر الادب .. وضجة فى أوساط المجتمع !

أما الضجة الاولى فلأن القصة اعتبرت عملا أدبيا شامخا، « كهرب » المحافل الادبية - الفرنسية وغير الفرنسية - واستحق أن يترجم فورا الى تسع لغات، ويباع منه ما يربو على ثلاثة ملايين نسخة !.. بل ان القصة كفلت لمؤلفها بمجرد صدورها مكانا مرموقا بين الاسماء الخالدة فى الادب العالمى !

أما الضجة الاخرى التى أثارتها القصة فى أوساط المجتمع، فقد كان مرجعها انها كتبت بأسلوب واقعى يكاد يبلغ درجة الاقناع بأن حوادثها وقعت بالفعل على مسرح الحياة !.. **ومن هنا راح كثير من القراء يتساءلون عن مدى ما فى القصة من واقع، ومن خيال !.. على أن التساؤل والتقولات**

لم يبلغ نشاطها فى مكان ، ما بلغه فى بلدة « سانت مور » الصفيرة الواقعة على ضفة نهر المارن ، حيث قضى المؤلف « راديجيه » سنوات يفاعته .. فان أهل البلدة لم يكادوا يقرأون القصة حتى راحوا يعقدون المقارنات بين حوادثها وبين ما عرفوه من حياة مؤلفها بين ظهرانيهم خلال سنوات الحرب ، فتذكروا أنهم كانوا يرونه كثيرا بصحبة معلمة من معلمات البلدة تدعى « أليس » ، كانت تكبره بسنوات ، وكان زوجها غائبا فى الحرب !

ومع انه لم يكن هناك مجال لتفسير تلك العلاقة فى حينها بأكثر من انها رعاية من معلمة مخلصة ، لتلميذ فى الرابعة عشرة ظهرت عليه مخايل النبوغ المبكر ، الا أن خيال أهل البلدة الخصب وجد فى علاقة « أليس » و « زيموند » مادة دسمة لسيل من الشائعات والهمسات الخبيثة .. وسرعان ما أنطلقت الألسنة تتناقل الروايات عن نزهات على ضفة النهر كان « العاشقان » يشاهدان أثناءها مستغرقين فى « الانسجام » ! ..

فلما عاد الزوج «جاستون» من ميدان القتال يحمل أوسمة البطولة على صدره ، اختلطت تحيات الاعجاب والترحيب التى استقبل بها ، بأكثر من غمزة ، ومن لمزة .. سواء ما وجه منها نحوه ، أو نحو الطفل الذى أنجبته له زوجته أثناء غيبته !.. ومرة أخرى، كان هناك أكثر من سبب « مشروع » لمجىء الطفل ، فان الزوج كان يزور زوجته خلال الحرب كلما سنحت له فرصة الحصول على اجازة .. لكن الشكوك التى زرعها أهل القرية فى النفوس أبت أن تموت .. **فلما أصدر « راديجيه » قصته « الشيطان فى الجسد » ، بما حوت من تفصيلات وملابسات مشابهة ، تحولت شكوك الزوج « جاستون » الى يقين ، فأقصى الطفل عن داره ورفض أن يعترف به .. ثم لم يعد يحتمل نظرات الناس وتطلعهم اليه كلما مر فى شوارع البلدة ، فاضطر الى الانتقال بزوجته الى بلدة أخرى .. ثم الى ثالثة !**



الزوجة « اليس » فى شيخوختها (عام ١٩٤٧) .. بعد ٣٠ عاما من الحياة فى «قفص الاتهام» !

وفاة المؤلف .. تطمس معالم الحقيقة !

◆ وحاولت الزوجة ، جهد المستميتة ، أن تبدد شكوك زوجها .. لكن الشخص الوحيد الذى كان يستطيع اثبات براءتها - وهو راديجيه نفسه - لم يلبث أن مات ، قبل انقضاء ستة أشهر على ظهور قصته ، غير متجاوز العشرين عاما ! .. ورغم ان « أليس » استطاعت أن تثبت لزوجها أن الفتى كان قد سرق مفكرتها الخاصة التى ضمنتها وصف الكثير من المشاهد «الخاصة» بينها وبين زوجها ، وانه استغل هذه الاوصاف كى يضفى على قصته قالب «الحقيقة» .. فان «جاستون» لم يقتنع .. بل ظل يلاحقها باتهاماته ، ويجابهها بين الحين والآخر بفقرة أو بأخرى من فقرات « الشيطان فى الجسد » .. فكانت تصيح به صيحة الضحية اليائسة ، مؤكدة براءتها من التهمة الظالمة ، سيما وان الفتى كان وقت الصلة المزعومة « صبيا » ! .. وعندئذ كانت هواجس الزوج تهدأ ، ويقتنع ، فينعم الزوجان بفترة من السلام والسعادة المغتصبة .. ولكن الى حين ، فسرعان ما كانت تعصف بسكينة البيت نوبة جديدة من نوبات الشك والغيرة !



الزوج « جاستون »
(فى سنة ١٩١٤)

وعاش الزوجان فى هذا « الجحيم » زهاء ربع قرن .. ثم أخرجت قصة « الشيطان فى الجسد » فى فيلم سينمائى عقب الحرب الاخيرة ، فنكأ الفيلم ، وما أثير حوله من ضجة ، جراح الزوجين القديمة .. ولكن « أليس » ظلت مصرة على براءتها .. وانقضت خمس سنوات أخرى ..

حتى رقدت الزوجة على فراش الموت فى سنة ١٩٥٢ ، فكانت آخر عبارة همست بها لزوجها وهى تلفظ أنفاسـها : « ان كل ما كتب عنى لم يكن صحيحا .. فاننى لم أقترف خطيئة ! »

وحدق جاستون فى زوجته المحتضرة ، ولاول مرة .. صدقها !.. ولكن بعد فوات الاوان ، بعد أن دمرت الشكوك حياتها وحياته ، فأشرف هو على الستين ، محطما منهارا ، وعاش كلاهما محروما من طفلهما الذى نشـأ مهملا فى رعاية غرباء ، فأصيب بكساح أقعده وشل حركة ساقيه !

وأخيرا ، فى نوفمبر الماضى أسدل القدر الستار على الفصل الاخير من المأساة ، حين رقد الزوج بدوره يحتضر من « سرطان الدم » ، فكتب الى صديق له يقول : « عندما يصلك هذا الخطاب ، أكون قد لحقت بتلك التى أحببتها ، والتى أحبتنى هى على الدوام .. وآمل أن تلقى هذه القصـة - التى ألحقت بنا كل هذا الشر والاذى - فى زوايا النسيان ! »

ادباء العالم يمجدون القصة !

◆ **لكن** وفاة الزوج جددت الاهتمام بالمأساة ، فجمعت صحيفة « الفيجارو الأدبية » خيوطها جميعا ونشرتها بالتفصيل فى احد اعداد ديسمبر الماضى ، ثم نقلتها عنها مجلة « تايم » الامريكية المشهورة ، ومئات من صحف العالم .. فعاد كتاب « الشيطان فى الجسد » يشغل الاذهان من جديد - بدلا من ان تتلقفه زوايا النسيان كما اشتهى الزوج ! - فتوالت الطبعات الجديدة له بكل لغة ، وبالتالى وضعه النقاد على المشرحة وراحوا يتبارون فى الكتابة عنه ، بل الاشادة به - (فانى لم أقرأ كلمة واحدة فى مهاجمته حتى الآن !) - واليك بعض ما قاله فى الكتاب، ومؤلفه، أكبرنقاد الادب المعاصرين فىالعالم:

اندريه موروا : « سيذكر التاريخ ان مؤلفا شابا من عصرنا كاد يسمو فى انتاجه الادبى الى مستوى اروع قصص الادب الكلاسيكى ! »

الناقد الادبى لصحيفة « نيويورك هيرالد تريبيون » العالمية : « ان الفنان الموهوب « ريموند راديجيه » قد صاغ من فترة المراهقة القلقة الحادة ، المفعمة بصلف الشباب ، أدبا نقيا خالصا .. فيه جمال التجربة الناضجة ، وبساطة الاسلوب الواقعى ! »

الناقد الادبى لصحيفة « نيويورك تايمز » : « .. انها قصة تدل على معرفة ناضجة بالعواطف البشرية ، وموهبة فذة فى الاسلوب الادبى ! »

اما الاديب الانجليزى الكبير **« ألدوس هكسلى »** فقد تحمس للكتاب الى حد ان وضع مقدمة له - فى طبعته الأخيرة - قال فيها : **« ان هذا الشـاب لأعظم نبوغا من (موزار) ! »**

والآن، تعال نقرأ هذا التلخيص المطول للقصة التى أحدثت كل هذه الضجة !

◆ انى أوشك أن أعرض نفسى لكثير من اللـوم والاستهجان ، ولكن ، ما حيلتى ؟.. أكان ذنبى أن بلغت الثانية عشرة من عمرى ، قبيل اعلان الحرب بشهور قلائل ؟.. لا مراء فى أن هذه الفترة غير العادية بعثت فى نفسى اضطرابات لم يقدر لمن هم فى سنى من الصغار أن يعانوها .. فقد خضت ـ وانا بعد صبى ـ مغامرة كان خليقا بالرجال الناضجين ان يجدوا فيها ما يبعث على الحيرة والارتباك .. وليتدبر أولئك الذين سوف يهاجموننى ، ما كان للحرب من معنى لدى كثير من الفتية المراهقين : كان معناها « بطالة »

- ١ -

و « عطلة » دامتا .. أربع سنوات !

كنا نقيم فى بلدة « ف .. » على ضـفاف « المارن » .. وكان أبواى يعارضان ـ الى حد ما ـ اختلاط البنات بالصبية ! ولكن الحساسية الجنسية ـ التى تولد معنا وان عمينا عن مظاهرها ـ أخذت مع ذلك تنمو فى ، وتزداد ، بدلا من أن تخبو وتتضاءل ..

وما كنت أبدا بالفتى الحالم ، بل ان ما كان يلوح لمن يفوقوننى « واقعية »، من قبيل الاحلام ، كان يبدو لى أنا حقيقة لا شك فيها .. تماما كما تبدو قطعة الجبن للقط ، رغم الناقوس الزجاجى الذى يغطيها ! فالناقوس موجود ، وان لم ير القط سوى الجبن .. ولقد يكسر الناقوس ، فيكون القـط هو الرابح .. لاسيما اذا كان السيد هو الذى كسر الناقوس ، وجرح يديه ..

ولا أذكر اننى غازلت قبل أن أبلغ الثانية عشرة ، اللهم سوى بنت صغيرة كانت تدعى « كارمن » ، أرسلت اليها خطاب غرام .. وقدر للخطاب أن يقع فى يد ناظر المدرسة ، الذى هددنى بأن يبعث بالخطاب الى والدى ، فرحت أتوسل اليه أن لا يفعل .. ورضى اخيرا ، على أن يطلع أسرتى على مسلكى اذا أذنبت مرة أخرى !

وكان اجتماع الجرأة والجبن فى أخلاقى ـ على هذه الصورة ـ يضـلل أبوى دائما ويخدعهما .. تماما كما كان هدوئى ـ الذى كان فى الواقع خمولا ـ سببا فى أن أحسب فى المدرسة من الطيبين !.. ولقد أطلق عـلى مدرس الفصل منذ ذلك اليوم اسم « دون جوان » ، على سبيل السخرية .. لـكن ذلك أشعرنى فى الواقع بقدر من الزهو والغرور ، وكأنه كان يطرينى !.. واذا كنت فى الساعة الواحدة من ذلك اليوم ، الذى وقع فيه خطابى الغرامى فى يد الناظر ، قد تضرعت اليه كى لا يشى بى لأبى ، فاننى فى الساعة الرابعـة من اليوم نفسه أفضيت لأبى بكل شىء !.. ولعلنى كنت أهفو الى أن أطلعه على

جرأتى ، لأنى كنت اعرف انه لن يغضب .. بل اننى اضفت ، فى خيلاء ، ان الناظر تعهد لى بالكتمان المطلق ٠٠ الامر الذى أحنق أبى وجعله يسحبنى من المدرسة !

ورأت أمى اننى أصغر من أن أذهب الى مدرسة « هنرى الرابع » الثانوية ، فقد كان معنى هذا ـ فى رأيها ـ أن « أستقل القطار » ٠٠ ومن ثم مكثت فى البيت عامين ، ادرس وحدى ٠٠ وقد تطلعت الى هذه الفترة كمرحلة حافلة بمسرات لا حد لها ، اذ كان فى وسعى أن أؤدى فى أربع ساعات ، ما كان زملائى السابقون فى المدرسة يؤدونه فى يومين ! وقد أتاح لى هذا أن أكون طليقا خلال أكثر من نصف اليوم ، فكنت أنطلق وحيدا الى شاطىء نهر « المارن » ـ الذى كنا نعتبره ملكا لنا ! ـ وكان لأبى زورق ، فكنت أستلقى فيه أحيانا وأنصرف الى القراءة ٠٠ وقد طالعت فى سنتى ١٩١٣ و ١٩١٤ حوالى مائتى كتاب ٠٠

وكان أسوأ ما ترتب على تحررى من القيود المدرسية ، ان لم تعد للعطلات قيمة عندى ، اذ كنت أواصل العمل حتى أثناء العطلات ٠ وما لبثت الواجبات القليلة أن غدت كقطعة الفلين التى تربط الى ذيل القطة لتلازمها طيلة العمر ٠٠ فما من شك فى أن القطة تؤثر ـ لو خيرت ـ أن يربط وعاء ثقيل الى ذيلها شهرا واحدا ، على ان تقيد بالفلينة مدى الحياة !

وكانت نهاية العطلة المدرسية تقترب ، بيد اننى لم احفل بها ، اذ كانت هى والعمل فى نظرى سيان. كانت عينا القط مثبتتين على قطعة الجبن تحت الناقوس .. **ولكن الحرب نشبت ، فكسرت الناقوس .. وشغل السادة بأمور أخرى ، فتركوا القط يرقص طربا ! .. ولو أتيح للحقيقة أن تروى ، لأعلن أن كل امرىء فى فرنسا أحس يومئذ بالطرب .. واستغل التلاميذ الكسالى ما دب فى الجو العائلى من اضطراب وفوضى !**

*

◆ **وأخذ** القتال يقترب من باريس ، حتى صرنا نسمع أصوات المدافع تزأر فى الميدان ٠٠ وفيما كنا نتأهب للفرار ، أنبأتنا الصحف بأنه لم تعد ثمة حاجة لذلك !

وجاء الربيع ، فسنحت لى أولى فرص مصاحبة الجنس الآخر ٠٠ كنت انطلق فى افخر ثيابى ، متأبطا ذراع احدى الشابات ، نبيع الزهور لنجمع التبرعات لضحايا الحرب ٠٠ **وألقت بى هذه الفرص فى أحضان فتاة صغيرة ،**

فكنا نفرغ من جمع التبرعات مبكرين ، ثم نهيم بقية النهار بين السفوح الخضراء فى الريف القريب ..

ولأول مرة فى حياتى ، وجدت صديقا .. كنت أجمع التبرعات برفقة اخته ، وتوثقت بينى وبينه العلاقات .. وكنا نرى اننا وحدنا القادران على فهم كل الاشياء ، واننا وحدنا الجديران بالنساء !.. وكان «رينيه» - وهذا اسمه - طالبا فى مدرسة « هنرى الرابع » ، وفى الفصل الذى قدر لى أن التحق به .. وقد اثبت فى اول ايام الدراسة انه رفيق لا غنى عنه، فأصبحت مشغوفا بتلك الفترة التى كنا نقطع فيها المسافة بين المدرسة ومحطة « الباستيل » ، حيث نستقل القطار فى رواحنا أو نبرحه فى عودتنا ..

وهكذا قضينا ثلاث سنوات ، ولا صديق لى سواه ، ولا مطمح لنا الا ارتقاب حفلات يوم الخميس من كل اسبوع، حين كان ابواه يدعواننا وزميلات شقيقاته الى الشاى ..

وحين يعتدل الجو ، كان والدى يصحبنا الى نزهات طويلة فى الريف .. وفى أحد أيام الاحد - فى ابريل سنة ١٩١٧ - أقلنا القطار الى « لافارين » ، ومنها سعينا على الاقدام الى « أورميسون » . وكان أبى على موعد مع صديق له يدعى مسيو « جرانجييه » وزوجته وابنتهما « مارت » ، فاذا بهم فى استقبالنا فى « لافارين » ، ثم رافقونا فى السير ..

وبدت لى « مارت » مرحة ، ينم اختيارها لثيابها على أنها لا تحفل بآراء الناس فيما يخصها .. وكانت تمسك بيد صبى أعجف ، شاحب ، فى الحادية عشرة من عمره ، عرفت انه أخوها .. ولم ألبث أن أصبحت و « مارت » فى مقدمة السائرين ، وعرفت من حديثها معى أنها تهوى الرسم بالالوان المائية ، فلما أطريت فنها ، ردت فى تواضع .. ورحت أتأملها - محتميا بأن حافة قبعتها تحول دون أن تكشف نظراتى ! - ثم وجدتنى أقول لها : « ما ينبغى ان تعقصى شعرك هكذا ، بل ان الشعر المرسل يلائمك اكثر .. »

وبهت موجسا ، فما تحدثت بهذه اللهجة الى امرأة قط .. ولكن ردها سرى عنى ، اذ قالت وفى أسلوب ردها ما يوحى بأنها هى نفسها لا تقر طريقة تنسيق شعرها : « سل أمى عن هذا ، فأنا لا أعقص شعرى هكذا عادة .. ولكننى كنت فى عجلة لألحق بالقطار .. ثم اننى لا أنتوى خلع قبعتى .. »

وعجبت فى نفسى .. أية فتاة هذه التى تسمح لغلام مثلى بأن يبدى رأيا في شعرها ؟!.. وحاولت أن أتعرف ذوقها في الادب ، فسرني أنها كانت

تعرف « فيرلين » و « بودلير » ٠٠ ولمست شيئا من التمرد والثـورة فى نفسها ، فمع ان والديها كانا قد انتهيا الى ان يدعا لها ميولها الخاصة ،الا ان خطيبها كان يوصيها بأن تقرأ كتبا معينة ، وتعرض عن كتب أخرى ٠٠ ودهشت — فى استياء — اذ علمت أنها مخطوبة ، غير انى ابتهجت اذ تبينت أنهـا أبت أن تطيع الخطيب الذى كان فى السلك العسكرى ، والذى حرم عليهـا أن تلتحق بمدرسة للرسـم ، مما جعلنى — أنا الـذى لم أذهب قط الى تلك المدرسة — أعرض على « مارت » أن أصحبها الى هناك ، زاعما اننى كثيرا ما أتردد على تلك المدرسة ! ثم خشيت أن تكشف أكذوبتى ، فسألتها أن لا تذكر ذلك لأبى ، وتعللت بأننى كنت أهرب من دروس الرياضة البدنيـة وألوذ بمدرسة الرسم !٠٠ واسعدنى ان نشترك معا فى سر نتكتمه ، وعلى الرغم من حياتى ، فاننى احسست بشيء من الاستعلاء ، وازدهانى انها فضلت الحديث معى على تأمل الريف ومناظره ٠٠ وأخيرا جلسنا فى حقول « أورميسون » ، ووددت أن أؤثر على « مارت » وأكسب تقدير أبويها ، بأن أحدثهم عن تاريخ القرية ، لكنى ما لبثت ان خشيت ان يبدد مثل هذا الحديث السحر الذى كان يشملنا ٠٠ فقد وقر فى روعى ان امورا هامة وقعت بيننا — وكـان هذا صحيحا فى الواقع ، وان لم أدركه الا فيما بعد — اذ خيل الى اننى حملت كلماتى الى « مارت » معانى خاصة تعرب عن حبى ، دون أن يرتاب والداها — اذا سمعاها — فى شيء !

وظللت اقـول لنفسى : « ان مارت لا تروعنى فى شيء ، ولولا والدى ووالدها لملت عليها وقبلتها ! » ٠٠ بيد ان غلاما آخر فى اعماقى سره ان لم تتح له هذه الفرصة ، واخذ يقول لنفسه : « من حظى اننى لست على انفراد معها ، فما كنت لأجرؤ على أن أقبلها ، وليس من عذر كان يبرر عندئذ جبنى !» وهكذا يخدع الجبناء أنفسهم !

وبقى لدينا نصف ساعة ، قضيناه فى شرفة أحـد المشارب ٠ وطلبت « مارت » شرابا كحوليا خفيفا ، فحذوت حذوها ٠٠ وكاد ابى لا يصـدق أذنيه ، حتى لقد خشيت أن يسخر منى !٠٠ وقبل أن نفترق ، وعدت «مارت» بأن أزورها فى يوم الخميس التالى لأحمل اليها مجموعتى من احدى المجلات الادبية ، ورواية « موسم فى الجحيم » ٠٠ فقالت ضاحكة : « وهذه رواية أخرى لن تعجب خطيبى ! »

❋

◆ لم أشعر حين التقيت برينيه فى المدرسة فى الصباح التالى ، بحاجة الى أن أروي له شيئا ، اذ لم أكن فى حال تجعلني أحتمل سخريتـه منى

لكونى لم أحاول أن أقبل « مارت » خلسة !٠٠ وأذهلنى أن شعرت فى ذاك اليوم بأن « رينيه » لا يمتاز بشىء عن سواه من زملائى فى المدرسة ، فان الحب الذى أخذت أستشعره نحو « مارت » لم يترك لى قدرا يذكر من الحب أوليه لأصدقائى أو أهلى !

وكنت قد عقدت العزم على أن لا أراها قبل الموعد الذى اتفقنا عليه ، بيد اننى لم أطق انتظارا الى أكثر من مساء الثلاثاء ، وتعللت لنفسى بأن «مارت» سترى فى تعجلى دليلا على حبى !٠٠ واذ بلغت دارها ، خشيت ان تكون منصرفة الى عشائها ، فتريثت وجسمى يقطر عرقا ٠٠ لبثت عند باب الحديقة عشر دقائق رجوت أن يستعيد نبض قلبى خلالها انتظامه ، ولكنه على العكس ازداد سرعة !٠٠ حتى لقد اوشكت ان ارتد عائدا الى دارنا ، لولا ان لمحت جارة تتفرس فى ، مرتابة فى وقفتى ، فدققت الجرس ٠٠ ودخلت البيت !

وحين استقبلتنى « مدام جرانجييه » سألتها عن « الآنسة » وأنا متضرج الوجه ، وقد وددت لو أذكر اننى جئت للآنسة لا لها !٠٠ وزعمت اننى تبينت تعذر حضورى يوم الخميس ، فآثرت ان احمل لابنتها اليوم ما وعدتها به ٠٠

وعلمت أن « مارت » تتناول العشاء فى دار أهل خطيبها - الذى جاء من ميدان القتال فى عطلة قصيرة - فانصرفت وقد عولت على أن أبذل قصارى جهدى كى لا افكر فى « مارت » ، طالما عزت على رؤيتها !

على اننى لمحتها بعد شهر ، ونحن نهبط من القطار فى محطة «الباستيل» ، وكانت فى طريقها لالتقاط بعض الحاجيات من المتاجر - لاقتراب زواجها - فاقترحت عليها أن تصحبنى فى الطريق المفضية الى المدرسة .. على اننى حين بلغناها أشفقت أن أفارقها ، فقررت أن أضحى بالدرس الاول ، وسرنى ان لم تصطنع « مارت » الحكمة فتؤنبنى ، بل بدا لى انها شكرت لى هذه التضحية !.. وحمدت لها انها لم تسألنى أن أصحبها الى المتاجر ، بل انها على العكس منحتنى وقتها بنفس الجود الذى منحتها به وقتى حين عدلت عن الذهاب الى المدرسة .. وكان فى جيبى من النقود أكثر مما يدخره أى تلميذ فى عامين ، فلما أدركت أنها كانت تعتزم تناول الغداء لدى أهل خطيبها ، اعتزمت اغراءها على البقاء معى .. **وجلسنا فى حديقة « اللوكسمبورج » بعض الوقت ، جامدين .. هكذا ينبغى أن تكون السعادة !**

.. ثم نهضت « مارت » أخيرا ، وكأنما هى تفيق من نوم ، فأخذت تحرك أطرافها - ولم أتورع عن تأمل لحمها خلال الثوب الذى التصق بجسدها لطول جلوسها على مقعد الحديقة الحديدى ! - وقالت : « ما دمت قد اعتزمت التخلف عن المدرسة ، فتعال وطف معى بالمتاجر ٠٠ »

وعرجت معها على بعض متاجر الاقمشة ، فكنت أردها عن شراء ما تبغى اذا لم يرق لى .. وكانت تنزل عند رأيى ، فسجلت بذلك أولى انتصاراتى !.. وكانت الخطوة التالية أن أقنعها بأن لا تذهب لتناول الغداء مع أهل خطيبها .. وكنت قد أدركت أنها تهفو الى رؤية مشرب امريكى ، ولكنى حين دعوتها أبت ، وأصرت على الاباء ، فلم ألحف ، بل رافقتها الى دار أهل خطيبها فى سيارة « تاكسى » .. حتى اذا اقتربنا ، نقرت فجأة على الزجاج الذى يفصلنا عن السائق ، تشير له كى يغير اتجاهه ، وهى تقول : « سأتصل بحماتى تليفونيا وأزعم لها اننى فى طرف قصى من المدينة بحيث لن أستطيع أن أصل فى موعد الغداء ..! »

وبينما كانت تفعل ذلك ، لمحت بائعة زهور ، فابتعت لها باقة من الورد الاحمر ، وقد لذ لى أن أفكر فى الاكذوبة التى ستنتحلها « مارت » لتعلل لوالديها فى المساء حصولها على الورد !.. كانت هذه الاكذوبة المرتقبة ، الى جانب تلك التى عمدت اليها حين اعتذرت تليفونيا ، أشهى من القبل — فما سبق لى أن اشتركت مع أحد فى خدعة ، ولكننى كثيرا ما قبلت شفاه البنات الصغيرات فلم أستشعر لها لذة تذكر !

وأخذت « مارت » تحملق فى كل شىء فى المشرب ، كما لو كانت تلميذة صغيرة ، وهى تعب من الورود الحمراء أنفاسا طويلة بين وقت وآخر .. وسألتها أن ترينى صورة خطيبها ، فألفيته فيها وسيما .. واذ لمست ما علقته من أهمية على رأيى ، رحت أبالغ فى اطرائه ، فى لهجة تشعرها بأن مبالغتى ليست سوى مجرد مجاملة !.. ثم انطلقت معها بعد الغداء ، لانتقاء أثاث حجرة النوم .. وشعرت بأن من الأمور التى يرثى لها ان أشترك فى اختيار أثاث حجرة النوم التى ستضمها ورجل سواى .. ثم خطر لى أن أحاول الاختيار كما لو كانت الحجرة ستضمها واياى !.. وسرعان ما نسيت خطيبها أثناء الاختيار ، حتى لقد كنت خليقا بأن أدهش لو أن أحـدا ذكرنى بأن رجلا سواى هو الذى سينام فى الحجرة !.. وكان خطيب « مارت » يود أن يكون الاثاث من طراز « لويس الخامس عشر » .. أما هى فكانت تميل الى الطراز اليابانى .. فكان على أن أكافح رأيين لأفرض رأيى .. واستطعت بعد قليل أن أوحى اليها بسخف ذوق خطيبها .. وأن أقنعها بوجاهة اختيارى ، وأفضليته على اختيارها .. فلما تم لى ذلك ، لم أملك الا أن أهمس لنفسى : « اذا لم تكن تحبنى ، فلماذا تنزل عند رأيى ؟ »

ولم أجد مبررا لذلك بالفعل سوى ما أوحى الى به الغرور ، وهو أنهـا تحبني !.. وقد بدأت أتأكد من ذلك حين قالت لي : « فلنترك له الستائر

الوردية ، على الأقل ! » .. « لنترك له ! » .. أى انها قد تخلت عن كل رغباته الاخرى !.. وشيئا فشيئا ، لم تعد تعترض على ما أملى عليهـا من اختيار .. فهنأت نفسى على ما أحرزت من نجاح فى تحويل طبيعة هـذا الزواج الذى كان يرتكز على الحب ، الى زواج يرتكز على العقل .. ولكن ، أى عقل ؟

وعندما تأهبت لمفارقتى فى المساء ، رغبت فى أن أساعدها فى اختيار بقية الاثاث .. فوعدتها بذلك ، على أن تقسم بأن لا تذكر لخطيبها شيئا عن ذلك !

*

◆ وفى الصباح التالى ، تلكأت فى الشارع حتى جاء موزع البريد يحمل خطاب المدرسة الذى ينبىء أبى بغيابى ، فدسسته فى جيبى !.. وكنت مخطئا اذ زعمت لنفسى أن تخلفى عن المدرسة كان بسبب حبى لمارت .. اذ اننى بعد أن تذوقت فتنة الحرية فى صحبتها ، رغبت فى أن أجربها وحدى .. وغدت الحرية لازمة لى ، كالمخدر للمدمن !

واقتربت نهاية العام الدراسى ، فتبينت - مذعورا - أن كسلى لن يمر دون عقاب .. ولم أكن راغبا فى أن أسبب لأبى حزنا ، ومع ذلك فقد كنت ماضيا قدما نحو الشىء الذى يحزنه !.. ورغم أن المدرسة كانت دائما مصدر عذاب لى ، الا أن «مارت» والحرية جعلانى «لا أطيق» هذا العذاب !.. وفطنت الى سر تضاؤل مكانة « رينيه » من نفسى : كان يذكرنى بالمدرسة ! - مع اننى كنت السبب فى أنه فسد ، وشاطرنى الخيبة - وحين رسب فى نهاية العام وفصل من المدرسة ، توقعت أن يكون هذا عين مصيرى .. فآثرت أن أزجى بنفسى النبأ لوالدى - اذ لم يكن من سبيل الى اخفاء خطاب المدرسة حين يصل فى هذه المرة ! - ولو كان أبى قد رفع صوته وتوعدنى عندئذ ، لثرت وتمردت .. لكنه مكث برهة صامتا ، ثم قال فى لطف يفوق ما عهـدته منـه :

- وماذا تعتزم الآن ؟

وتدافعت الدموع الى عينى - فالمرء فى صغره يميل الى الاعتقاد ، كمـا تفعل النساء ، بأن الدموع عزاء لكل شىء ! - ومع ذلك فان أبى لم يرج منى حتى الدموع ، مما ضاعف من خجلى ، سيما وقد شعرت بأن كل وعد أزجيه له لن يكون سوى أكذوبة !.. كان ما يعوزنى فعلا هو أن أؤدى عمـلا يدع لى مجالا للتفكير فى «مارت» على الدوام .. لذلك قلت لوالدى اننى كنت دائما أهفو الى تعلم الرسم ، فلم ينكر على رغبتى ، بيد أنه اشترط أن أواصل فى البيت الدروس التى كنت أتلقاها فى المدرسة ..

ولاحظت أن استمرار تفكيرى فى «مارت» بلغ بى درجة بدأ فكرى عندها فى الانصراف عنها .. كنت كالذى يحدق فى رسوم ورق الحائط ، فلا يلبث بصره أن يجمد ولا يعود يرى فى الواقع شيئا !.. ومرت أيام ، وخطاب المدرسة المرتقب لم يصل بعد ، الامر الذى أدهش أبى وجعله يسخط على ، ظنا منه اننى تسلمته وأخفيته عنه !.. لكن الخطاب وصل أخيرا ، فاذا هو على العكس مما توقعت : كان الناظر يتساءل عما اذا كان أبى يبغى ادراج اسمى للعام الجديد ، فى السنة الدراسية « التالية » ؟

- ٢ -

◆ وفى احدى أمسيات نوفمبر ـ بعد شهر من تسلم الاسرة الدعوة الى زفاف « مارت » ـ عدت الى المنزل فوجدت فى انتظارى دعوة منها ، بدأتها بقولها : « لست أفقه سر صمتك .. لم لا تأتى للقائى ؟.. لعلك نسيت انك أنت الذى انتقيت لى أثاثى ! »

وكان مسكنها فى شارع يفضى الى نهر « المارن » ، وتحف به « الفيلات » الصغيرة .. وكانت تقيم فى دار ذات طابقين ، شغلت هى الطابق الاعلى منهما ، بينما شغل أصحاب الدار الطابق الاسفل ..

وحين بلغت الدار كان الظلام قد بدأ يرخى سدوله ، فلاحظت أن ليس فى مظهر الطابق العلوى ما ينم عن وجود أحد فيه .. ثم لمحت وهج نار فى احدى النوافذ ، فخشيت أن يكون ثمة حريق .. ونفذت الى الحديقة .. وضغطت زر جرس الطابق الاسفل ، ففتحت لى امرأة عجوز سألتها عن « مدام لاكومب » ـ كما أصبحت « مارت » تدعى ـ واذ ذكرت المرأة انها فى الطابق العلوى ، أخذت أصعد السلم فى الظلام متعثرا .. وفتحت لى «مارت» الباب بنفسها ، فكدت ارتمى على صدرها ـ كما يفعل الناجون من الغرق ولو لم يكن بينهم تعارف ! ـ ولم تدرك ما بى ، بل خالتنى مضطربا لامر يخصنى ، وحين سألتها عن الحريق قالت : « لقد أشعلت فى الموقد نارا ـ وأنا أنتظرك ـ ورحت أقرأ على ضوئها .. »

واستلقت « مارت » على الارض تحرك جمرات النار ، وهى تقول انالوقود من خشب الزيتون الذى أهداها أهل زوجها كمية منه .. ولم يبد لى وجهها الهادىء ، أجمل مما بدا تحت الوهج المعربد .. ووجدتها مختلفة عما كنت أصورها فى أفكارى : فبعد أن كنت أخال اننى لا أحبها ، تبينت اننى فى الواقع قد بدأت أشغف بها .. ولكننى ألفيتنى عاجزا عن تلك المناورات التى كنت أظن أن لا غنى للحب عنها ! ثم شعرت فجأة بحبى يتحول الى شعور

من « الصداقة » العذبة ، التى نبهتنى الى ما فى أية عاطفة أخرى من اجرام !.. وهل من جرم نحو « مارت » أبشع من ايذاء الرجل الذى أحبها ، وأصبحت تنتمى اليه .. والذى لم يكن يراها !

وشعرت بالعجز عن اتيان أى شىء مما كنت أعتزم ، فلقد عقب اشتهائى لها ، شعور رقيق ، عميق .. شعور « بالاحترام » !

وأخذت أتردد عليها فى كل صباح ، دون أن يخطر لى أن أسـألها أن ترينى غرفة نومها ! لم أشته أكثر من أن تدوم هذه الصداقة الخالدة .. كنا نستلقى على الارض أمام المدفأة ، وجسمى يمس جسمها ، فلا أجسر على أتفه حركة .. خشية أن تذعر السعادة فتفر !

ولكن « مارت » كانت تؤول سعادتى وكسلى على أنهما « عدم اكتراث » . وظنت أننى لن ألبث أن أملها ، ما لم تجتذبنى اليها !

وكنت أشعر أننى أقرب ما أكون اليها ، وأنا أدرك اننا كنا نفكر معا فى أمور واحدة ، قد تبدو سخيفة اذا خرجنا بها من نطاق التفكير الى الكلام .. بيد أن هذا الصمت كان أكثر مما تحتمل المسكينة ، فتوهمت اننى كنت أزداد ضجرا يوما بعد يوم .. وكانت هى على استعداد لان تذهب الى أقصى مدى لتنتشلنى من هذا الضجر .. فكانت تحب أن تنام — أو لعلنى كنت أظنها نائمة — أمام النار ، وقد أطلقت شعرها ، لتنتحل عذرا كى تحيط عنقى بذراعيها !.. وكنت أنتهز فرصة هذا التناوم ، لأتشمم شعرها ، ونحرها ، وخديها ، لا أجرؤ على مسها .. خشية أن تستيقظ !.. وخيل الى أننى قد أستغنى عن الحب ، ولكنى لا أستطيع أن أستغنى عن أن يكون لى فى « مارت » حق .. وأن أمضى فى سبيل هذا الى أبعـد الحدود .. كنت أشتهى « مارت » دون أن أدرى !

وكانت تنام ورأسها على ذراعى ، فأنحنى أتأمل وجهها على وهج النار .. وذات يوم اشتد انحنائى عليها ، ومع ان وجهى لم يلمس وجهها ، الا أننى شعرت كأننى ابرة تجاوزت نطاق دائرة مغناطيسية ، بملليمتر واحـد .. فأيهما يلام ، المغناطيس أم الابرة ؟ .. وهكذا ألفيت شفتى على شفتيها .. وكانت عيناها مغلقتين ، ولـكن لاح لى انهـا ليست نائمة فقبلتها ، وأنا واجف لجرأتى ، وان كانت هى التى جذبت رأسى فى الواقع الى فمهـا ، وتعلقت يداها بعنقى كغريق يستميت فى سبيل النجـاة .. ولم أدر أكانت تنشد أن أنقذها ، أو أن أغرق معها ! ؟

ثم استوت جالسة ، وراحت تعبث بشعرى ، وهى تقول فى رفق آنا بعد آخر : « يجب أن تنصرف فلا تعود قط ! » .. وافلتت دموعى منى ،

فسقطت احداها على يدها .. ورحت ألوم نفسى اذ حطمت السحر الذى كنت أحظى به حين جننت فقبلتها - ونسيت انها هى التى قبلتنى ! - وراحت تكرر عبارتها : « يجب أن تنصرف فلا تعود قط ! » .. وامتزجت دموع الغضب بدموع الاسى فى عينى .. وخشيت ان تكلمت أن أولمها ، ولكن صمتى أقلقها .. وأخيرا قلت فى عناد : « لا لن أنصرف .. انك كنت تعبثين بى .. قط لن أرغب فى أن أراك ! »

وعندئذ انخرطت فى البكاء ، وقالت : « انك طفـل !.. لا تفهم اننى لا أسألك أن تنصرف الا .. لاننى أحبك ! » .. فأجبتها قائلا اننى أقدر احترامها لما عليها من واجبات نحو زوجها الغائب فى الحرب !.. فهزت رأسها قائلة : « كنت أظن قبـل أن أعرفك اننى أحبه .. أنت الذى نبهتنى الى اننى لم أحبه !.. ليس واجبى ما تخال ، ليس واجبى أن لا أكذب على زوجى ، وانما هو فى أن لا أكذب عليك .. اذهب ، ولا تحسبنى امرأة ماجنة .. لست أريد أن أدمر حياتك .. اننى أبكى لاننى أكبرك سـنا بكثير ! »

وكان هذا هو السمو فى الحب .. ومهما كانت العواطف المشبوبة التى اعقبته ، فاننى قط لم احظ بعد ذلك برؤية شابة فى التاسعـة عشرة من عمرها ، تبكى لانها .. كبيرة السن !

وكان طعم القبلة الاولى أشبه بأول قضمة من فاكهة يتذوقها المرء للمرة الاولى ، وهو موجس !.. لكنى لم ألبث بعد لحظات أن شعرت بأننى لم أستمرىء فم « مارت » فحسب ، بل اننى لم أعد أستغنى عنه !.. ألا ما أبهى اللعبة التى يحصل عليها الطفل لنفسه بنفسه ! لقد أسكرنى الوجد ، فلقد باتت « مارت » ملكى - ألم تقل هذا بلسانها ؟ - نعـم ، باتت ملكى ، أستطيع أن أتحسس وجهها ، وأن أقبل عينيها ، وذراعيها .. أن ألبسها ، وأن أعريها ، وفق ما تملى أهوائى ونزواتى ! .. بل لقد عضضتها - فى غمرة فرحتى - فى كل جزء عار من جسدها ، حتى ترتاب أمها فى أن لها عشيقا !.. كنت أريد أن أدمغها باسمى ، وقد اتجهت وحشيتى الصبيانية الى ما كان يرمى اليه الانسان القديم من فكرة الوشم !

*

وأصبحنا نقضى الوقت فى القراءة على وهج نار المدفأة .. وكانت تطوح بالخطابات التى كان يرسلها زوجها اليها يوميا ، الى النار ، بعـد قراءتها - وكان قلقه قد نبهه الى أن حرارة خطاباتها قد بدأت تخبو ! - وأخذت تسألنى عما اذا كنت حقا قد أحببتها منذ لقائنا الاول ؟.. وتلومنى

لاننى لم أكاشفها بذلك فى الوقت المناسب ، كيما تتفادى الزواج من « جاك » !.. لا سيما وان طول غيابه ، أثناء الخطوبة ، كان قد محا حبه من قلبها – فى الوقت الذى كان هو فيه يزداد شغفا بها – وكانت خطاباته تنم عن أنه يتعذب ، ولكنه ينزه المرأة التى يحبها عن كل خيانة !

وكان الربيع قد أقبل مبكرا فى مارس من ذلك العام .. وكنت أذهب الى مدرسة الرسم فى باريس أثناء النهار ، فاذا عدت وجدتها فى انتظارى، عارية الا من غلالة رقيقة ، وقد استلقت أمام المدفأة .. ولست أدرى أية قوة كانت تصدنى عن أن أتخذها خليلة ، اللهم الا اذا كانت من قبيل ذلك الاحجام الذى يراود الانسان اذا واجه شيئا لا قبل له به ! .. فقد كنت فى كل يوم اذهب الى دارها وأنا أعتزم أن لا أبرحها حتى أنالها ! ولكننى أنتهى الى التقلب على فراشى فى الليل وحيدا ، وأنا أهتف باسمها ، وأزدرى نفسى لاننى لم أثبت رجولتى !

وفى عيد ميلادى السادس عشر – فى مارس سنة ١٩١٨ – أهدتنى « مارت » جلبابا للنوم يشبه جلبابها ، وسألتنى أن أرتديه كلما كنت معها .. فهزنى هذا ، اذ كنت أخال أن الفضل فى كبح شهواتى حتى ذلك الحين ، كان يرجع الى احتفاظى بثيابى كاملة كلما لقيتها ، وان تجردت هى من الثياب !

وكان ذلك اليوم من أيام السبت ، فغادرت « مارت » على أن أعود فى اليوم التالى ، وان أسررت فى نفسى أن أرجع فى نفس الليلة ! – اذ كان معى مفتاح للمسكن – ومن ثم أنبأت والدى بأننى سأنطلق فى الساعة الخامسة من الصباح التالى مع « رينيه » فى رحلة الى غابة « سينار » .. وكنت مطمئنا الى أن أحدا لن يفطن الى موعد خروجى ، لان جميع من فى البيت سوف يكونون مستغرقين فى النوم فى هذا الموعد !.. ولشد ما غاظنى أن أصرت أمى على أن تعد لى ولصديقى طعاما تملأ به سلة أحملها .. وساءنى أن تفسد هذه السلة شاعرية المغامرة .. وتصورت جزع « مارت » حين ألج مخدعها على غير انتظار ، ثم ضحكها حين ترى « أمير أحلامها » يحمل سلة طعام فى ذراعه !

ولكن لم يكن ثمة مفر من الانصياع ، فعولت على أن أخبىء السلة فى مكان أمين .. وكنت قد أقسمت لنفسى أن لا أبرح البيت قبل منتصف الليل ، حتى أستوثق من نوم والدى .. ولكنهما كانا قد لاذا بمخدعيهما حين آذنت الساعة العاشرة .. وكانت غرفتهما فى الطابق الاول ، وغرفتى فى الطابق الارضى ، فلما لم أطق صبرا ، حملت حذائى فى احدى يدى ،

والسلة فى اليد الاخرى ، وفتحت باب المطبخ فى حذر .. واذا المطر ينهمر ! لا بأس ، انه كفيل بأن يغطى صوت حركتى ، وان اضطرنى الى أن ألبس حذائى .. وتسلقت سياج الحديقة ، فاذا بحجر يهوى على الارض .. وضاعف الخوف من وقع صوت الارتطام فى أذنى ، فأسرعت أقفز الى الشارع ، واذا بى أحط فى بركة ماء !.. ووقفت دقيقة أتطلع الى نافذة غرفة والدى .. كان الضوء ينبعث منها ، ولكن أحدا لم يظهر فيها ..

وفى طريقى الى بيت « مارت » ، تحينت غفلة من الحارس القائم على الجسر المفضى الى بلدة « ج ... » ، وأخفيت السلة فى دغل قريب ، وأنا أرتجف خوفا ، كأنما كنت أدس مادة ناسفة !.. ووجدت باب الحديقة مغلقا ، لكنى كنت أعرف مكان المفتاح .. ثم اجتزت الحديقة على أطراف أصابعى ، وصعدت السلم حافيا .. ثم أدرت المفتاح ببطء فى قفل باب المسكن ، وأنا أشفق على « مارت » من أن تخر مغشيا عليها من الرعب !.. ولم أجسر أن أوقد النور ، خشية أن أخطىء فأضغط أحد أزرار الجرس ، فتلمست طريقى فى الظلام الى المخدع ، حتى اذا بلغته توقفت .. وتمنيت لو أعود من حيث أتيت !.. قد لاتغفر لى « مارت » هذه الجرأة .. أو ، ماذا لو تبينت فجأة انها كانت تخدعنى ، وألفيت معها رجلا !

وفتحت الباب وهمست : « مارت ! » .. فأجابت : « كان خليقا بك أن تنتظر حتى الصباح ، بدلا من أن تخيفنى .. اذن فقد حصلت على عطلتك قبل موعدها بأسبوع ؟ »



كانت تحسبنى « جاك » ! .. ولما تبينت ما أعدت للقاء زوجها من فتور ، اكتشفت انها أخفت عنى انه كان عائدا بعد اسبوع ! .. وأضأت النور ، فظلت مولية الحائط وجهها .. فقبلت عنقها .. وقالت دون أن تستدير : « اذهب فجفف وجهك .. »

ثم التفتت .. فصرخت .. وتغير مسلكها تماما فى لحظة ! وبدون أن تتساءل عن سر وجودى ، هتفت : « يا حبيبى المسكين .. اخلع ثيابك بسرعة قبل أن يصيبك برد ! »

وكنت أرهب اللحظة التى لا بد لى فيهـا من أن أخلع ثيابى ، فحمدت للمطر أن أضفى على هذه اللحظة لونا من عطف الامومة .. وأخيرا ، صرت فى الفراش عاريا ، تحت الاغطية .. فراحت تؤنبنى على جنونى ، ونهضت فأحضرت لى ثوبا للنوم ، من ثياب جاك !.. وسألتها أن تطفىء النور ، فقد كنت أخشى أن يعاودنى الجبن ، وأنا بين ذراعيها ، ولكنها قالت فى لطف : « لا .. بل أريد أن أراك وأنت تستسلم للنعاس ! »

وأخذت بكلماتها .. رأيت فيها ما تكنه لى هذه المرأة التى جازفت بكل شىء لتصبح عشيقتى !.. لقد ظللت أربعة أشهر أكرر لها اننى أحبها ، دون أن أقدم الدليل الذى يقدمه الرجال عادة فى شوق وسخاء ، والذى كثيرا ما يكتفون به دون الحب ذاته !.. واذ تخلصت من مخاوفى الاولى ، تزاحمت فى ذهنى مخاوف أخرى .. فأخذت أرتجف وقد تبينت مدى ما ناله زوج « مارت » ، وما فوته على نفسى من جراء خجـلى وجبنى !.. (على أننى لم أزدد معـرفة بملاذ الحب الا فى الايام التالية – وان عرفت معها فى الوقت نفسه مرارة اللوعة .. لوعة الغيرة ! – فلعنت الرجل الذى أيقظ جسدها قبلى .. وفكرت فى غبائى اذ حسبت « مارت » عذراء ! واستبشعت ما كنت أتمناه من موت زوجها ، بحجة أنه لو لم يتزوجهـا ، لما استسلمت له ، فانها لولا ذلك ما كانت لتجسر على أن تستسلم لى !.. بل لولاه ما استطاعت أن تقارن بينى وبينه !)

وانخرطنا فى البكاء .. فقد كنا طفلين ، لا نملك سبيلا ولا وسيلة كى يستبقى كل منا الآخر لنفسه ، دون أن يجرؤ ثالث على أن يفرق بيننا !.. وشرحت لى « مارت » سر اشفاقها من كونها تكبرنى فى السن : ففى خلال خمس عشرة سنة ، تكون الحياة فى بداية تفتحها لى ، فتتهافت على حبى نساء يصغرنها !.. « ولن يبقى لى سوى العذاب .. لسـوف يقتلنى هجرانك .. وحتى لو بقيت معى ، فسوف يضنينى أن أراك تضـحى بسعادتك من أجلى ! »

وأرهقتنا هواجسنا ، أكثر مما أنهكتنا نزوات الجسد فى تلك الليلة .. وباغتنا النوم أخيرا ونحن عاريان .. وخشيت أن يصيبها برد ، فلمست جسدها ، واذا به كالنار !

*

◆ **وبينما** كنا نحتسى « الكاكاو » بعد يقظتنا فى السـاعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، دوى رنين الجرس .. وخطر ببالى « جاك » ، لكنى لم أخش أن يقتلنا ، ما دمنا سنموت معا !.. أما « مارت » فلم

تتحرك ، بل همست : « صه ! لا بد أنها أمى .. لقد نسيت أن اليوم الاحد ، وانها لا بد أن تزورنى بعد القداس .. »

ودوى رنين الجرس مرتين أخريين .. ثم سمعنا باب الحديقة يغلق ، بعد حديث أدركنا أنه دار بين مدام «جراجييه» وأصحاب البيت .. وامتزج فى نفسى الزهو والاسى ، وأنا أشهد ألم « مارت » اذ تضحى بلقاء أمها من أجلى !

واذ لم تبق أمنية لم أنلها ، بدأت أشعر بقلبى يقسو عليها شيئا فشيئا .. فلقد أقلقنى أن تكون « مارت » قادرة على الكذب ، حتى على أمها !.. ولذ لى أن أمعن فى قسوتى عليها ، حتى أراها تعض شفتها والدموع تترقرق فى عينيها !.. وعز على أن أشرح لمارت ان هذه القسوة انما كانت دليـــل تضاعف حبى ووجدى !

وبعد قليل دست خادم أصحاب البيت رسالتين تحت الباب ، وكانتا من « جاك » ، فسألتنى « مارت » عما أريدها أن تفعـله بهما .. وكأنما أرادت أن تبدد شكوكى ، فمزقت أحد الخطابين قبل أن أجيبها .. ولكن هذا دعانى الى أن أؤنبها من جديد ، واضطررتها الى قراءة الخطاب الثانى .. وما أن فعلت حتى صاحت : « لقد كافأتنا السماء اذ لم نمزق هذا الخطاب، ففيه يخبرنى جاك بأن العطلات قد ألغيت وانه لن يستطيع أن يأتى قبل شهر ! »

وخرجنا فى الساعة الخامسة نتمشى على ضفة « المارن » .. ولم يجرؤ معارف « مارت » الذين صادفونا على أن يحيوها .. أما هى فلـــم تحفل بشىء ، وراحت تحييهم !.. ورغبت فى أن نواصل السير حتى « لافارين»، ثم نتناول العشاء فى « ايل دامور » ، (جزيرة الحب !) .. وحين عدت الى دارنا فى الساعة التاسعة والنصف مساء ، رحت أروى لوالدى قصصا من الخيال عن رحلة اليوم .. وفجأة ، قاطعتنى أمى ساخرة : « لقد جاء رينيه يسأل عنك بعد ظهر اليوم ، وشد ما دهش اذ علم انه يتنزه معك !»

وامتقع وجهى .. ودلتنى هذه « القفشة » وكثيرات غيرها على أننى لا أصلح للكذب .. ولم يزد والدى على ما قالته أمى !.. والواقع ان أبى كان مشجعا لى فى غرامى الاول هذا ، دون أن يفطن ، فلقد كان يخشى دائما أن أقع فى قبضة امرأة خبيثة ، لذلك ارتاح اذ علم اننى وقعت فى هوى فتاة طيبة .. ولم يكن يعارض الا حين يسمع أن « مارت » تبغى الطلاق ! .. أما أمى ، فلم تكن تشاطره نظرته الى هوانا . .فلقد رأت فى «مارت»

غريمة لها ، فأخذت الغيرة تحملها على كراهيتها .. وكانت تعجب من تعلق « مارت » بصبى فى مثل سنى !

وفى مثل بلدتنا الصغيرة ، لا تلبث الشائعات أن تنتشر .. لذلك لم يلبث أقرانى أن انفضوا من حولى ، بايعاز من أهلهم !.. وتألمت أمى لهذا ، وأصبحت ترى اننى ضحية جنون امرأة .. ولكنها كانت ترى ان الامر لابى ، وما دام لم ينبس ببنت شفة ، فقد لاذت هى بالصمت !

- ٣ -

◆ **وأصبحت** أقضى كل ليلة مع « مارت » : أوافيها فى العاشرة والنصف مساء ، وأفارقها فى الخامسة صباحا .. ولم أعد بحاجة الى أن أتسلق الاسوار !.. واذا كان أحد فى بيتنا لم يرتب أو يشك فى أننى كنت أبرح الدار فى الليل ، لكن الحال لم يكن كذلك فى دارها هى ، حيث أخذ صاحبا البيت العجوزان يرمقاننى فى غير ارتياح !.. بل ان الشائعات كانت قد جعلت « مارت » خليلتى ، قبل أن تصبح كذلك فعلا !.. ولم نحفل بذلك فى البداية ، بيد أننا اضطررنا أخيرا الى أن نفتح أعيننا ، فقد وجدت « مارت » ذات يوم – حين وافيتها – فى حال سيئة ، اذ كان صاحب البيت قد أطلعها على علمه بما بيننا .. وشكا من أنه وزوجته لم يعودا يحتملان الضجة التى تحدث فى مخدع « مارت » ، الذى يقع فوق مخدعهما ! .. وانهارت « مارت » ، وودت لو تفر من البيت ! .. ولاول مرة بدأت تدرك أمورا كانت من قبل تحيرها : من ذلك أن صديقتها الوحيدة – وكانت فتاة سويدية تدرس فى باريس – قاطعتها فلم تعد تزورها أو تكتب اليها !

وما زلت بمارت حتى وعدتنى بأن تصمد لاية عاصفة تهب .. فان الشائعات، وتهديدات صاحب البيت ، قد أفسحت مجالا لان يدب النزاع بينها وبين « جاك » اذا ما جاء فى العطلة .. ورجتنى « مارت » أن آتى لزيارتها أثناء تلك العطلة ، ولكننى أبيت ، واكتفيت بأن تكتب لى كل يوم .. الى أن يرحل زوجها !

وأدهشنى أن غيرتى من « جاك » لم تكن لاذعة موجعة ، فقد بدأت أتقبل وضعه منا – بصفته « الزوج » ! – وهو الوضع الذى كان يجعلنى أنسى شبابه ، وأتصوره عجوزا ، واهنا .. وحين جاء فى فترة عطلته ، استغللت هذه الفرصة لأتظاهر أمام والدى بأن تعلقى بمارت قد فتر .. ولكننى نسيت يوما أحد خطاباتها على مكتبى ، فافتضح تظاهرى !

وأخذ فكرى خلال العطلة ينصرف بعض الشىء عن « مارت » .. لم يكن يعذبنى سوى ذلك الصوم الذى فرض على حواسى .. كنت كمدمن التدخين حين يحرم من السيجارة !.. وكان صديقى « رينيه » قد اعتاد أن يسخر من الحب المشبوب الذى كنت أكنه لمارت ، ولو أنه كان هو الآخر على علاقة بامرأة اسبانية ، يزهو بأنه لم يكن يحبها ، وانما يستغل تعلقهـــا به !.. **وشاء مرة أن يختبر وفاءها له ، فأغرانى على أن أقوم بهذا الاختبار ، فأحاول اغواءها !.. فبهت لهذا الطلب منه ، وعاودنى خجلى وجبنى .. لكن المرأة لم تدع لهذا الخجل أو الجبن سبيلا ، اذ كانت مغازلاتها لى من الجرأة والاغراء بحيث جعلتنى لا أرعى حرمة سواء لرينيه أو لمارت !.. وكنت آمل أن أحظى بشىء من المتعة ، ولكنى تبينت اننى كنت كالمدخن الذى اعتاد نوعا معينـا من السجاير !**

ولم أشعر بندم على هذه المغامرة ، فيما يتعلق بوفائى لمارت ــ وان حاولت ذلك ! ــ على أن هذه الخيانة ساعدت على اذكاء حبى ..

✽

◆ **لم يستطع** « جاك » أن يدرك سر التغير الذى طرأ على زوجته ، التى لم تعد تتحدث اليه الا لماما ــ وقد عهدها ثرثارة ! ــ بل ان المسكين لقى من « مدام جرانجييه » عنتا ، اذ ألقت عليه مسئولية التغير الذى أصـاب ابنتها ، وأصرت على أن تعود « مارت » الى دار أبويها ، لتعالج الام هذا التحول فيها .. ووافق « جاك » أخيرا .. وما درت « مدام جرانجييه » أنها بذلك شجعت حب ابنتها لى ، فان « مارت » أصرت على أن تنام فى الغرفة التى كانت لها قبل الزواج ، وأبت على « جاك » أن يشاطرها الغرفة التى عرفتها بكرا عذراء !.. وأخذت أمهـــا تعلل ذلك للزوج الحائر والاب المستاء ، بأنهما لا يفقهان شيئا عن نفس الانثى الرقيقة .. وان تمنـــع « مارت » على زوجها انما يرجع الى سمو عواطفها !

ولقد مرت بى أوقات ، كان يروعنى فيها تصور الشر الذى كنت مبعثه .. على أنه لذ لى مع ذلك أن « مارت » ظلت تتمنع على « جاك » حتى انتهت عطلته ، ورحل كسير الفؤاد !.. وفى اليوم الذى رحل فيه ، أصرت « مارت » على أن تعود الى مسكنها .. ومرة أخرى عللت « مدام جرانجييه » لزوجها تصرف ابنتهما على أنه لون آخر « للقلق النفسى » !

ووافيتها فى اليوم ذاته .. على أننى لم أكد أطلع بعد أيام على أول رسالة بعث بها زوجها اليها عقب سفره ، حتى جزعت .. اذ كتب يقول انه غدا

من السهل عليه ـ بعد أن تبين ان ((مارت)) لم تعد تحبه ـ أن يورد نفسه موارد الهلاك !.. ولم أستسغ هذا اللون من ((الابتزاز العاطفى)) ، بل رأيت نفسى مسئولا عما قد يصيب المسكين من سوء ، وقسرت ((مارت)) على أن تكتب اليه متلطفة .. حتى لقد توليت بنفسى املاء الخطابات الرقيقة الوحيدة التى تلقاها ((جاك)) من زوجته .. فكانت تكتبها وهى تبكى متمردة! .. وكان عزائى اننى كنت مصدر السرور الوحيد الذى نعم به ((جاك)) منذ زواجه ، فأخذت خطاباته تنضح بالامل .. من جديد !

✣

◆ **وأعقبت** ذلك فترة هانئة .. بيد أن الشعور ظل يراودنى بأن كل هذه السعادة كانت موقوتة ، مرهونة باعلان السلام ، وعودة الجنود من الميدان .. وعندئذ ، لن يكون لى أمل الا اذا طرد جاك زوجته بعد عودته ، فصارت لى .. أما اذا استبقاها ، فقد كنت أدرك اننى عاجز عن انتزاعها منه عنوة !

وبدأت ((مدام جرانجييه)) ترتاب فى أمر ابنتها ، سيما وان ((مارت)) كانت ترفض بإباء أن تستعين بخادم !.. ثم ، أعلنت ضاحية ((ج..)) الحرب على وعليها .. فقاطعها صاحب البيت وزوجته ، وأخذ الجيران يشيحون عنها فى الطريق ! .. ولم يبق على علاقتهم بها سوى التجار والباعة ، لاسباب لا تخفى .. ومن ثم كانت ـ فى تلهفها الى أن تجد من تتحدث معه ـ تتلكأ اذا ما خرجت لشراء شىء .. وكان تأخرها عن العودة يثير مخاوفى ، خشية أن يكون قد مسها ضر ، فأنطلق مهرولا .. حتى اذا وجدتها فى متجر ، طغى خوفى على أعصابى فأنفجر ثائرا .. ومن ثم كرهنى جميع الباعة والتجار !

وحدث أن جاء ابن صاحبى البيت فى عطلة ـ وكان فى الثانية والعشرين من عمره ـ فدعته ((مارت)) لتناول الشاى .. وفى المساء تصاعدت الينا من الطابق الاسفل أصوات غامضة .. حتى اذا كان الصباح التالى ، التقينا بالشاب فى الحديقة فاذا به يعرض عنا ويتجاهل تحيتنا !

وكانت هذه الامور تجرح شعور ((مارت)) المرهف ، وتؤلم نفسها الحساسة .. سيما وقد تمادى صاحبا البيت فى مضايقاتهما لنا ، حتى لقد أقاما يوما حفلة اوجهاء البلدة ، ودبرا الخطة بحيث أجلسا ضيوفهما تحت مخدعنا ، فى ساعة الغروب ، ليسمعوا كل حركة أو سكنة تصدر منا !

ولكن شاء الحظ أن نفطن الى الفضيحة التى دبرت لنا .. فمرت ساعة ، واثنتان ، وفضول الضيوف على أشده ، دون أن يجدوا له ارضاء .. حتى اضطروا فى النهاية الى الانصراف ساخطين على مضيفيهم ، متهمينهما بالتجنى والخوض فى سير الناس بالباطل ، واختلاق شائعات السوء !

وما ان أوى الزوجان الى مخدعهما فى المساء ، حتى سنحت لى فرصة الانتقام ، فلم أدعهما يذوقان للنوم طعما !.. وازدادت بذلك كراهيتهما لنا ، ولكنهما لم يملكا ما يفعلانه ضدنا ..

- ٤ -

◆ **وأقبل** شهر مايو ، واقترب الامتحان ، فقلت زياراتى لمارت ، ولم أعد أقضى الليل كله معها ، الا كلما اهتديت الى أكذوبة معقولة تنطلى على أهلى .. وأذهلنى نجاح أكاذيبى ، ولو ان الواقع أن أبى لم يكن يصدقنى ، وانما آثر أن يغمض عينيه ، على شريطة أن لا يعرف اخوتى والخدم شيئا !.. وكان يثور أحيانا ، ويؤنبنى على كسلى واهمالى دروسى .. لكن العمل أكبر مزاحم للحب ، والحب لا يقبل مزاحما ، ولا عذولا !.. كذلك هو لا يقبل أى تغاض من الجانب الآخر ، فتجد العاشقة تقبل حبيبها فى عنقه اذا انهمك فى كتابة رسالة ، لتجتذب انتباهه اليها .. وأذكر اننى ما رغبت يوما فى أن أحتضن « مارت » بقدر ما كان ذلك يحلو لى وهى منصرفة عنى الى بعض الاعمال !

ولم يكن شغفى المتهوس بأن أنال منها ما لم ينله جاك ، وأن أقبلها فى أماكن تقسم أن لم تمسها غير شفتى ، سوى مجرد طيش ومجون .. فهل ترانى اعترفت بذلك لنفسى ؟ ان لكل حب مرحلة « شباب » ، ونضوج ، وشيخوخة ، فهل كان حبى قد بلغ مرحلته الاخيرة حين أخذ ينشد ألوانا من النزوات الخليعة ؟.. كلا ، بل ان تلك النزوات كانت تذكى فى الواقع هواى وتلهبه !.. ومن ثم كنت فى الليالى التى لا أبيتهـا مع « مارت » ، أصحبها بعد العشاء فى نزهة فى قارب أبى ، فأستمتع بها فى عرض «المارن» .. أو نربط القارب الى الضفة اليمنى ثم نستلقى فى حقول القمح ، والنسيم يهز السنابل حولنا .. وكانت أنانيتنا تنسى فى هذا المخبأ كل حرمة وكرامة .. وكما ضحينا بجاك ، كنا نضحى بالقمح في سبيل ارضاء حبنا !

*

◆ على اننى ما لبثت أن بدأت أستمرىء الشعور بالوحدة فى فراشى ٠٠ كنت قد خبرت أهوج لذاذات الحب ، فلم أعد أستسيغ ما بقى من متعة ٠٠ وكنت أبرر لمارت تجنبى قضاء الليل معها ، بحجة حرصى على انتهاج مسلك حكيم ، حذر ، فكان ذلك يزيدها اعجابا بشخصيتى !.. وكنت ألوم نفسى على افراطى فى لومها وانتقادها ، وأقضى أياما أسائل نفسى : أما زلت أحبها حقا كما اعتدت ؟٠٠ وأخذت لذاتى وآلامى تقوى فى آن واحد ٠٠ كانت الرغبة تتملكنى فجأة ـ وأنا راقد الى جوارها ـ فى أن أكون وحيدا فى سريرى بدار أهلى ٠٠ ومع ذلك ، فقد كنت لا أطيق أن أتصور الحياة بدون « مارت » !

وكنت آخذ عليها انها انصاعت لارادتى فى اختيار أثاث بيت « جاك » قبل أن يولد حبنا .. وغدا هذا الاثاث قذى فى عينى ، فسئمته دون مبرر !

٠٠ وفى أوائل يونيو ، تلقت « مارت » رسالة من « جاك » بأنه مريض ، وأنه تقرر ارساله الى مصحة « بورج » ، وسيمر بالبلدة فى طريقه اليها بعد يوم أو اثنين .. ثم سأل مارت فى الخطاب أن تترقب القطار كى ينعم برؤيتها خلال الدقائق التى يمكثها فى المحطة ٠٠

وترقبت المسكينة أوامرى ـ فقد أحالها الحب الى جارية مسلوبة الارادة ! ـ لكننى لذت بالصمت .. ولم أذهب الى دارها فى اليوم التالى .. فلما كان اليوم الذى أعقبه ، أقبل على دار أبى رسول منها يحمل دعوة لى كى أوافيها عند ضفة النهر « ان كان قد بقى فى قلبى نحوها قسط من الحب ! »

وخففت مسرعا اليها .. وسرى الفتور الذى تلقتنى به ـ والذى جاء على العكس من لهجة رسالتها ! ـ مسرى الريح الجليدية فى قلبى ، حتى خيل الى أنها لم تعد تحبنى .. ولكن الواقع أنها أساءت فهم صمتى ازاء خطاب زوجها ، فقضت الوقت كله فى أسى وعذاب .. وعندما شرحت لها أن صمتى لم يكن الا احتراما لالتزاماتها نحو زوجها المريض ، أبت أن تصدقنى !

ومر القطار ببلدة « ج٠٠ » ، ولم ير « جاك » لزوجته أثرا ، فكتب اليها يستحلفها أن تزوره فى « بورج » .. لكنها أصرت على أنها لن تذهب الا اذا صحبتها !.. فرحت أبين لها ، فى رفق ، أن صحبتى لها فى مناسبة كهذه تتنافى مع المعايير الادبية والاخلاقية .. فأدهشها أن تسمعنى ـ للمرة الاولى ـ اتحدث عن الاخلاق !٠٠ وقد جاء حديثى عن الاخلاق فى لحظة

مناسبة ، من الناحية النفسية ، فان نفسها لم تكن تنطوى على خبث ، ولابد أنها عانت تباريح الاشفاق من مدى ما لحبنا من علاقة بالاخلاق ! فكان حديثى عن الأخلاق - للمرة الاولى - دليلا طمأنها الى أننى كنت لا أرى اننا أرتكبنا خطأ أو خطيئة حتى الآن !

وفى الايام التالية بدت « مارت » مشغولة البال ، ولكن ليس الى درجة التعاسة - ولو أنها لو بدت تعسة لعزوت ذلك الى قرب رحيلها الى «جاك» الذى كان يقضى فترة النقاهة فى المصحة ! - ولكن بمرور الايام حان دورها فى أن تعانى شبه ما كنت أعانى : من تدخل أمها ولذعات لسانها .. واشارات أبيها المتوارية بأن لها عشيقا .. الخ .. لكن تقريعى و « محاضراتى » لها جعلتها تتحمل ذلك وتألف « عدم المبالاة » .. فعاودها شىء من هنائها - وان مازجه فرح غريب كان يحيرنى ، ويغيظنى لاننى لم أكن أجد لنفسى نصيبا فيه ! - وبعد أن كنت أرى « مارت » بلهاء لانها كانت تؤول صمتى على انه عدم اكتراث بها ، بدأت أتهمها بأنها لم تكن تحبنى .. سيما وانها لم تعد تثرثر معى كما كانت تفعل قبلا !

والواقع انها لم تجرؤ على أن تقول لى انها .. حامل !

*

◆ وقد وددت أن أبدى بعض الابتهاج اذ سمعت النبأ ، ولكنه فى البداية أذهلنى ، فما خطر لى قط اننى قد أكون مسـئولا عن شىء كهذا !.. وأغضبنى أن وجدتنى فجأة مسئولا عن أخطر حدث فى الحياة ، وأنا بعد لم أصبح من الرجولة بحيث أتقبله كأمر طبيعى ! بل ان « مارت » لم تبح به الا وهى ترتجف فرقا ، خشية أن تكون هذه اللحظة - التى كانت خليقة بأن توحد بيننا - هى اللحظة التى تفرق بيننا ! .. على اننى أفلحت فى تبديد مخاوفها ، وأوحت لها سذاجتها بأن هذا الجنين لم يكن عقابا من الله على جرم ، وانما كان جزاءا ومكافأة لحبنا !.. بل انها رأت فى حملها سببا يوجب على أن لا أفارقها ، فى حين رأيته أنا غبنـا ، فما كان من الانصاف أن يكون لنا طفل فى هذه السن .. وللمرة الاولى بدأت أحمل هموم المسائل المادية - فقد توقعت أن تتخلى عنا أسرتانا بمجرد أن يعرف السر! - وأخذ الحب الذى غزا فؤادى نحو الطفل، يزيدنى اشفاقا من مسئولية وجوده .. أنا الذى كنت أدرك انه لن يكون فى وسعى أن أعول نفسى !

.. والذى يحدث فى مثل هذه الظروف أن الغريزة تستولى دائما على قيادنا .. ولكن ، لتودى بنا الى الهلاك !.. فـان « مارت » التى كانت بالامس تخشى أن يفرق الحمل بيننا ، باتت اليوم تشعر بأن حبى لا يقل تزايدا عن حبها .. وبعد أن كنت بالامس أبغض الجنين ، اذا بى قد بدأت أحبه اليوم ، بل وأحس بأن هذا الحب الجديد قد أخذ ينتقص من حبى لمارت ويفتات عليه !.. أصبحت أشعر وأنا أتحسس جسدها بشفتى ، كأننى انما كنت أقبل ابنى الذى فى أحشائها ، ولست أقبلها هى !.. فهى لم تعد عشيقتى ، وانما أصبحت .. أما !.. وصرت اذا خلونا أخال أن ثمة ثالثا يشاركنا خلوتنا !

ورغم اننى كنت أرى أن « مارت » هى المسئولة الوحيدة عن هذا التغير .. فانى ما كنت لأصفح عنها بسهولة لو تبينت مثلا انها كانت تكذب .. وان الطفل لم يكن ابنى !

وهكذا رحت أتخبط على غير هدى .. شعرت بأننى لم أعـد أحب « مارت » ، حبى لها من قبل !.. وان ابنى لن يسعد الا اذا آمن بأنه ابن « جاك » !.. وساءنى ذلك ، حتى لقـد فكرت فى أن أنفض يدى من « مارت » ، حتى لا أشعر بأن رجولتى مهيضة !.. والواقع انه كان من الممكن أن ينسب هذا الطفل الى « جاك » لو كفت « مارت » عن أن تضن بنفسها عليه فى العطلات !.. ومن هنا رحت ، فى غمرة الهوان والضعة ، احثها على ذلك - ولم يكن هذا أغرب المواقف بيننا ، ولا أدعاها للالم ! - وأدهشنى أن « مارت » لم تقابل اقتراحى بمعارضة تذكر .. وعرفت السر فيما بعد ، فانها لم تجرؤ على أن تعترف لى بأن « جاك » أحرز بالفعـل انتصارا خلال عطلته السابقة !

واقترب موعد سفر « مارت » لزيارته ، وكانت فرصة أردت أن أستغلها لأختبر نفسى ، لعلنى أشفى من حبها .. ورحلت فى الثانى عشر من يونيو ، فى الساعة السابعة صباحا ، بعد أن قضيت الليلة السابقة معها .. وكنت أحسبنى سأقضى الليل كله أتزود من أحضانها ، ولكننى - للمرة الاولى - لم أكد أندس فى الفراش ، حتى رحت فى النوم !.. وفى الصباح رافقتها فى القطار حتى محطة « مونبارناس » ، وأنا أقبلها فى غير حياء ..

وفى الايام التالية حاولت أن أتلهى عنها فى بيت أبوى ، فأقبلت على الحديقة أبذل جهدا فى العناية بها ، وعدت ألعب مع شقيقاتى ، وحاولت

أن أقرأ .. فلما حل المساء الاول ، انطلقت أتنزه على ضفة « المارن » .. ولكن خطاى كانت متثاقلة ، وللمرة الاولى تمنيت الموت ! ولكنى كنت عاجزا عنه ، وأسفت لان السأم لا يبلغ من القوة بحيث يقضى على المرء !

وأصبحت حياتى تتمثل فى ارتقاب ساعى البريد .. ولكننى كنت أرجىء فض خطابات « مارت » موجسا .. الى أن كان يوم ، ثرت فيه على ضعفى فمزقت أحد خطاباتها قبل أن أقرأه !.. وفى اللحظة التالية ، كنت أجثو على ركبتى أجمع قصاصاته .. وكانت ثمة صورة لمارت فى الخطاب ، فرحت ألصق أجزاءها !

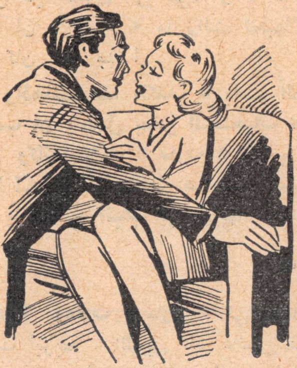
وكان مقدورا على « مارت » أن تقضى شهرا مع زوجها ، فداخلنى ارتياح الى وجوده معها ، ليحميها من الشبان !.. وكنت فى بعض الاحيان أتهوس من غيرتى كالثمل ، فأفكر فى أن أكتب الى « جاك » أعلنه بأنى عشيق « مارت » ، وانى أكلها الى رعايته !.. وكنت فى بعض الاحيان أغبطها لانها هدف حبى وحب جاك معا ، يجاهد كلانا من أجل اسعادها !.. ووددت لو أزداد تعرفا على « جاك » ، كى أقنعه بأنه لا ينبغى أن يغار كل منا من الآخر .. بيد أن الكراهية كانت لا تلبث أن تفور وتطفى على قلبى !

*

◆ **وكانت** « مارت » تلح على فى خطاباتها كى أتردد على مسكنها الخالى، فى غيبتها ، فكان ذلك يذكرنى بعمة لى كانت لا تنفك تلومنى لاننى لا أزور قبر جدى !

وذات يوم ، التقيت فى القطار بالفتاة السويدية التى قطعت صداقتها بمارت .. ووجدت فيها من براءة الطفولة ما حرك فؤادى ، فدعوتها الى الشاى فى مسكن « مارت » ، متكتما عنها غياب هذه ، مؤكدا لها أنها ستسعد اذ تراها ! وأقسم اننى لم أكن قد استقر عزمى على فكرة معينة بشأن ما أريده منها .. ولعلنى كنت أطمع فى مجرد مشاهدة أثر المفاجأة ، والغضب ، والحيرة ، تتباين على وجهها الطفل ، حين تتبين غياب «مارت» !

وأقبلت الغريرة الى مسكن « مارت » فى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى ، فزعمت لها أن « مارت » فى باريس ولن تلبث أن تصل .. وغاظنى اننى كنت مضطرا الى أن أتكلم ببطء ، وأن أضغط على مخارج ألفاظى ـ لضعف محصول الفتاة من الفرنسية ـ ثم ما لبثت أن قنعت بأن أقرب أذنى من فمها أرتشف كلماتها ..



وأغريتها على تناول شيء من الشراب، لكنى لم ألبث أن أسفت اذ رأيت مفعوله بها .. فقد أسلمتنى شفتيها طواعية ! .. وتحرك ضميرى ازاء هذا العمل فى مخدع « مارت » ، ولكنى عللته بأن هذا لا ينتقص من حبى لمارت ، واننى انما أشتهى هذه ـ السويدية ـ كما لو كانت « فاكهة » ، لا ينبغى لعشيقة أن تغار منها !

وملت عليها وهى مستلقية على الاريكة .. ولم أشعر بأن قبلاتى تلذ لها ، ولكنها كانت عاجزة عن أن تبدى أى غضب .. وأخذت أقرص وجنتيها، كأنما كنت أتوقع أن ينساب منهما عصير شهى ! أما هى فقد استسلمت لعناقى ، كفريسة صابرة .. وشددتها الى صدرى كما لم أشد « مارت » يوما .. وكانت مقاومتها الواهنة ، كنسمات الهواء ، تذكى نار جرأتى و قحتى !

.. وأخذت عليها المواثيق بأن لا تذكر لمارت شيئا مما جرى بيننا !.. حتى اذا شبعت منها ، سألتها ان كان سيقدر لنا أن نلتقى مرة أخرى ، فهمست : « غدا » !

لكنى لم أعد الى المسكن فى الغد .. ولعلها هى الاخرى لم تعد !.. على أنى لم أشعر بأسف ، ولا بندم ، وما كان تفكيرى فى « مارت » هو الذى جعلنى أزهد السويدية الغريرة .. وانما عافتها نفسى اذ أحسست اننى امتصصت كل رحيقها !

وبعد أيام ، تلقيت من « مارت » خطابا ضمنته رسالة وصلتها من صاحب بيتها ، يستنكر فيه اصطحابى امرأة الى مسكنها .. وقالت « مارت » انها لا تريد أن ترانى ، بعد اذ خنتها !.. غير أنى لم أجزع ، بل ساءنى أن لا تذكر « مارت » فى خطابها شيئا عن عزمها على الانتحار !.. ومع ذلك ، فقد عكفت من فورى على كتابة خطاب لها أبرىء فيه نفسى ، زاعما اننى كنت أزور مسكنها استجابة لالحافها ، واذا بصديقتها تفد لزيارتها .. ولم

يكن من الذوق فى شىء أن لا أدعوها كى تستريح قليلا .. ورحت أؤكد لها أن « سفيا » ما زالت تحبها ، وانها لم تهجرها الا مجبرة ، بتأثير ما كان يقال عنا !

وأذهلنى هذا الكذب « باسم الحب » ! ولكننى عللت نفسى بأن الحب يجب أن يتحمل بعض التضحيات ، ما دام الانسان يسلمه قياده وحريته ! .. وكأنما كانت « مارت » ترتقب هذا التبرير لكى تتوسل الى أن أغفر لها !.. ثم كتبت الى صاحب البيت تسأله فى سخرية أن يتكرم بالسماح لى بأن أفتح الباب فى غيابها للصديقة التى تزورها !

- ٥ -

◆ **وعادت** « مارت » فى نهاية أغسطس .. لا الى « ج.. » وانما الى بيت أبويها ، اللذين كانا غائبين فى المصيف .. ونسيت الارهاق الجنسى الذى كنت أعانيه قبل سفرها ، والرغبة فى النوم وحيدا .. كنت ألتهب شوقا .. وأهفو الى أن أنال من « مارت » أقصى ما يمكن نيله منها قبل أن تشغلها أعباء الامومة ..

وغدت الحجرة التى كانت لها وهى عذراء ، والتى حرمتها على « جاك » ، مخدعا لنا .. وكنا نستلقى أحيانا على أعشاب الحديقة ، نتبادل ثمار التوت ، من فم الى فم !.. وقد كان الاسبوع الاخير من أغسطس ، وشهر سبتمبر بأكمله ، هما الفترة الوحيدة التى نعمت فيها بالسعادة الحقة فى حياتى ، اذ لم أحتج الى الغش ، ولا الى الكذب - كما كنت أفعل لخداع أبوى ! - ولم أر عقبة تعترض سبيلنا .. كنت فى السادسة عشرة ، أحلم بالحياة التى يرجوها سواى فى أواخر أعمارهم .. بحيث كان يبدو لى اننا لو عشنا فى الريف فسنعيش فى شباب أبدى !

وذات يوم ، عدت من بيت أبوى فوجدت « مارت » مع شاب فى ثياب الطيران .. وما أن رأتنى حتى قفزت وقبلتنى ! وعرفت ان الشاب ابن عمها ، وأذهلتنى جرأتها أمامه ، ولكننى انتشيت فى الوقت ذاته لاعترافها أمامه بأنها تحبنى !.. وبدا لى أنه مغتبط بعلاقتنا ، سيما وانه كان يحتقر « جاك » لانه لم يكن طيارا ، ولا من رواد المشارب ! .. ورحت أرهقه بالاسئلة عن طفولة «مارت» - وان غشينى فى الوقت ذاته شىء من الاسى ، فقد كنت قريب عهد بالصغر ، وأعرف حيل الطفولة التى يعمى عنها الآباء .. فشعرت بالغيرة من ماضى « مارت » !

وعندما تأهب الشاب للرحيل ، عرض علينا ان نستغل مسكنا خاصا له فى باريس ، اذا شئنا أن نتفادى مضايقات أصحاب البيت !.. **وشعرت ونحن نتأهب لمغادرة بيت والدى « مارت » فى نهاية سبتمبر ، اننى أخلف السعادة ورائى .. وانه لم تبق أمامنا سوى بضعة شهور ، نقرر بعدها ما اذا كنا نعيش فى الزيف ، أو فى الحقيقة !**

*

◆ **وصار** لقاؤنا فى مسكن « مارت » فى ضاحية (ج..) خلال شهر اكتوبر ، محفوفا بالصعاب .. كنا نلزم الحذر كاللصوص ، حتى لا يفطن الينا صاحب البيت .. تفاديا للفضيحة !.. وكان الليل يهبط مبكرا ، وفى أردانه برودة ، فأصبح يلذ لنا أن نلجأ الى الفراش خلال النهار .. وكنت لا أكاد أقوى على النظر الى « مارت » وهى عارية ، اذ كنت أخال نفسى وحشا قد أتلف جمالها بالحمل !.. وهكذا لم تعد بالنسبة لى مجرد حبيبة ، أو عشيقة .. وانما أصبحت لى كل شىء !

وأخذ أبى يزداد انزعاجا لحالى .. لكنه كان يقف فى صفى ازاء زوجته واخواته !.. أما فيما بيننا ، فكان يقول لى انه لن يتورع عن شىء ليفرق بينى وبين « مارت » .. ولكنه لم يكن يجسر على شىء !

وكان حتى الآن يظن الامر لا يعدو مجرد العبث ، بيد أن أمى عثرت على بعض الخطابات التى تحدثت فيها « مارت » عن مستقبلنا وطفلنا ! وكانت أمى لا تزال تعتبرنى طفلا ، وعز عليها أن تكون جدة فى مثل سنها - فضلا عن أنها كانت لا تتصور أن تخون زوجة زوجها ! - فلما استوثقت من أن « مارت » صارت عشيقتى ، لم تتورع عن أن ترى فى هذا دليلا على أن لتلك المرأة ولا بد اكثر من عشيق سواى .. ومع ايمان ابى بخطل هذا الرأى ، الا أنه استغله ليصرفنى عن « مارت » ويوقع بيننا !.. صار اذا غبت أياما عن البيت ، ينزل عن كبريائه ويبعث الخادم الى برسالة يدعونى فيها للعودة ، والا أبلغ البوليس بأننى فررت ، وبـأن « مدام ليكومب » قد أغوتنى وأنا قاصر !

وكانت « مارت » تصطنع عندئذ الدهشة ، وتقول للخادم اننى غير موجود .. وبعد برهة ، كنت أعود الى البيت وأنا ألعن صغر سنى الذى يحول بينى وبين أن أكون ولى أمر نفسى !.. ولكن أبى لم يحاول مرة أن يمنعنى من الذهاب الى «مارت» ، رغم انه كلما شعر بأنه أطلق لى العنان ، كان يرتاع ، ويحس بالعار لمسلكى ، ومن ثم يهددنى .. لكن الخجل من

تهوره فى الغضب كان لا يلبث أن يجعله يطلق لى العنان من جديد !

أما مدام « جرانجييه » ، فان ما سمعته من جيرانها عقب عودتها الى دارها ، جعلها تتأكد مما كان يساورها من ارتياب فى أن لابنتها عشيقا !.. بيد أنها ما لبثت أن صفحت عنها ، على أمل أن يكون مولد الطفل - الذى كانت تحسبه ابن « جاك » ! - سيضع حدا لهذه النزوة .. وقد حرصت على أن تكتم عن مسيو « جرانجييه » حقيقة العلاقة ، مما طمأننى الى أنها رغم استهجانها مسلك ابنتها ، لن تتوانى عن ان تقف الى جوارها ضد زوجها ، فيما لو تحرجت الامور !.. وقد قنعت - فى غباء - بأن تلوم ابنتها على تعلقها بفتى فى سنى ، هو أعجز الناس عن تقدير « رقة الانوثة » !

أما أهل « جاك » ، الذين كانوا يعيشون فى باريس ، فلم يكن لديهم ما يدعو للشكوك !.. وان كان انصراف « مارت » عن زيارتهم والتقرب اليهم ، قد أوغر صدر أم جاك ، وأخته التى كانت تقترب من الخامسة والعشرين - وكانت الفتاة تحنق على « مارت » انها الوحيدة التى كشفت سر علاقة كانت بينها وبين شاب تعرفت اليه فى المصيف ، لذلك لم تدع فرصة للنيل من «مارت» الا واستغلتها ، حتى لقد كانت تردد امام أبويها ان « مارت » لن تتورع عن خيانة « جاك » لو سنحت لها الفرصة .. ان لم تكن تخونه فعلا !.. على أن أيا من الاسرتين لم يساورها أدنى ارتياب فى أن أحدا غير « جاك » يمكن أن يكون أبا للجنين .. وساءنى ذلك !.. بل مرت بى أيام كنت اتهم فيها « مارت » بالجبن لانها لم تكشف الجريمة !

وكانت العاصفة تقترب .. كان أبى يهددنى بأن يرسل بعض خطابات « مارت » الى أمها !.. ومن العجيب اننى تمنيت لو ينفذ وعيده .. بل رأيت أن « جاك » هو الاولى بأن ترسل اليه الخطابات !.. وعندما صاح بى أبى ذات يوم قائلا انه قد أرسل الخطابات الى مدام « جرانجييـــه » و « جاك » ، كدت أحتضنه .. لقد أدى لى الخدمة التى كنت أصبو اليها ، وهى اطلاع « جاك » على الحقيقـــة ! ورثيت لابى اذ ظن أن حبى من الوهن بحيث يحفل بأمر كهذا ، ونسيت فى الحمى التى تولتنى أن مثل هذا العمل كان مستحيلا .. فلم أفطن الى ذلك الا فى الصباح التالى ، حين انفثأ غضب أبى ، فصارحنى بأنه كان يكذب على !

وما كنت لأحفل بالخطابات التى كان أبى يرسلها الى « مارت » كلما غبت عن البيت ، لولا انها كانت على أثرها تناشدنى أن لا أطيل الغياب عن أهلى ، وان أتصرف بعقل .. فكان هذا يثيرنى ، فأضرب الارض بقدمى

وأتهمها بأنها بدأت تتنكر لى !.. وذات مرة ، أصررت على البقاء ليلة أخرى - وكنت لم افارقها ثلاثة ايام - فهددتنى بأن تترك لى البيت وتقضى الليل على ضفة « المارن » فيقتلها البرد !.. وعندما قسوت عليها مرددا انها ولا بد تحاول التخلص منى لانها تنتظر عشيقا اخر ، كفت عن الالحاح ، ولكنها أصرت على انها لا تستطيع البقاء الى أن يوفد أبى فى الصباح خادمه تسأل عنى ، وانها تؤثر أن يستقبل صاحب البيت الخادم اذا جاءت فينبئها بأنها ليست فى مسكنها ، مهما كان الثمن ..

ولم نجد جرأة لان نقصد الى شقة ابن عمها الخاصة ، فانتهى بنا التفكير الى أن نقضى ليلتنا فى أحد الفنادق - ولم أحفل اذ ذاك بأننى كنت أرهب مجرد اجتياز عتبة أحد الفنادق ، اذ لم يكن لى بذلك سابق تجربة ! - وبدأ لى أن القطار الذى استقللناه فى الساعة الحادية عشرة مساء لن يصل الى باريس فى ليلته ، سيما وأنه لم يكن بالعربة ضوء ولا دفء .. وأسندت « مارت » رأسها الى حافة النافذة ، مستسلمة لقسوة الظروف التى يورطها فيها حبها للصبى الذى كنته .. فتعذبت لما كانت تعانى من ألم ، حتى اننى لم أحجم عن مصارحتها بأن « جاك » كان أكثر منى جدارة بحبها ، لانه كان أكثر حنانا عليها وترفقا بها .. ولكنها همست : « اننى أفضل الشقاء معك ، على السعادة معه ! » .. فانتشى قلبى ، ورحت أردد كلماتها فى خيالى ..

وغادرنا القطار فى محطة « الباستيل » ، فمضينا نسير على غير هدى ، والسماء تمطر ثلجا .. وكنت كلما اقتربنا من فندق ، أتذرع بحجة لحملها على تجاوزه !.. حتى بلغنا ميدان محطة ليون ، وكان التعب قد برح بمارت ، فأصرت على أن أضع نهاية لهذا التسكع .. واضطررت الى أن ألج أول فندق صادفنا ، بعد أن سألتها أن تنتظر فى الخارج .. لكننى لم أجسر على السؤال عن غرفة ، لفرط خجلى وجبنى .. فما لبثت أن عدت اليها زاعما أن ليس بالفندق غرفة خالية .. وأمسكت دموعى بعناء ، وأنا أشهد حالها .. ثم اقترحت عليها أن نعود الى « ج.. » !

وكانت عودة أليمة .. كان الخجل من مسلكى يطغى على .. وعندما همت بلومى ، انفجرت فيها غاضبا ، ولم أرحمها .. حتى اضطرت فى النهاية الى أن تقول ان سوء معاملتى لن يلبث أن يجعل ضيقها يطغى على حبها ، فتهجرنى !.. وشعرت بأسى لذيذ .. وارتميت عليها أحتضنها ، فى عنف وقسوة ووجد !

*

◆ وكانت تلك الليلة هى الحاسمة - وان لم أفطن الى ذلك فى حينه - ولعل « مارت » وهى منكمشة فى ركن عربة القطار - أثناء عودتنا - منهوكة القوى ، تصطك أسنانها لفرط البرد والحمى ، قد باغتها الهام خفى بما يخفيه المستقبل ! .. وعندما عدت اليها فى اليوم التالى ، وجدتها فى الفراش، فلما حاولت أن أندس الى جوارها ، صدتنى فى رفق ، خشية أن أصاب بعدوى البرد الذى أصابها .. ووجدتها محمومة ، تسعل .. حتى اذا هممت بالانصراف ، رجتنى أن أمر بالطبيب فأرسله لها ..

وفى اليوم التالى ، وجدتها تبكى .. فلقد أمرها الطبيب بأن تلازم الفراش حتى تضع مولودها ، فضلا عن أن حالتها كانت تستلزم رعاية خاصة لا بد لها معها من أن تنتقل الى دار أبويها .. **واذا كنت لم أتألم لذلك الفـراق المنتظر ، فليس ذلك عن شجاعة ، وانما كان للغباء الذى تولانى ازاء الواقع ، فلم أفقه شيئا .. كمتهم يسمع - مذهولا - الحكم عليه من فم القاضى !**

ورافقتها الى ما قبل دار أبويها بقليل .. وعندما عدت الى دارنا ، لاحظت أمى احتقان عينى .. وأحسست بدوار واعياء وذهول .. كانت الحياة بلا « مارت » رحلة طويلة شاقة عبر محيط سحيق .. فهل يقدر لى أن أصل الى الشاطىء الآخر ؟

أما « مارت » ، فلم يكن قد تبقى لدى أبويها شك فى مسلكها ، اذ عثرا معها على بعض خطاباتى ،فأرضيا نفسيهما بأن تعمدا حرقها أمام عينيها فى مخدعها !

وذات يوم .. سمعت على حين غرة دقات أجراس كثيرة .. أجـراس الهدنة !.. ولم يكن للهدنة من معنى فى نظرى سوى قرب عودة « جاك » ! .. وهكذا بينما كانت فرنسا غارقة فى لجج الفرح ، كنت أنا غارقا في أحزانى ويأسى !

ومرت أيام ، بغير أن أتلقى رسـالة من « مارت » .. وفى أصيل أحد الايام ، وصلتنى وريقة دعتنى فيها مدام « جرانجييه » - فى لهجة جافة - الى أن أسرع الى دارها ما وسعتنى السرعة .. ولم تزد !

ولم أضيع دقيقة .. واستقبلتنى مدام « جرانجييه » وهى تجاهد كى تبدى انفة وترفعا ، واعتذرت لانها أتعبتنى لغير داع ، فقد كانت تسعى الى تعرف أمر ، لم تلبث أن تهيأت لها أسباب معرفته قبل وصولى ! .. وأقلقنى مسلكها الغامض ، أكثر من أية نكبة ترتقب في تلك الظروف !.. على انني

لم ألبث أن صادفت أثناء عودتى ، شقيق « مارت » الصغير ، فاستدرجته حتى عرفت أن أخته فى حال سيئة ، تردد اسمى فى هذيانها !.. وان أباه قد اشتبك فى شجار مع أمه ، قائلا ان « مارت » فى خطر داهم ولا بد من استدعائى لارضائها !.. واذ ذاك أدركت سر تصرف مدام « جرانجييه » : فلا بد أن الخطر انجاب عن « مارت » ، فأتاح للعجوز المتعنتة فرصة الحيلولة دون أن أرى ابنتها ..

- ٦ -

◆ **وكنا** نتوقع مولد الطفل فى شهر مارس .. لكن اخوتى عادوا الى البيت فى أحد أيام الجمعة من شهر يناير ، يحملون نبأ بأن « جرانجييه » الصغير قد أصبح خالا .. وما دروا أن النبأ الذى حملوه هام ، خطير ، فمعناه انهم أيضا أصبحوا .. أعماما !

.. ولم أع تماما فى البداية أن ابن « مارت » هذا .. هو « ابنى » ! .. فان الشىء الذى نراه دائما امام أعيننا ، هو أكثر الاشياء استخفاء عن ادراكنا اذا تغير وضعه أتفه تغير !.. **وهكذا تولانى ذعر مجنون ، وران على نفسى فجأة ظلام دامس ، تزاحمت تحت اطوائه مشاعرى وانفعالاتى .. ورحت أنقب فى حنايا نفسى وذاكرتى عن تفصيلات وتواريخ .. ومضيت أعد الشهور على أصابعى ، غير مصدق : طفل من هذا الذى كان مرتقبا فى مارس ، فولد فى يناير ؟.. كانت غيرتى تدفعنى الى البحث .. وفجأة، لم يساورنى شك فى أنه كان ابن « جاك » ! ألم يأت الزوج فى عطلة منذ تسعة شهور ؟ اذن كانت « مارت » تكذب على طيلة الوقت .. ألم تقسم فى البداية على أنها لم تسلمه نفسها خلال تلك العطلة اللعينة التى قضى فيها اسبوعين معها ؟ .. ثم الم تعترف بعد ذلك بزمن بأنه نالها عدة مرات ؟!**

ولئن كنت قد رجوت يوما أن يكون الطفل ابنا لجاك ، الا أننى فى ذلك اليوم شعرت بأننى أحبه كما لو كان ابنى .. فكيف تحرك حب الابوة فى قلبى ، فى الوقت الذى تبينت فيه اننى لست أباه ؟ .. هكذا كان مدى اضطراب عقلى .. كنت أشبه برجل لا يحسن السباحة ، ألقته الظروف على لوح من خشب فى عرض المحيط والليل دامس !

وجلست أكتب لمارت خطابا قاسيا ، أنتقم فيه لكرامتى .. ولكننى ما لبثت أن مزقته ، وتحولت أكتب اليها مناشدا اياها أن تغفر لى .. ولكن ، ماذا تغفر ؟.. لا شك أن جاك كان والد الطفل .. ومع ذلك فقد

رحت أتوسل اليها أن تحبنى ! - فان أى شاب ليس سوى حيوان ، يثور اذا تألم - **ولكن قبل أن أفرغ من خطابى ، تلقيت رسالة من « مارت » أكدت لى فيها ان الطفل ابنى ، وانه انما جاء « قبل » موعده بشهرين .. واختتمت الرسالة بقولها : « كدت أموت أثناء الوضع .. »**

وودت لو أعلن العالم كله بذلك .. واحتقرت نفسى فى غمرة الفرح اذ سمحت لها بأن ترتاب فى « مارت » .. وامتزج الفرح بالندم ليجعلانى أزداد حبا لها .. ثم عدت الى رسالة «مارت» .. كانت تقول : « انه يبدو شبيها بك !.. وان أخذ عنى عينى .. »

ولم يبق لدى آل « جرانجييه » شك ، فلعنوا ابنتهم ، لكنهم تكتموا السر حتى لا تلطخ الفضيحة الاسرة .. بل ان الطبيب ذاته شاركهم تكتمهم ، اذ اختلق فرية لجاك ، ليبرر نقل الطفل الى الجهاز الخاص الذى يوفر له جو أحشاء أمه الى أن يحين الموعد الطبيعى لمولده !

*

◆ **وحين** انقطعت عنى رسائل « مارت » فى الايام التالية ، لم يساورنى ارتياب .. فقد حدثت نفسى بأن « جاك » كان ولا بد الى جوارها .. بل اننى فى نوبات الفجور كنت أبتسم اذ أفكر في أنه مدين لى بهذه الايام التى يقضيها معها !

وكانت السكينة تسود دارنا .. وخيل الى اننى أصبحت أكثر لطفا ورقة ، بفضل ما كنت أنعم به من سعادة ! .. والرجل الذى لم يعرف النظام يوما ، والذى اقترب أجله دون أن يدرى ، كثيرا ما تنتابه نوبة من حب النظام ، فيرتب حياته ، وينسق أوراقه ، ويستيقظ مبكرا ، ويأوى الى فراشه مع غروب الشمس ، ويهجر مباذله .. حتى ليبدو أن ليس للموت مبرر لان يقربه .. ذلك لانه يوشك أن يعيش سعيدا !

وكذلك كانت السكينة التى سادت حياتى أخيرا : تمهيدا ، له ما وراءه ! .. ففى أحد الايام ، عاد اخوتى من المدرسة يبكون ، لان « مارت » .. ماتت !

.. والصاعقة حين تنقض ، فى سرعة خاطفة ، لا يحس المصعوق لها ألما .. لكن منظره يروع من يكونون حوله !.. وكذلك لم أشعر أنا فى البداية بشىء ، بينما انعكس الالم واضحا على وجه أبى !.. ثم أحسست بأننى أجمد وأبرد ، كأنما تحولت الى حجر !.. وكما يرى المحتضر كل ذكريات حياته تمر أمام عينيه في لحظة واحدة .. فقد تبينت أنا الآخر في

اللحظة التى وعيت فيها موتها ، كل ما كان قاسيا فى حبنا .. وبكيت ، لان أبى كان يبكى !.. وأقبلت أمى تحنو على وترعانى ، كما لو كنت محموما .. وأحسست أن غيرتى تتبع « مارت » حتى فى قبرها ، فلقد رجوت أن لا يكون بعد الموت بعث أو خلود .. فما كنت لأحتمل أن تكون لمعشوقتى حياة جديدة ، لا أشاركها اياها !

✽

◆ **وكانت** المرة الوحيدة التى رأيت فيها « جاك » ، بعد شهور من موت « مارت » ، حين علم أن أبى يحتفظ ببعض رسوم لها بالالوان المائية ، فجاء يرجو أن يراها .. ونحن نتوق عادة الى مزيد من المعرفة عمن نحب ، لذلك وددت أن أرى الرجل الذى ارتضته « مارت » زوجا .. فحبست أنفاسى ، وسرت على أطراف أصابعى نحو الباب الموارب .. فوصلت فى الوقت المناسب كى أسمعه يقول لأبى :

ـ لقد ماتت زوجتى وهى تردد اسمه .. يا للطفل المسكين !.. انه السبب الوحيد الذى أعيش من أجله !

واذ رأيت الرجل متجلدا ، وقورا ، يغالب حزنه بصبر واحتمال .. أدركت أن القدر يدبر فى النهاية كل شىء .. **ألم أعرف أن « مارت » ماتت وهى تردد اسمى ؟ .. كانت قد أطلقته على الصغير ، فظن « جاك » انها تعنى الطفل ، وقرر أن يكرس له حياته .. ومن ثم فقد اطمأننت الى أن ابنى سيحيا حياة طيبة !**



ثقافة الأديان



أصحاب العقائد والرسالات

عزيزى القارىء ..

لما كانت رسالة ((كتابى)) تستهدف تعميم الثقافة الرفيعة بجميع الوانها ، وفى جميع مجالاتها وميادينها .. ولما كانت الثقافة الدينية من اول اسس الحضارة البشرية والتاريخ الانسانى ، فقد رأيت ان اقدم لك فى هذا الباب الجديد دراسات شاملة لسير اصحاب الوحى من دعاة العقائد والاديان ، ثم لسير انبياء الصف الثانى فى الديانات السماوية الثلاث .. على أن اتبعها فى فرصة قريبة بمجموعة مكملة لها من القصص الانسانية التى وردت فى كتب الأديان نفسها ، اى من قصص التوراة والانجيل والقرآن ..

وهكذا تقرأ فى هذا الباب بعون الله قصص هؤلاء ، حسب الترتيب الزمنى لظهورهم : موسى ، المسيح ، محمد .. ثم سير الانبياء والرسل : ابراهيم ، اسحق ، اسماعيل ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، داود ، سليمان ، ايوب ، يونس ، زكريا ، يحيى ، اشعيا ، يوحنا ، بولس ، ابى بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، على بن ابى طالب .. ثم من الأئمة والمصلحين الدينيين : ابى حنيفة ، بن حنبل ، مالك ، الشافعى .. مارتن لوثر ، كلفن .. الخ .. الخ



النبى الذى كلمه الله

موسى

للكاتبة دانا لى

لخصه وأضاف اليه من التوراة والقرآن والمراجع العربية

الاستاذ اسماعيل كامل

حياة موسى .. والوصايا العشر
(حوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد)

◆ فى العدد الماضى قدمت لك من هذه السلسلة الثقافية ـ سلسلة (دعاة العقائد والرسالات) ـ حياة « بوذا » ، مؤسس الديانة البوذية ، و « الهها » المتجسد ، فى اعتقاد البوذيين .. (وواضح اننا فى تقديمنا لسير دعاة الاديان المختلفة انما نستقيها من مصادرها الاصلية ووفق معتقدات كل ديانة فى نظر اتباعها)

واليوم اقدم لك فيما يلى حياة الداعية الأول من دعاة الديانات السماوية الثلاث ـ حسب الترتيب الزمنى ـ وهو النبى موسى ، كليم الله .. (الذى مثلت حياته على ارض مصر منذ أمد قريب اثناء اخراج الفيلم العالمى المرتقب : « الوصايا العشر ») .. وفى الاعداد القادمة أزمع ان اقدم لك فى هذا الباب : حياة المسيح ، ثم حياة محمد ، تتلوها سير انبياء « الصف الثانى » فى الديانات الثلاث

ينكرون وجوده !

◆ **هنـاك** من ينكرون وجود موسى ، كما أن هناك من ينكرون وجود « هوميروس » و « شكسبير » ... الخ ، فان بعض الوضيعين من بنى الانسان ، حين يعجزون عن فهم شخصية عظيم من عظماء هذا العالم ، يحاولون اقصاءه عن العالم أصلا !!.. ومن طريف سخرية الكاتب الفكه « مارك توين » ، قوله فى الرد على أولئك المتشككين فى وجود موسى : **« اذا كانت الوصايا العشر لم يكتبها موسى ، اذن فلا بد أن الذى كتبها شخص آخر يحمل نفس الاسم !! »**

وقد ألمع محاضر مازح ، ذات مرة ، الى أن موسى هو أعظم شخصية « تاريخية » لم تعش قط !.. فانبرى له بعض سامعيه يقول : **« انك يا سيدى تقصد ولا بد أن تقول ان موسى هو أعظم شخصية « خيالية » سوف تعيش الى الابد ! »**

ولئن لم يكن ثمة دليل « علمى » يثبت الصفة التاريخية لوجود موسى ، فان شخصية موسى الحية قد أوحت « بمكتبة » كاملة من ثمار الاذهان والقرائح الخالقة ... وهذه الشخصية ـ ذات الاثر الباقى فى التقدم البشرى ـ هى التى سنحاول هنا أن نبعثها الى الاذهان :

الرؤيا التى أزعجت فرعون !

◆ ان صورة موسى التى تراود محيله الباحث اليوم ، لهى ثمرة مزيج من قصص التوراة والاساطير العبرية ، وكلها تجمع على ان موسى كان طفلا من نسل اليهود ، وان والده عمران (بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) من أشراف العبرانيين ، وان أمه يوكان بنت لاوى اتخذها عمران (ابن أخيها) زوجه له ، فولدت له هارون ومريم وموسى .. ولما ولد موسى خبأته أمه ، خشية أن يذبحه المصريون !.. فقبيل مولده كان « فرعون » قد رأى رؤيا ضاعفت من مقته لليهود ، فقد رأى كأن نارا اقبلت على مصر من بيت المقدس !.. فدعا اليه السحرة والكهنة ، وسألهم تأويل تلك الرؤيا ، فقالوا : «يخرج من بيت المقدس رجل يكون على يديه هلاك المصريين ! » .. فما كان من فرعون الا أن أمر من فوره بذبح كل طفل ذكر يولد للعبرانيين (بنى اسرائيل) ، وترك المواليد الاناث على قيد الحياة .. وهكذا توالى الذبح على أطفال اليهود الذكور ، حتي كادوا ينقرضون ،

الوصايا العشر

(حسب ترجمة التوراة)

◆ لا يكن لك آلهة اخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الارض من تحت وما فى الماء من تحت الارض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن . لأنى انا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . واصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى .

◆ لا تنطق باسم الرب الهك باطلا. لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا

◆ اذكر يوم الرب لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأما اليوم السابع فللرب الهك . لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وجاريتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك ، لأن فى ستة أيام صنع الرب اسماء والأرض والبحر وكل ما فيها .. واستراح فى اليوم السابع . لذلك باركه الرب وقدسه

◆ أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب الهك.

◆ لا تقتل

◆ لا تزن

◆ لا تسرق

◆ لا تشهد على قريبك شهادة زور

◆ لا تشته بيت قريبك .

◆ لا تشته امراة قريبك ولا عبده ولا جاريته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك .

ففزع كبار المصريين الى فرعون قائلين : « ان هؤلاء القــوم قد أمعن الموت فيهم فقل عددهم ، بحيث يوشك أن يصبح العمل فى المزارع والمعابد ورصف الطرقات من نصيب المصريين ، فلو أنك أبقيت من اليهود على بقية ، لقامت هذه البقية بالعمل ! »

عندئذ أمر فرعون بأن يذبح أطفال اليهود عاما ، ويتركوا عاما .. فلما جاء العام الذى لا يذبح فيه أطفال بنى اسرائيل ، ولد هارون .. ولما جاء العام الذى فيه يذبحون ، ولد أخوه موسى !

موسى يعبث بلحية الملك !

« وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »

◆ حتى اذا مكث موسى عند أمه ثلاثة أشهر وخافت أن يفتضح أمرها ، صنعت تابوتا طلته بالزفت والقطران ، ثم أرضعت طفلها وأودعته التابوت .. ثم ألقت به فى النيل وكلفت ابنتها مريم بأن تتبع أخاها . وأقبل الموج خفيفا يحمل التابوت الى الساحل الملىء بالاعشاب ، وكانت ابنة فرعون – لحسن الحظ – قد جاءت لتستحم فى تلك البقعة ، فعثرت جواريها على ذلك التابوت .. واذ ذاك أشفقت عليه الاميرة وأمرت بالابقاء على حياته ، ثم حملته الى أمها التى أحبتــه لاول نظرة وأبقته بأمل أن ينفعها وفرعون ، وأن يتخذاه ولدا . ولما رأى الملك أن يذبحه جعلت زوجتــه تضرع اليــه ، حتى تركه لها وهو يقول : « أخشى أن يكون الطفل من العبرانيين وأن يكون على يديه هلاكى ! »



وأطلقت عليه زوجة فرعون اســم « موشه » – أى « المنتشل » ، من النيل – وحملته الى زوجهــا قائله : « خذه قرة عين لى ولك ! » .. فلمــا حمله فرعون ، أخذ موسى يعبث بلحية الملك الطويلة ، فصاح فرعون غاضبا محنقا أن اذبحوه !! بينما توسلت اليه زوجته أن يبقيه ، فهو طفل لا يعقل

ولا يعى ! وأرادت أن تبرهن له على صدق قولها فجاءت بحلية من الياقوت فى احدى يديها وبحجر يتقد فى اليد الاخرى ، ثم قالت : « ان أخذ الحلية فهو يعقل فاذبحوه ، وان تناول الحجر فهو طفل لا يعقل فابقوه ! » ٠٠ وعرضت على الطفل الحلية والحجر ، فأمسك بالحجر ٠٠ وأبقى فرعون عليه كارها !

ولكن الطفل لم يقبل على واحدة من المرضعات ، وشاهدت ذلك « أخته » مريم التى كانت لا تزال تتبعه وتراقبه ، فبادرت تعرض أن تدل « أهله » على مرضعة عبرانية ترضعه وتكفله وترشده ، فبعثوا بها لتعود بأمها ـ وأمه ! ـ التى تلقف الطفل ثديها من فوره ٠٠ وكان أن عهدت اليها زوجة فرعون بأن ترضعه وتربيه ٠٠ وهكذا أرجعه الله الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن !

ولما تمت رضاعته ، أتت به أمه الى بيت فرعون ، فتولى البلاط الفرعونى تنشئته كما لو كان واحدا من أبناء الملوك ! وعكف على تثقيفه الكهنة الذين كانوا اذ ذاك رجال دين وثقافة ، كما راحوا يلقنونه مبادىء التوحيد التى يعتنقونها « فى السر والخفاء » ، يكتمونها عن العامة كى يلهوهم بالاوثان والاصنام ويستديموا طاعتهم بتبليغهم أوامر الآلهة !

يقود حملة حربية ٠٠ ثم يدرس اللاهوت فى هليوبوليس !

« ولما بلغ أشده واستوى ، آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »

◆ **ولما** بلغ موسى مبلغ الشباب ، أسندت اليه قيادة حملة حربية ضد الاحباش « الاثيوبيين » ، فوفق فى حملته وعاد ظافرا ٠٠ لكنه كان بطبعه ينفر من الحروب ويميل الى العلم والمعرفة ، فالتحق بكلية اللاهوت التى كانت قائمة اذ ذاك فى هليوبوليس ـ مدينة الشمس ـ وحلق لحيته وساهم بقسط كبير فى ألعاب القوى التى كانت تمارس فى الكلية . وكانت كل الظروف تعده لكى يغدو نبيلا مصريا رفيع المكانة فى أثناء حياته ، مومياء مجيدة مكرمة بعد موته !

ولكن موسى كان ثائرا ٠٠ وكان يهوديا ٠٠ فألف أن يندس وسط الطبقات الوضيعة ، وأن يتحدث الى العمال اليهود الذين كان فرعون يسخرهم فى صنع الآجر وطوب البناء ، فوجد موسى لدهشته أن هؤلاء الغرباء كان لهم بدورهم تاريخهم الذى يعتزون به كما يعتز سادتهم المصريون بتاريخهم ، فقد حدثوه عن جدهم ابراهيم الذى ترك مدينة الكلدانيين (أور) سعيا وراء الحرية .. حتى وجدها أخيرا فى أرض جديدة تقع بين الصحراء

والبحر .. هى أرض (كنعان) الجميلة التى ((تفيض لبنا وعسلا)) ، وقد عاش ابراهيم وأتباعه هناك ، وتكاثروا وضاعفوا من قطعان ماشيتهم وحقولهم حتى اثروا .. لكن اليهود كانوا أبدا شعبا قلقا ، وقد بدا - فيما حدثوا موسى - أن مصيرهم المقدور أن يتجوّلوا فى الارض وأن يهيموا على وجوههم من ركن الى ركن .. ولكن ها هو المطاف ينتهى بهم أخيرا الى أرض فرعون .. حيث صاروا عبيدا أذلاء !

وخلب أولئك القوم وتاريخهم ذهن موسى ، فصار يكثر من زياراته لهم حينا بعد حين . وفى البداية كان أصـدقاؤه وزملاؤه من المصريين ذوى المكانة الرفيعة ، يجدون فى تبسطه مع عبيدهم تسلية طريفة ، لكنهم لم يلبثوا أن لاموه على مسلكه ، كما حذره فرعون من الاختلاط بأولئك الغرباء الجهال ((الساميين)) - الذين ينتسبون الى سام بن نوح !

لكن موسى لم يعبأ بتحذير مولاه ونصائح اخوانه .. وذات يوم ، فيما هو يرقب نفرا من العبرانيين وهم يعملون فى صنع طوب البناء ، رأى أحد الرؤساء المصريين ينهال بسوطه على عامل منهم فى قسوة بالغـة ، أفقدت موسى اتزانه فاندفع نحو المعتدى ولكمه لكمة قضت عليه !.. غير أن موسى ندم على اندفاعه ودعا ((ربه)) أن يتوب عليه وأن لا يجعله ظهيرا للمجرمين وناصرا لاهل الشر .. وعلى الفور وارى القتيل التراب ولم يعلم بذلك سوى اليهودى المعتدى عليه !

الهرب الى أرض (مديان)

◆ وفى اليوم التالى صادف موسى نفس اليهودى يقاتل مصريا آخـر ويستغيث به ! وأدرك أن اليهودى مشاغب محب للعراك ، فصاح به : ((انك لشرير مبين !)) ، وظن اليهودى أن موسى يهم أن يبطش به .. فصـاح رافعا عقيرته : ((يا موسى ، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ؟ ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين)) .. ثم انطلق يذيع فى الناس أن موسى هو الذى قتل ((المقدم)) - رئيس العمال - بالامس ! وبلغ الخبر فرعون ، فأمر بالقبض على موسى .. كما تسابق بعض المصريين لذبحه !.. ولكن رجلا كريما من آل فرعون بادر الى موسى من أقصى المدينة فاستبق الفريقين من طريق مختصر وأفضى الى موسى بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، ثم نصحه أن ينجو بنفسه فيغادر مصر فى الحال .. فخرج منها موسى خائفا يترقب ويقول : ((رب نجنى من القوم الظالمين .)) .. واختار أرض (مديان) حول خليج العقبة ، فمضى اليها حافيا بلا طعام ، سوى ورق الشجر ، حتى بلغها بعد ثماني ليال ..

وغدا «الامير المصرى» راعيا فى البرارى الفسيحة التى تحف بالصحراء .. وكان ذلك بداية مرحلة جديدة من مراحل تعليمه ، فقد هجر القرطاس وأساطير الكلية السخيفة عن أشباح الموتى وتحنيط المومياوات ! وبدأ يقرأ بدلا منها فلسفة السموات فى عتمة الليل بنجومها الحية وأحرفها التى من شهاب ! وأخذ على عاتقه أن يكتشف الاله الواحد الجدير بالتقديس والتوقير والعبادة ، والذى يراه فى البرية يشق العواصف الرملية ويسمع صوته فى هزيم الرعد ، ويلتقى به وجها لوجه فى الصباح الباكر حين تنهض الشمس من سباتها فتضرم النار فى أطراف الصحراء عند الافق

ولقد وجد موسى الهه الجديد فى الصحراء .. ويا له من اله رهيب .. اله (عربى) جبار يسهر على شعبه وهم نيام ، ويقودهم فى المعركة ، ويضرب أعداءهم بلا رحمة أو هوادة .. لكنه اله لا يصبر على ظلم ولا يقيم على ضير ، يكرم الغريب ويرعى اليتيم ويعطف على السائل والمحروم .. اله فيه كل صفات البدو الاعراب ، وكأن موسى قد نظر فى مرآة فتعرف على الله فى صورته الخاصة .. ذلك أن صورة الله كما رسمها موسى لهى صورة موسى نفسه ، مكبرة الى نسبة بشرية .. فالنبى الدينى العظيم ، كالفنان العظيم ، يدمج شخصيته الخاصة فى شخصية نموذجه

المرأة التى دخلت حياته

◆ **وعاش** موسى فى الصحراء سنوات ، أحب خلالها عزلتها ورحابتها وسكونها .. فلقد أفسحت لافكاره مجالا تترامى فيه كما يروقها .. ووجدت طبيعته الصوفية غذاءها المثالى فى ذلك السكون الشاسع من الرمل والسماء

.. لكنه ما كان ليتمرد على طبيعة البشر التى تنشد امرأة تشاركه حياته .. وهنا تحدثنا الكتب المنزلة عن موسى حديثا شائقا : فقد شاهد فى (مديان) جماعات كثيرة تسقى ماشيتها ، ومن بينها امرأتان تذودان غنمهما عن حوض الماء فى انتظار أن ينتهى الرعاة ذوو القوة والبطش من سقى ماشيتهم ، فلما سأل المرأتين ماذا يؤخرهما والماء صاف قبل أن يتعكر ، أجابتا بأنهما لو حاولتا ذلك لمنعهما الاقوياء من الرعاة ، وليس لهما من يلزم أولئك الاقوياء أن ينتظروهما ، فان أباهما شيخ طاعن تقدمت به السن حتى لا يقوى على عمل شىء من رعى أو سقى .. فتحمس موسى للمرأتين وجاء الى البئر فاقتلع صخرة كانت تحجب أكثرها - وكان عدد كبير من أهل البلدة يجتمعون عليها ليقووا على زحزحتها ! - فلما شاهد الرعاة قوة موسى الخارقة ، التزموا الادب وتركوا المرأتين تسقيان أغنامهما حتى ارتوت ، بعد أن كانت لا تشرب الا من فضول الحياض !

ولما عادت المرأتان الى أبيهما عجب لمقدمهما السريع على خلاف ما عهد منهما فى كل يوم .. وسألهما عن السبب فأخبرتاه بأمر ذلك المصرى الذى خف لسقى أغنامهما على الفور فأتاح لهما العودة مبكرتين .. واغتبط « الشيخ شعيب » فأرسل احدى ابنتيه فى طلب موسى ، فوافته فى مكان قريب من البئر وقالت له فى خفر وحياء : « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنـــا »

وكان موسى لا يملك درهما ولا طعاما ، ففرح رغم عزة نفسه وكرامته للفرج السريع ينتشله من جوعه الشديد ، ومضى يتبع المرأة .. وحين ضربت الريح ثوبها فكشفت عجيزتها ، جعلها موسى تسير خلفه قائلا : « انا لا ننظر الى أدبار النساء .. امشى خلفى ودلينى على الطريق ان أخطأت » .. وعندما دخل على ذلك الشيخ ، رحب به شعيب وسأله عن خطبه ، فمضى موسى يقص عليه ما يفعله فرعون بالعبرانيين فى مصر ، وكيف قتـــل هو مصريا غير عامد دفاعا عن عامل من شيعته فطالب المصريون بذبحه وتآمروا عليه ، لكنه هرب منهم الى مديان .. فطيب الشيخ خــاطره وقال له : « لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين »

ووصفته احدى المرأتين لابيها بأنه قوى أمين فسألها : « لقد علمت مبلغ قوته حين اقتلع الصخرة من قمة البئر ، فماذا رأيت من أمانته ؟ » .. قالت : « كنت أمشى أمامه فلم يحب أن يخوننى فى نفسى وأمرنى أن أمشى خلفه ! » ، فازداد شعيب عطفا على موسى وتقديرا له فطلب اليه أن يخدمه بأن يرعى غنمه ثمانى أو عشر سنوات ، فى نظير أن يزوجه من ابنته !

يتزوج وينجب ولدا

◆ ووفى الرجل بوعده لموسى ، فزوجه من ابنته « صفورة » ، التى أنجبت له ابنا دعاه (جرشوم) ــ وهو اسم يدل على معنى الغربة أى أنه غريب المولد ــ وبينما كان موسى يرعى غنمه يوما ومعه زوجته ، ضل الطريق فى ليلة باردة ، وأراد أن يشعل نارا ولكن زنده ضن بالنار ، وبينما هو كذلك ، شاهد نارا من بعيد فقال لاهله « امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فأسأل من عندها عن الطريق يهدوننا » .. وظل يضرب فى الارض حتى ابتعد عن (مديان) وجاء الى ســينا ، وفوجىء موسى بنار فى شجرة ، فلا النار تنطفىء ولا الشجرة تشتعل ! وفيما هو فى حيرته سمع صوتا من وسط النار ينــاديه ، ففزع ! ولكن الصوت خاطبه قائلا : « يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس » فخلعهما موسى .. واستمر الصوت : « وأنا اخترتك فاستمع لما

يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .. وقد أكملت « التوراة » القصة على هذا النحو : « ففطى موسى وجهه لانه خاف أن ينظر الى الله ، فقال الرب « انى رأيت مذلة شعبى وسمعت صراخهم فنزلت لأنقذهم ، والآن هلم فأرسلك الى فرعون وتخرج شعبى بنى اسرائيل من مصر » قال موسى : « من أنا حتى أذهب الى فرعون وحتى أخرج بنى اسرائيل من مصر ؟! » فقال « انى أكون معك » قال موسى : « ها أنا آتى بنى اسرائيل وأقول لهم : اله آبائكم أرسلنى اليكم ، فاذا قالوا ما اسمه ، فماذا أقول لهم ؟ » قال الله : « تقول لبنى اسرائيل : اله آبائكم ، اله ابراهيم ، اله اسحق ، اله يعقوب أرسلنى اليكم » .. **قال موسى : « ولكنهم لن يصدقونى ، بل يقولون لم يظهر لك الرب .. » فقال له الرب : « ما هذه فى يدك ؟ » قال : « عصا » فقال : « اطرحها الى الارض » فطرحها الى الارض فصارت حية ، فهرب موسى منها .. ثم قال الرب : « ولكى يصدقوك أيضا ، أدخل يدك فى عبك » فأدخل موسى يده فى عبه ثم أخرجها ، واذا يده مثل الثلج برصاء ! ثم قال له : « رد يدك الى عبك » فردها ، ثم أخرجها من عبه فاذا هى قد عادت مثل جسده !! »**

وبهذين البرهانين أمر الله موسى أن يذهب الى فرعون وحاشيته من الفاسقين ، ولكن موسى خشى أن يعود الى مصر بعد أن قتل رئيس العمال ، وتوسل الى الله أن يرسل معه هارون الى فرعون ، لانه أفصح منه لسانا وأقوى بيانا ، فقال له ربه : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .. كما أمره تعالى بأن يضم يديه الى جنبيه اذا آنس من نفسه رعبا ورهبة من فرعون ، فان الله ينزل عليه عندئذ السكينة والقوة على المقاومة !

العودة الى مصر !

◆ **وعاد** موسى الى زوجته حيث تركها ثم سار بها حتى دخلا مصر ونزل بين أهله ، ولما أخبر هارون أخاه بأنه شريك له فى الرسالة السماوية ومعين له على تبليغها الى فرعون وآله ، امتثل هارون لأمر الله ، وأما أمهما فناشدتهما أن لا يذهبا الى فرعون خشية أن يقتلهما ، ولكنهما أتياه وأبلغاه رسالة الله له أن يؤمن بالله رب العالمين ، وأن يطلق سراح بنى اسرائيل ويرسلهم معهما لعبادة الواحد القهار .. **وعجب فرعون من عقوق موسى وراح يذكره بأيامه الاولى ويقول : « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من**

عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » .. قال : « فعلتها اذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » فقال فرعون : « من ربكما يا موسى ؟ ».. أجاب : « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .. فقال فرعون لمن حوله : « ألا تسمعون الى هذا الرجل الذى يزعم لكم أن هناك الها سواى ؟! ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون !! » .. فأجاب موسى : « ان ربكم هو الله الذى خلق آباءكم الاولين وخلقكم من آبائكم »

ولما طال الحاح موسى على فرعون بالدعوة الى الايمان بالله ، وهو فى ملأ قومه كى يحط من هيبته ، تجاهل فرعون هذا الاله « الجديد » الذى يدعو اليه موسى وقال لقومه انه سيتخذ الوسيلة للصعود الى اله موسى ليصفى الحساب بينه وبينه !! ولعله فهم من قول موسى « رب السماء والارض » انه موجود فى السماء لان العظيم القادر على العلو لا يهبط الى تحت .. ثم أصدر أمرا بأن يطبخ له الآجر ويبنى به صرح يصعد فيه الى السماء حتى يبلغها ويرى اله موسى الذى لا وجود له !!

ولم يكن فرعون ساذجا أو أبله ولكنه فقط أراد أن يتغفل قومه فلا يساورهم شك فى قدرته على منازلة كل اله ولو كان فى السماء !! وعهد ببناء ناطحة السحاب الى وزيره هامان . ويقال فى الاساطير ان هامان بنى له الصرح حتى بلغ نهاية ما استطاع من البناء ، ثم صعد فرعون وصوب سهما الى السماء ، ورمى به فعاد اليه مخضبا بالدماء فقال : « ها أنتم أولاء ترون أننى قتلت اله موسى !! »

يحرض عبيد فرعون على التمرد !

◆ ثم راح موسى يندس بين العبيد ويحرضهم على العصيان وعلى التمرد على مضطهديهم ، واذا بموسى الامير المصرى والراعى البدوى قد انقلب قائدا يهوديا يعد العدة لقيادة ثورة من أقدم ثورات التمرد فى تاريخ البشرية ، وتقول الاساطير العبرية ان فرعون دعاه وسأله فى صلف وكبرياء : « بأية سلطة تأتى فتلتمس أن أطلق سراح عبيدى من اليهود ؟ » فأجابه : « بسلطة الهى » .. فسأله : « ومن هو الهك هذا ؟ منذ متى هو يحكم ؟ وما هى المدن التى غزاها والسلالات التى قهرها ؟ »

ـ الهى كان قبل أن يوجد العالم ، وسيبقى بعد أن ينقضى .. أينما سار ليبسط الرحمة ، فالحنان حزامه ، والمحبة تاجه .. أما اذا سار لينشر العدالة ويدك صرح الظلم فالنار سهمه واللهيب رمحه والسحب ترسه والصواعق سيفه !!

لكن فرعون صم قلبه عن الاستماع الى صوت الله أو توسلات شعبه وظل يردد : « هناك قوة واحدة علوية فى السماء وعلى الارض .. وهذه القوة العلوية السامية هى : أنا !! »

ولكى يثبت فرعون قوته أمام الله أمر بأن يضاعف كل عامل محصوله اليومى من الطوب ، مع حرمانه من القش الذى كان يعطى له لضرورته فى طبخ ذلك الطوب ، ومعنى ذلك أن ساعات اضافية قد زادت على العناء الذى كانوا يلقونه من قبل ، فان عليهم أن يقضوا ساعات فى البحث عن القش وساعات أخرى فى مضاعفة الانتاج .. وفى المساء اذا نقصت من نصيب أحد العمال طوبة واحدة ، انتزع طفله من بين ذراعى أمه كى يحل مكان الطوبة الناقصة !!.. وهكذا كان بناة المنازل والمدن يجبرون على دفن أطفالهم أحياء فى الجدران بدلا من الطوبات الناقصة !!

السحرة يتحدون معجزة موسى !

◆ **ولما** أعيت الحيلة فرعون فى اقناع موسى وأخيه بأنه الاله الحق ، طلب آية من موسى تبين صدقهما ، فألقى هذا عصاه فاذا هى ثعبان ، ففر الناس من المجلس وفزع فرعون واستبد به الخوف .. وأدخل موسى يده فى جيب قميصه وأخرجها فاذا هى برصاء بلون الثلج ، ثم ردها كهيئتها الاولى !!

وقال الملأ من قوم فرعون : « دعه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ، لعل فيهم من يأتى بسحر مثل سحره » !.. وكان للسحر منزلة عظيمة فى أرض مصر ، يعنى به الملوك والامراء ويكافئون عليه ، فجاءوا بجمهور عظيم من السحرة كانوا مدلين بأنفسهم ، واثقين من مقدرتهم على السحر ، وعرضوا ألعابهم على فرعون بالاجر والجزاء ، فوعدهم بأن يجزل لهم العطاء . وراود السحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقى هو سحره أولا ؟ وكان الجمع حافلا وفى يوم وفاء النيل ، أعظم أعيادهم ، فقال لهم موسى : « القوا ما أنتم تلقون » .. وألقوا عتادهم من العصى والحبال فامتلأ المكان على رحبه بالحيات والثعابين ، وخيل حتى لموسى من قوة سحرهم أنها تسعى !! وابتهج فرعون وآله وجنوده وتأكد لديهم أن موسى عاجز عن أن يأتى بشىء أعظم من ذلك السحر ، اذ كان كل ما فى يده عصاه ، فاذا انقلبت حية فهى واحدة من آلاف غصت بها القاعة الفسيحة !!

وتردد موسى وأوجس فى نفسه خيفة ، ولكن الله أمره بأن يلقى عصاه ، فاذا هى حية تسعى ، واذا هى تبتلع حيات السحرة وتتلقفها ، فبطل سحر السحرة وأدركوا أن السحر لا يفعل مثل ذلك ، ولكنها القوة الالهية القادرة ، فخروا ساجدين لله وآمنوا برب موسى وهارون ، مؤثرين ذلك على اكبر اجر يرجونه من فرعون ، مستهينين باقسى عقاب يوقعه عليهم !

وأراد فرعون أن يوارى فشله وأن يستر فضيحة السحرة ، فاتهم موسى بأنه كبيرهم وأنه علمهم السحر ولذا كان أقوى منهم ، ثم أخذ يتجنى على أولئك السحرة ويقول لهم مهددا : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟!.. « **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاء من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا .. انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** »

مظالم فرعون .. والضربات العشر !

◆ **وأمر** فرعون أن يفعل ذلك بالسحرة ، فصلبوا على جذوع النخل وقطعت أيديهم وأرجلهم !.. وتمادى فرعون فى كفره وأصر على عناده ، وراح قومه يوغرون صدره ويلومون عليه أن يترك موسى وقومه يفسدون فى الارض بالامتناع عن أعمال السخرة ، فوعدهم فرعون بأن يقتل أتباع موسى ويستحيى نساءهم !.. وكلما ضج بنو اسرائيل بالشكوى من هذا الاضطهاد ، ناشدهم موسى أن يصبروا على ذلك البلاء ، وأن يستعينوا بالايمان على احتماله .. ولكن ذلك لم يرقأ دموعهم ، فقالوا له : « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » .. قال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض . » .. وراح يمنيهم بهلاك عدوهم ، وان الله سوف يخرجهم من الضيق الى الفرج والسعة .. ومضى موسى يدعو فرعون الى الايمان بالله واطلاق سراح بنى اسرائيل ، ولكن فرعون أصر على عناده وتغالى فى بطشه وعنفوانه ، فراح يذيق بنى اسرائيل أنواع المذلة وصنوف الهوان !.. فلما لم يبق فى قوس الصبر منزع ، ولم تفلح حجج موسى فى أن تلين قلب فرعون ، رغم المعجزات التى أتاح له الله أن يصنعها أمامه.. سخر الله موسى وأخاه هرون كى ينزلا بالبلاد الضربات العشر ، بادئين بهذه الضربة الاولى (والنص هنا منقول عن التوراة) : « **رفع موسى العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وعبيده ، فتحول كل الماء الذى فى النهر دما . ومات السمك وأنتن النهر . فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم فى كل أرض مصر .**

فلما لم يرضخ فرعون لطلبات موسى فيطلق سراح العبيد ، أرسل اليه الله الانذار بالضربة التالية : « **ها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع . فيفيض النهر ضفادع . فتصعد وتدخل الى بيتك والى مخدع فراشك والى سريرك والى بيوت عبيدك وعلى شعبك .**

فلما تحجر قلب فرعون فلم يستجب لانذارات الله ، سخر الرب موسى وهرون كى ينزلا بالبلاد الضربات التالية ، على التوالى :

◆ مد هرون يده بعصاه وضرب تراب الارض ، فصار البعوض على الناس وعلى البهائم . كل تراب الارض صار بعوضا فى جميع أرض مصر .

◆ ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذباب فتمتلىء بيوت المصريين ذبابا وأيضا الارض التى هم عليها .

◆ ها يد الرب تكون على مواشيك التى فى الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباء ثقيلا جدا . فماتت جميع مواشى المصريين .

◆ فأخذ موسى وهرون ملء أيديهما من رماد الاتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء . فصارت دمامل وبثور طالعة فى الناس وفى البهائم .

◆ فمد موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودا وبردا وجرت نارا على الارض وأمطر الرب بردا على أرض مصر ضرب جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وعشب الحقل وكسر جميع الشجر .

◆ فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب على الارض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل . ولما كان الصباح صعد الجراد على كل أرض مصر وغطى وجه كل الارض حتى أظلمت وكل جميع عشب الارض وجميع ثمر الشجر الذى تركه البرد حتى لم يبق شىء أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل .

◆ فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة أيام . لم يبصر احد أخاه ولا قام أحد من مكا ه ثلاثة أيام

◆ فحدث فى نصف الليل ان الرب ضرب كل مولود بكر فى ارض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه الى بكر الاسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة . فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم فى مصر . لانه لم يكن بيت ليس فيه ميت .

وتحت وطأة هذه الضربات الماحقة ، لجأ أهل مصر الى موسى ضارعين : « يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن بك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » .. ودعا فرعون موسى وهرون ليلا وقال قوموا اخرجوا أنتما وبنو اسرائيل جميعا ، خذوا غنمكم أيضا وبقركم واذهبوا . فحمل الجميع عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم وطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا فأعاروهم . وارتحل بنو اسرائيل نحو ستمائة ألف من الرجال عدا الاولاد

مع غنم وبقر ومواشي وافرة جدا . وأما اقامة بني اسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة .

هذه قصة التوراة والتلمود عن الضربات العشر . على أن المعلقين من العلماء يعطوننا صورة أكثر واقعية من هذه فينسبون تلك الاوبئة الى تزاحم أولئك العبيد اليهود في أحياء فقيرة قذرة . وقد حرص موسى على أن يحملهم بالفعل مسؤولية نشر الاوبئة في بلاد الفراعنة ، بحيث تنفس فرعون والمصريون جميعا الصعداء يوم خروجهم !

ولكن ، لم يكد القوم يبتعدون حتى عدل فرعون عن رأيه ، اذ أحس انهم كانوا من أسباب التقدم المادي في بلاده ، ومن ثم جمع جيشا وطاردهم حتى لحق بهم على شواطىء البحر الاحمر .. ولما أصبح جنود فرعون قاب قوسين ، هاج بنو اسرائيل وتقطعت نفوسهم وأنفاسهم .. وفجأة ، دوى صوت يجأر ، فيه عتب وفيه ملام ، وفيه يأس وفيه استنجاد .. صوت « يشوع بن نون » من قوم موسى يقول : **« يا كليم الله ، أين تدبيرك ؟ ها قد دهمتنا غوائل القدر فالبحر أمامنا والعدو وراءنا ، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر ! »** .. فقال موسى : « لقد أمرت بالذهاب الى البحر، ولعلني أوفر الآن مما أصنع »

المطاردة التاريخية عبر البحر الاحمر !

◆ وجاء في التوراة في وصف مطاردة جيش فرعون لبني اسرائيل يومئذ : **« فشد فرعون مركبته وأخذ قومه ستمائة مركبة منتخبة وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم . فلما اقترب فرعون رفع بنو اسرائيل عيونهم واذا المصريون وراءهم . ففزعوا جدا وصرخوا الى الرب وقالوا لموسى هل لانه لا توجد قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية . كان خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية .. فقال موسى للشعب : « لا تخافوا . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون »** .. فسرت في نفوس اليهود سارية من الامل ، ولكن بارقة الرجاء كانت تطفئها عواصف اليأس بين آونة وأخرى، وأخيرا استسلموا لقضاء الله .. وعندئذ أوحى الله الى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه ، واذا بدياجير الظلام تنجاب واذا باثنى عشر طريقا لاثنى عشر طابورا من اليهود ، واذا بالشمس والريح يبعثهما الله فتجف الارض وتتمهد السبل .. واذا بالقوم يسيرون آمنين ويهرعون الى شاطىء الامان وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالجبل العظيم ، حتى عبروا بسلام!

واستشرف القوم بعيونهم ، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليسلكوا في البحر مسالك بني اسرائيل التي عبروا منها ، حتى يلحقوا بهم فيزلوا

بهم أشد العذاب .. فغشى اليهود الغم وعاد القلق يعصف بوجدانهم ، وتطلعت الانظار نحو موسى ، وهم هذا بأن يضرب البحر بعصاه ليرجع الى حاله الاولى فيحول بينهم وبين فرعون وأجناده .. لكن الله أوحى اليه أن يترك البحر ساكنا فلا يضربه بعصاه لئلا يتغير منه شىء ، لان الله لم يشأ أن يجعل البحر حائلا بينه وبينهم فيرجعوا الى ديارهم سالمين ، بل قد سبقت كلمة الله فى هؤلاء أنهم مغرقون .

وتلفت فرعون وجنوده فاذا سبل البحر ممهدة أمامهم للحاق ببنى اسرائيل ، فانتفخت أوداجهم وأعماهم غرورهم ، وقال فرعون لجنوده : « أنظروا الى البحر كيف انفلق طوعا لامرى وانصياعا لارادتى حتى أدرك هؤلاء الخارجين الآبقين ! » .. ثم اندفع برجاله الى مسالك البحر فى طلب بنى اسرائيل ، ولكنهم لم يكادوا يصلون الى عرض البحر حتى انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين ! .. وفى الوقت الذى أدرك فيه فرعون الغرق ، قال : « آمنت انه لا اله الا الذى آمن به بنو اسرائيل » .. ويبدو أن فرعون أراد أن يدفع عن نفسه الغرق بهذه الكلمة التى نطق بها دون أن يعتقدها ، مقدرا انه بذلك يخدع موسى والهه .. « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن »

اللهم لا شماتة !

◆ وانطبق البحر فسمع لانطباقه صوت صاخب شديد .. ثم اذا بجثة فرعون (١) يلقيها البحر على الساحل ! .. وعندئذ أنشد موسى وشعبه أناشيد التسبيح لله حمدا وشكرا لموت أعدائهم المصريين .. وفى التوراة : « فأخذت مريم النبية اخت هرون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف يرقصن . وأجابتهم مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم . الفرس وراكبها طرحهما فى البحر »

لكن الله - فيما تقول الأساطير العبرية - وبخ موسى على فرحه قائلا : « كيف تنشد الترانيم وأولادى يموتون ؟ أما وقد قابلت آلام أعدائك بالفرح بدل الحزن ، فسوف يكتب مستقبلك فى لوح الاحزان ! » .. وتمضى الاسطورة فتنسب لهذا السبب كآبة موسيقى نسل موسى على الدوام !

ورغم المنة التى أغدقها الله على بنى اسرائيل ، فقد ظلت الوثنية عالقة بقلوب فريق منهم ، فلما مروا على قوم يعبدون الأصنام طلبوا من موسى ان يتخذ لهم الها كما لهؤلاء القوم !! ولم يسع موسى الا أن يلومهم ويذكرهم بأن الله الذى أنجاهم من العذاب بالأعاجيب لا يعدل عن عبادته الا من جهل واعماه الضلال !

---

(١) ترجح أكثر المصادر أن فرعون المذكور هو « منفتاح » ابن رمسيس الثانى

وعبر القوم الى سهول شبه جزيرة سيناء ، فاصلتهم شمسها المحرقة شواظا من نار ، ولم يجدوا فيها مساكن يأوون اليها أو شجرا يتفيأون ظلاله ، فشكوا الى موسى الذى دعا ربه فساق الغمام ليظلهم .. وكاد زادهم أن ينفد وتاقت نفوسهم الى اللحم فأرسل الله لهم الرياح تحمل المن والسلوى - (المن مادة حلوة تتجمع على أوراق الشجر ، والسلوى طائر السمان) - **ولما جاوزوا البحر الى الشاطىء الشرقى لم يجدوا ماء لشربهم وسقيا دوابهم فأمر الله موسى أن يضرب الحجر بعصاه ، فلما ضربه انبثقت منه ١٢ عينا لكل فريق عين تجرى بالماء - (ويغلب انها عيون موسى المعروفة بالقرب من السويس !) - ثم زهد القوم فى طعام واحد لا يتغير وطلبوا الى موسى أن يدعو الله أن يخرج لهم من الارض بقلا وقثاء وثوما وعدسا وبصلا ، فاستنكر منهم طلب هذه «التوافه» مع أن فى وسعهم الحصول على خير منها اذا هبطوا (مصر) ! .. ورغم ذلك لم يقو على ان يستنهض همتهم لمنازلة الاعداء ودخول مصر ظافرين**

اعتكاف موسى .. ونزول الشريعة !

◆ **احتاج** بنو اسرائيل بعد استقرارهم الى منهاج يسيرون عليه وشرع يركنون اليه ، فسأل موسى ربه كتابا به يهتدون والى احكامه يرجعون حتى لا يتخبطوا ، فأمره الله ان يتطهر وأن يصوم ثلاثين يوما ثم يأتى الى (طور سينا) حتى يكلمه ويلقى عليه امره فى كتاب يكون لقومه مرجعا ..



فاختار موسى من قومه سبعين رجلا ، ثم ذهب لموعده مع ربه ، ولكنه تعجل فسبقهم الى الجبل ، فوصل بعد ثلاثين ليلة - قضاها صائما - وقد تأخر عنه المختارون من قومه .. وكان موسى قد أمر أخاه هارون أن يكون خليفة على بنى اسرائيل فى أثناء غيابه عنهم وأن ينظر فى مصالحهم وشؤونهم : **وبعد تمام مدة الصوم كلم موسى ربه فقال : « مكنى من رؤيتك أو تجل لى فأنظر اليك وأراك ! » .. فقال الله : « لن ترانى ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى » .. وتجلى الله للجبل فاندك وغاص فى**

الارض ، ورأى موسى ذلك فاستغفر عن طلبه أن يرى الله وخر مغشيا عليه كمن نزلت به صاعقة ، فلما أفاق تاب وآمن انه طلب ما لا يقوى على احتماله .. وخاطبه الله بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وهى أسفار التوراة ، وبكلامه معه دون وساطة أحد من الملائكة ٠ وكتب الله ما يحتاج اليه بنو اسرائيل من بيان الحلال والحرام ، والمحاسن والقبائح ، فى ألواح ٠٠ كى يترسمها قومه فى حياتهم (اقرأ الوصايا العشر ، فى صفحة ١٣٧)

عبادة العجل !

◆ **انتظر** بنو اسرائيل أن يوافيهم موسى بعد ثلاثين يوما كما وعدهم ، فلما طال غيابه قالوا ان موسى أخلف وعده ونقض عهده وتركهم فى ليل حالك السواد ، وعندئذ تحركت فى نفس رجل يدعى « السامرى » نزوة الشر ، فاغتنمها فرصة وقال لهم : « عليكم أن تتخذوا لكم الها ، فليس موسى براجع اليكم ، لأنه خرج ينشد الله فضل الطريق ، وهذا سر ابطائه عليكم واخلاف موعده » ٠٠ وكان السامرى واثقا أن بنى اسرائيل كانوا ذوى جهالة وضعف فى الايمان ، فهم لم يتزودوا من الثقافة بما يكفى لصون عقائدهم من الزيغ ، كما انهم عاشوا فى مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس ، فاغتنم هذا الجهل واخذ حليا من النساء ثم حفر حفرة وقذفها فيها ثم أوقد نارا وصنع من الحلى عجلا ، وجعله بحيث كان له خوار ! .. ثم قال لهم : « هذا الهكم واله موسى ! » ولم تبق الا فئة من الثابتين على ايمانهم ، وخشى هارون التحزب والفتنة والانقسام ، ولكنه عبثا حاول أن يرد الخارجين وينهاهم عن عبادة العجل ، اذ قالوا : « لن نبرح نعبده حتى يرجع الينا موسى ! » ٠٠ وأخبر الله موسى أن قومه فتنوا عن دينهم وأن السامرى أضلهم ، **فرجع موسى الى قومه غاضبا محزون القلب .. وفيما هو يغلظ لهم فى اللوم ، سقطت منه الالواح التى كتبها الله له ، فانكسرت ! .. وندم بنو اسرائيل على سقطتهم ، واستغفروا ربهم .. أما السامرى الذى أشاع بينهم تلك الفتنة فقد عاقبه الله فى دنياه بأن أمر بنى اسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه وأن يهربوا منه هروب السليم من الأجرب !**

يتيهون ٤٠ عاما !

◆ **وأوحى** الى موسى أن يقود بنى اسرائيل الى الارض المقدسة ـ وهى أرض الميعاد التى وعد الله ابراهيم الخليل ان يجعلها ملكا للصالحين من ذريته والقائمين على شريعته ـ ولكن بنى اسرائيل لتوالى ظلم الفراعنة عليهم ، وترادف الاستبداد عليهم ، ذلت طباعهم وجبلوا على الخضوع

والخنوع حتى هان عليهم الهوان ، فما كادوا يسمعون كلمة الغزو ويكلفون دخول (أريحا) ليخرجوا منها الحيثيين والكنعانيين ويتخذوها وطنا لهم كثير الخيرات موفور البركات ، حتى فزعوا وقالوا لموسى فى جبن واستخذاء : « ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون » ! - وكأنما طمعوا ان يخرج القوم منها بما ألفوا من المعجزات ! - وكان موسى قد أرسل روادا يتجسسون الأرض وحال أهلها ، فرأوا من جسامة أجسام أولئك القوم ما هالهم .. فلما عادوا أخبروا بنى اسرائيل بما رأوا ، فضعفت قلوبهم على ضعفها ، وتراءى لهم شبح الهلاك ، فلما أمرهم موسى بالعبور أبوا وقالوا : « يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب انت وربك فقاتلا ، انا هنا قاعدون » .. وعندئذ تلفت موسى فلم يجد من يثق بمعونته ويعتمد على نصرته الا أخاه هارون ، فتوجه الى الله قائلا : « رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .. فاوحى الله اليه أن يدعهم يتيهون فى تلك البيداء ، يضربون فى مجاهلها ويخبطون فى نواحيها أربعين عاما حتى يفنى كبراؤهم ويهلك رؤساؤهم ، ويظهر من بعدهم جيل عزيز الجانب ، منيع الساحة ، وحينئذ يعودون الى الغزو والجهاد ..

لسان البقرة .. يرشد عن القاتل !

◆ **وكان** من وجوه بنى اسرائيل شيخ ثرى مد الله فى اسباب دنياه وبسط له نعمة الغنى ، ورزقه ابنا وحيدا تنحدر اليه بعد موت أبيه كل هذه الثروة الواسعة . وطمع ابن عمه فى ميراثه فقتله ثم راح يطلب بدمه قوما آخرين لم يجدوا ملجأ أمامهم سوى موسى يحتكمون اليه .. فسأل موسى ربه ثم أمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بلسانها فيحيا ويخبر بقاتله ! .. وظن القوم أن موسى يهزأ بهم ويسخر منهم ، لكنه نفى هذا الظن وأعطاهم أوصاف البقرة المطلوبة .. فبحثوا عنها حتى اهتدوا اليها عند صبى يتيم ، فاشتروها منه بمال وفير .. ثم ذبحوها بعد حيرة طويلة ، وتردد ، ومماطلة .. وبعد الذبح جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل فحيى وأخبر بقاتله .. ومع ذلك بقيت قلوب بنى اسرائيل على قساوتها !

مال « قارون » !

◆ **وكان** بين قوم موسى وعشيرته الأقربين رجل يدعى قارون ، قد آتاه الله بسطة فى العيش وسعة فى الرزق وكثرة فى المال ، فاجتمعت له أسباب السعادة . وكان يعيش بين قومه عيشة البذخ والترف ، يلبس الملابس

الفاخرة ، ويسكن القصور ويستكثر من العبيد والحشم ٠٠ وازدهاه المال زينة الحياة الدنيا ، فاغتر وتجبر ، وخيل اليه أن الناس جميعا من طينــة غير طينته أو أنهم ما خلقوا الا مسخرين له ، والويل لمن تحدثه نفســه منهم بالعصيان ، والحرمان لمن يقعد عن نصرته أو يتوانى عن تحقيق أمانيه !

ورأى القوم أن قارون سادر فى بغيه وطغيانه ، لا هم له الا أن يستكثر المال وان تضور غيره جوعا ، فنقموا عليه وحاولوا أن يثيروا فيه روح الخير والاحسان الى قومه ، ومسح دموع البائسين ٠٠ ولكن كان رده : « لست بحاجة الى نصحكم فأنا أرجحكم عقلا وأسدكم رأيا ، وما أوتيت هــذا المال الا لأنى به أجدر وأحق ! »

ودعاه موسى فى شدة واصرار أن يؤدى زكاة ماله الوفير وأن يحسن الى الفقراء والمعوزين ، ففى ماله حق معلوم للسائل والمحروم ، لكنه لم يصغ الى دعوة موسى بل هزأ به ورماه بالبهتان ، ورد عليه فى عنف وسخرية : « قد احتملنا منك ما احتملنا ، فقد جئتنا بدين جديد جاريناك فيه ، وأمرتنا بكذا وكذا فاستمعنا لك ، مما أطمعك فينا ، وجرأك علينا ، فلم يبق الا المال تسلبه والثروة تريد أن تستحوذ عليها ؟! انك بهذا قد دللت على كذبك وكشفت ما حاولت ستره من أمرك ، انك لساحر كذاب ! »

وحاول بالمال أن يفتن الناس ويصرفهم عن موسى ويزلزل عقيدتهم ، وجاء بامرأة فاسقة كان موسى قد نفاها لفسقها وقال لها : « أريد أن أتزوج بك وأنقذك من هذا الفقر والتشريد ، ان عملت ما أقول لك ! » ٠٠ فسألته : « ماذا تريد منى ؟ » ٠٠ فقال : « اذا اجتمع بنو اسرائيل عندى فاحضرى وقولى ان موسى دعاك الى نفسه فلم تطاوعيه فنفاك ! »

وفى اليوم التالى ، فيما كان بعض وجوه بنى اسرائيل فى حضرة قارون ، دخلت عليهم المرأة وقالت : « يا بنى اسرائيل ٠٠ هذا ما لقى الاخيار من الاشرار : اعلموا أن قارون دعانى بالامس وقال لى كذا وكذا ، وأمرنى أن أكذب على نبى الله موسى ، وكذب قارون فانمــا أخرجنى موسى من بين قومه لفسادى ، وقد تبت الى الله تعالى من ذلك ! »

فلما سمع قارون قولها تظاهر بالندم على فعلته بعد أن أنحى عليه القــوم باللائمة ٠ وبلغ موسى ما افتراه عليه قارون ، فغضب وسأل الله أن ينتقم منه ، ثم جمع قومه وقال لهم : « يا بنى اسرائيل ٠٠ ان الله قد بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون ، فمن كان منكم حليفا له فليبق معه ، ومن كان على عهدى فليعتزله ! »

فاعتزله الناس ، ودعا عليه موسى فخسف الله به وبداره الارض ، فكان عبرة لقوم موسى والمستضعفين من أتباعه ٠٠ « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها »

يعودون الى التمرد على موسى !

◆ على ان حياة موسى كانت ما تزال فى خطر ، فان الجنس الذى جاهد لانقاذه كان لا ينفك يتمرد وينقلب ضد منقذه ! ـ ولا كرامة لنبى بين قومه ! ـ وهكذا ، بينما كان موسى يتطلع ببصره الى « أرض الموعد » ، كانت أبصار شعبه لا تفتأ تستدير الى الخلف وتتلمظ حنينا الى خيرات مصر ! كان القوم يؤثرون الأمن الذليل فى ظل العبودية ، على الكفاح الكريم ـ غير المقطوع بنتيجته ـ فى سبيل الحرية ! أو قل انهم لم يكونوا يرغبون ـ وفى رأى موسى : لم يكونوا « يستحقون » ـ ان يكونوا احرارا .. **وهكذا بدأوا يتآمرون ضد الرجل الذى حررهم ! وفى البداية كان تمردهم قاصرا على مجرد « التذمر » ! كانوا ينتقدون كل حركات موسى وسكناته : اذا استيقظ مبكرا ، قالوا : « انه ينهض منذ الفجر لينفرد بأحسن نصيب من طعام المن لنفسه ! » .. واذا تأخر فى النهوض ، غمغموا : « انه مريض بالتخمة ، بسبب افراطه فى أكل المن ! » .. اذا آثر التواضع والعزلة ، شكوا من غطرسته وغروره ، ونفوره من الاختلاط بهم .. وان اختلط بهم وأكثر من تفقد أحوالهم ، قالوا انه « يحشر نفسه » فى صفوفهم استجداء لتصفيقهم !**

ثم انتقلوا من الانتقاد الى الاتهام .. اتهموه بتحريض طبقة ضد طبقة : الوضيعى المنبت ضد النبلاء ، والفقراء ضد الاغنياء ! .. وراحت صيحاتهم ضده تعلو وتشتد : « انك وانت زعيمنا قد خنتنا ! سلبتنا مباهج مصر ، وخيراتها المكفولة ، وكذبت علينا بأحلامك عن « أرض الموعد » المزعومة ، التى لن نراها قط .. لانها لا وجود لها الا فى مخيلتك ! »

ثم هددوه بقتله ، اذا لم يرجعهم الى أرض مصر !.. لكن موسى واجه متهميه بشجاعة وتسامح .. قابل تهديداتهم بالصبر ، وعدوانهم بالصفح ! غير انه فى ساعات وحدته المريرة كان يفتقد الصفح فى قلبه ، فلا يجد له اثرا .. « انهم لا يستحقون ارض الموعد .. لا هذا الجيل ولا جيل اولادهم ! »

وعرف الله ـ فيما تقول اساطير اليهود ـ افكار موسى الخفية .. فأغضبته !

وفاة موسى .. محروما من دخول ارض الموعد !

◆ **ومات** الجيل القديم فى البرية ، ونشأ جيل جديد متأهب لدخول ارض الموعد .. لكن هذه الأرض كانت قد « حرمت » على موسى ذاته ! .. فقد خاطبه الله بقوله : « **لقد حان الوقت كى ترحل من الدنيا !** » .. لكن موسى يبتهل ويتوسل الى ربه : « دعنى أقود شعبى اولا الى ارض كنعان ،

– كلا !

وعندئذ سوف أكون مستعدا للرحيل »

ويمضى موسى فى توسلاته : « لئن لم تقدر لى ان ادخل (كنعان) قائدا وزعيما ، فدعنى أدخلها كتابع من أصفر الاتباع ! »

– كلا !

– اذن فما دمت سأحرم من دخولها حيا ، فلأدخلها على الاقل ميتا ! .. دع عظامى تستريح فى أرض الموعد ..

– بل انك لن تدخلها ، حيا أو ميتا .. بسبب خطاياك !

– هل أخطأت انا ضد الله ؟ متى كان ذلك ؟

– كلا ، بل انك اخطأت ضد اخيك الانسان .. ارتبت فى جوعه الغريزى الى النور . ان الانسان جبان ، متوحش ، حسود ، شهوانى ، كذوب ، خائن ، قاتل .. ولكن ، هل انت نفسك غير انسان ؟ واذا كنت انت قد فهمت تعاليمى ، فلماذا ترتاب فى ان قومك سوف يفهمونها يوما ؟

– لكنهم بطيئو الفهم !

– امامهم الأجل كله كى يتعلموا . ينبغى ان يكون الانسان صبورا ، لانى انا – اله الرحمة – صبور معه !

وحين سمع موسى هذه الكلمات – فيما تقول الاسطورة – استكان لقدرة المكتوب ، واستسلم للموت .. فقد عرف يومئذ ان ارض الموعد ليست أرض كنعان .. وانما اى أرض يسودها العدل ، والرحمة ، والمحبة

« وأراح الله موسى فى رفق على الارض ، والتقط الروح من شفتيه .. فمات موسى فى رضى الله »

مراقبة الشئون البلدية والقروية بالدقهلية
مجلس بلدى كوم النور

تقبل العطاءات بمجلس بلدى كوم النور حتى ظهر يوم ٢٣ مارس ١٩٥٥ عن ترميم واصلاح سلخانة المجلس . وتطلب الشروط والرسومات من المجلس على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما نظير دفع مبلغ ٢٥٠ مليما ، مائتين وخمسين مليما يضاف اليها مبلغ ٦٠ مليما ستين مليما أجرة البريد ويقدم مع العطاء تأمين ابتدائى قدره (٢٪) والا فلا يلتفت اليه وللمجلس الحق فى قبول أو رفض أى عطاء دون ابداء الاسباب .

٢٣٠

مجلس بلدى طنطا

تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الاثنين ٢٨ مارس سنة ١٩٥٥ عن الاتى :

١ - توريد وتركيب جهاز لتسخين مياه السمط بالسلخانة وثمن الشروط ٥٠٠ مليم .

٢ - توريد وتركيب حنفيات زهر للمياه المجانية وثمن الشروط ٥٠٠ مليم .

٣ - توريد وتركيب أكشاك خرسانية للحنفيات وثمن الشروط ٥٠٠ مليم .

٤ - توريد فحم كوك وكرديف وثمن الشروط ١٠٠ مليم .

٥ - توريد أجهزة وأدوات لدار سينما البلدية وثمن الشروط ٥٠٠ مليم .

وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة دمغة فئة ٥٠ مليما نظير سداد الثمن المبين قرين كل منها بخلاف أجرة البريد وقدرها ٥٠ مليما لكل شروط وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ٢٪ من قيمته لا يلتفت اليه .

٢٥٦

مراقبة الشئون البلدية والقروية باسيوط

تقبل عطاءات لغاية الساعة الثانية عشر ظهر يوم الاثنين ١٤ مارس ١٩٥٥ عن عملية انشاء خزان مياه سعة ٦٠ وارتفاع ٢٠ وملحقاته بناحية باقور مركز أبو تيج مديرية أسيوط وتقدم الطلبات على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما للحصول على الشروط والمواصفات من المراقبة الاقليمية بأسيوط نظير دفع مبلغ جنيه مصرى واحدخلاف مائة مليم أجرة البريد . ويمكن الاطلاع على الرسومات بالمراقبة ويراعى أن يكون العطاء مصحوبا بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمة العطاء .

٢٥٤



اختبارات اكثر من نصف قرن !

مذكرات أغا خان

حياته.. وتجاربه.. وتعليقاته على الأحداث

تلخيص : الاستاذ محمد بدر الدين خليل

هذه المذكرات ..

◆ **احتفل فى مصر منذ أيام بالعيد « البلاتينى » للامير أغاخان ـ ضيفها فى هذه الايام ـ وقد كان مقدرا ، لولا حالته الصحية ، أن يوزن فى هذه المناسبة ويقدم له مثل وزنه من معدن « البلاتين » ، هدية له من عشيرته واعترافا منها بزعامته ومكانته ، حسبما جرت تقاليد هذه الطائفة منذ القدم ـ وكانت قد قدمت له هدايا مماثلة من الفضة والذهب والماس ، فى اعياده : الفضى ، ثم الذهبى (عام ١٩٣٥) ، والماسى (عام ١٩٤٥) !**

وقد صدرت منذ أيام ، لهذه المناسبة ، الطبعة الفرنسية من مذكرات أغا خان الشخصية التى كتبها أخيرا ، والتى ضمنها الكثير من أحداث حياته الحافلة وذكرياته عن عدد كبير من عظماء العالم وملوكه وملكاته خلال الستين عاما الماضية ـ ومن بينهم ملكى مصر السابقين فؤاد وفاروق ! ـ كما ضمنها نظرات عميقة الى تطور الاخلاق والمجتمع أثناء هذه الحقبة الطويلة من الزمن .. لذلك رأيت أن أقدم لك فى هذا العدد خلاصة مقتطفة من هذا الكتاب الجامع ، مسبوقة بكلمة تمهيدية عن مكانة أغا خان وشخصيته

الامام الذى رأس « عصبة الامم » !

◆ **كان** « أغاخان » فى الثامنة من عمره ، عندما آلت اليه المسئوليات الروحية والاعباء الدنيوية ، كامام للطائفة الاسماعيلية ، وكوريث لثروة طائلة تركها جده ـ الذى كان من النبلاء الوثيقى القرابة بالاسرة المالكة فى فارس ، اذ ذاك !.. **على أن الامام الفلام ورث الى جانب زعامته وثروته ، تاريخا عريقا ، مجيدا ، اذ كانت أسرته تنتمى مباشرة الى نبى الاسلام ، عن طريق ابنته السيدة فاطمة ، وزوجها ـ ابن عم أبيها وأحب الناس اليه ـ على بن أبى طالب ..**

ونشأ « أغاخان » ـ حتى بلغ مدارج الرجولة ـ فى ضيعته ، (أو « مستعمرته » !) فى « بومباى » ، وكانت تشغل قسما كبيرا من حى كثيف السكان فى هذه المدينة الصناعية .. وكانت هذه الضيعة وحدة قائمة بذاتها ، فيها القصور الفخمة ، والدور ، والحدائق الغناء ، وحديقة صغيرة

للحيوان ، وحظائر لايواء مائة حصان .. الخ ، وكان « أغاخان » محـاطا هناك بحوالى الألف من الاقارب ، والاتباع .. وقد ظل عشر سـنوات خاضعا لنظام دراسى صارم ، لاعداده للاضطلاع بمهام المنصب الدينى الـذى ولد ليتبوأه

وقد قام أغاخان بأسفار كثيرة ، تعرف خلالها بكثير من الشخصـيات الملكية ، والسياسية ، والثقافية .. ولعب دورا هاما فى المسائل العامة ، اذ رشحته سعة معرفته بالدنيا ، وكثرة أسفاره ، ومكانته الشخصية ، وصلاته الدولية ، لأن يقوم بدور « سفير بدون أوراق اعتماد » للحكومة البريطانية ، واستطاع بنفوذه أن يساهم فى كسب العالم الاسلامى الى صفوف الحلفاء . كما رأس الوفد الهندى الى مؤتمر المائدة المستديرة (١٩٣٠- ١٩٣١) لتمهيد الطريق لحصول الهند على الحكم الذاتى . كذلك ساهم بدور كبير فى اقامة عصبة الامم ، بل وتولى رئاستها فى سنة ١٩٣٧ !.. لكن هذه المهام الدوليـة لم تشغله عن العمل لرفاهية الطائفة الاسماعيلية التى يتزعمها ، والتى يتناثر الملايين من أتباعها فى أرجاء العالم ..

ويقترن اسم أغاخان لدى الكثير من الناس ، بسباق الخيل ، اذ ورث عن أجداده حب الخيل والعناية بتربيتها وتدريبها ، واستطاع أن يغزو بهـا ميادين السباق العالمية .

ولا عجب بعد هذا أن يقول رجل مثله جم المشاغل ، متشعب الاتجاهات ، اذ يلقى نظرة على ما انصرم من سنى حياته الحافلة : **« ما تولاني السأم لحظة فى حياتى الطويلة .. بل لقد بدا لى الوقت دائما وكأنه يطير عـلى جنـاح السرعة الهائلة ! »**

ولندع الكلمة الآن للأمير أغاخان .. فى مذكراته :

انتشار الطلاق والشذوذ الجنسى فى العالم .. فى نصف قرن !

◆ **كانت** حياتى أشبه كثيرا بـ «جسر» ممتد عبر عهود واسعة التباين.. وانى اذ أنظر اليها الآن - من وجهة النظر الغربية - أرى اننى عشت حياة حافلة فى العصر « الفيكتورى » ، وانى أعيش الآن فى العهد « الاليزابيثى» حياة كاملة أيضا .. لقد جلست الى جوار الملكة فيكتوريا فى حفلة عشاء ، وأنا شاب ، وتحدثت اليها طيلة الوقت . وجلست منذ أيام الى جوار الملكة اليزابيث الثانية فى حفلة شاى ، وتحدثت اليها طيلة الوقت ..

ولم يتسن بعد قياس مدى الانقلاب الذى عاصرته وشـاهدته ، ولكنا نستطيع أن نرى مظاهره فى كثير من نواحى الحياة الانسانية .. ففى العالم الغربى بأسره ، تعرض أسلوب الحياة لتغيرات جوهرية بعيدة المدى : **لعل**

أعظمها أن مستوى العمر قد ازداد حوالى عشرين عاما ـ وهذا ملحوظ فى أوربا وأمريكا أكثر من سواهما ـ كما انتشر الحد من ازدياد عدد أفراد الاسرة فى الطبقات العليا والوسطى فى أوربا ، فأوشكت أن تختفى الاسرة التى كانت ـ فى العقد التاسع من القرن الماضى ـ تتألف من سبعة أو ثمانية أشخاص !

.. ولم يعد الطلاق يعتبر أمرا « غير عادى » فى أية دولة أوربية ، فى حين أن رجالا بارزين ـ مثل تشارلس ديلكه ، الذى كان وكيلا لوزارة الخارجية البريطانية ـ قد اقصوا عن الحياة العامة ، أيام شبابى ، بسبب الطلاق !.. أما اليوم ، فان الرجال الذين يقع عليهم « الذنب » فى قضـايا الطلاق ، يتبوءون أكبر مناصب الدولة ، فى جميع أرجاء أوربا !

وكانت التغيرات التى أصابت وضع المرأة ـ اقتصاديا واجتماعيا ـ هائلة ! .. وبعد أن كانت العلاقات الجنسية الشاذة ـ كحب الرجل للرجل ـ تعتبر كالبرص .. صارت اليوم تلقى فى معظم الدول الاوربية ـ على أضواء آراء « فرويد » فى علـم النفس ـ عطفا ملحوظا ، أو « أعذارا » .. بل تلقى تبريرا ـ ان لم نقل تمجيدا ! ـ من رجال مثل « اندريه جيد » ..

وقد شهدت ثورات طويلة فى آسيا ضد الحكم الاوربى ، كانت فى العقد الاخير من القرن الماضى كسحابة لا تتجاوز قبضة الانسان خجمـا .. أما اليوم فقد اكتملت الثورة فى آسيا ، وانتهى الحكم الاوربى فى كل مكان شرقى الشرق الاوسط ، اسما وفعلا .. وقد عشت حتى رأيت التطور نفسه يبدأ فى افريقيا .. ولكن الطبقات الحاكمة فى أوربا الغربية قد أفادت ـ لحسن الحظ ـ من الدرس الذى ألقته عليها آسيا ، فاذا البريطانيون فى افريقيا الغربية، والبلجيكيون فى الكونغو، والفرنسيون فى افريقيا الاستوائية، يعدون الخطط لتحويل السلطان الى أيدى الافريقيين .. وهو الشىء الذى لم يكونوا على استعداد للتسليم به بسهولة ، فى آسيا !

طفولتى .. وصباى

◆ **ولدت** فى (كراتشى) فى الثانى من نوفمبر سـنة ١٨٧٧ ، ولكنى قضيت كل صباى وشبابى فى (بومباى) و (بونا) .. وكان مقر أسرتى يشغل شطرا كبيرا من أكثر أجزاء بومباى الحالية سكانا ورخاء .. وكان ذلك الجزء يضم عدة قصور كبيرة ، وما لا عدد له من البيوت الصـغيرة والمبانى .. وكان المقيمون فيها ينقسمون الى شيع وطبقات ، فلقـد صحب جدى معه ـ حين هاجر الى الهند أثناء المنازعات التى قامت بين الطامعين فى عرش فارس اثر وفاة « شاه » كبير ـ أكثر من ألف من الاقارب ، وممن كان يعول ، ومن العملاء والاتباع ، ومن الانصار السياسيين ، بينهم الخادم ،

وبينهم الامير ! .. وعلى مر السنين لم يعد هؤلاء من « اللاجئين » ، فقد أقرت محكمة بومباى العليا حقوق جدى وألقابه ، وأصبح زعيم طائفة معترفا به ، ومحترما ، واعترف الحاكم البريطانى ومندوبوه فى الهند بوضعه كأمير .. وكانت داره كعبة يقصدها الكثيرون من أنصار وأتباع الطائفة الاسماعيلية لتقديم فروض الولاء ، مما استلزم الاحتفاظ بكثير من البيوت والقصور فى « بومباى » و « بونا » للضيافة ..



أغاخان « الاول »
جد أغاخان الحالى

ثم مات جدى ، فخلفه أبى .. ولكن أبى لم يعمر طويلا ، بل مات بعد أربع سنوات من وفاة جدى ، فخلفته أنا ، فى الثامنة من عمرى .. وكنت منذ بداية طفولتى قد نشئت على الشعور بفداحة ميراثى ومسئولياتى .. **وكنت معروفا بضعف صحتى ، حتى لقد أجمع عدد من الاطباء الانجليز الذين تتابعوا على فحصى ، على اننى لن أعيش حتى أبلغ الخامسة والعشرين من عمرى .. لذلك أحاطتنى أمى بعناية موفورة**



على شاه
والد أغاخان

.. وما أن نقل جسد أبى ودفن على الضفة الغربية من نهر الفرات ـ قريبا من الكوفة ، حيث قبر جده الامام على ـ حتى أعد لى نظام جديد ، صارم ، مرهق ، لتعليمى واعدادى للمسئوليات والمهام التى ورثتها .. فعشت عبدا لهذا النظام عشر سنوات ! كنت أتناول الافطار فى منتصف السابعة صباحا ، ثم يبدأ تدريبى على ركوب الخيل ، لساعة كاملة .. ومن الثامنة الى الحادية عشرة والنصف كنت أتلقى الدروس على أيدى مدرسين انجليز وفرنسيين ، ثم أتناول الغداء ، وأستريح حتى الساعة الثانية ، كى أقضي بعد ذلك ثلاث ساعات في الدراسة العربيــة ، ثم


أغاخان
فى صباه

ألعب «التنس» أو أقوم بنزهة ، حتى موعد العشاء فى السابعة مساء .. فاذا فرغت منه ، واجهت أفظع ما كان يزعجني : ساعتين أدرس فيهمـــا الخط العربى والفارسى ! .. وكان مصدر نفورى من ذلك أننى كنت منذ مولدى قصير البصر ، لا أرى الى أبعد من بوصة أو اثنتين من طرف أنفى .. وكان الفضل في انقاذى من هذه الحال ، لأحد مدرسين ايرلنديين ثلاثة كانوا يعلموننى ، اذ أصر على أن أستعمل « نظارة » !

كنت « اسرق » الكتب !

◆ ولقد تملكنى منذ صغرى ميل نهم الى القراءة ، حتى اننى التهمت كل ما كان فى مكتبتنا ولما أتجاوز العاشرة ! ثم أخذت أتطلع الى ابتيـــاع كتب جديدة ، ولكن أمى لم تكن تسمح لى بمصروف نقدى ، فدبرت وابن عمى المحبوب « أغا شمس الدين » طريقة رائعة : كان كل منا يرتدى عباءة فضفاضة ، ونسعى الى مكتبة شهيرة فى بومباى ، فيشغل أحدنا صاحب المكتبة ، بينما يدس الآخر فى أطواء عباءته بعض الكتب ! .. لكن الرجل لم يلبث أن كشف حيلتنا ، فأفضى بها الى عمى وأمى .. وسدد حسابنا فورا بطبيعة الحـال ، ولكن الاسرة قررت أن تلقى علينا درسا : فلم يذكر لنا أحد شيئا ، حتى اذا كنا يوما فى المكتبة نمارس حيلتنا ، أقبل عمى وصاح بنا فى حزم : « اخلعا عباءتيكما ! » .. وسقطت الكتب التى سرقناها .. وكان خجلنا عظيما ! ومنذ ذلك اليوم ما أظننى أخذت شيئا دون استئذان صاحبه .. ولو وردة من بستان !

من ذكريات صباى .. وزواجى الاول

◆ ذكرت اننى كنت فى الثامنة حين نصبت - فى سنة ١٨٨٥ - اماما على الطائفة التى ينتشر أتباعها فى أرجاء الدنيا ، والتى لا يستهان بقدرها فى العالم الاسلامى .. وان هى الا سنوات قلائل ، حتى وجدتنى أمارس نفوذى وسلطتى فى مسائل ذات أهمية كبيرة فى الحياة العامة .. وباقتراب مرحلة نضوجى ، بدأت حياتى تتخذ اتجاهات مميزة لها ، وكانت أمى وعمى يشجعاننى كلما أبديت مقدرة على تحمل المسئولية .. وتفتحت لذهنى آفاق جديدة ، بفضل قراءاتى بالانجليزية والفرنسية والعربية والفارسية ..

ومن التجارب التى لا تنسى عن صباى ، مقابلتى لمارك توين - الكاتب الامريكى المشهور - وقد قضيت أصيل ذات يوم بصحبته فى الفندق الذى كان ينزل به فى بومباى ٠٠ وقد بدا لى طيبا ، لطيفا ، حزينا ، مفرطا فى التواضع بالنسبة الى شهرته الذائعة ٠٠ وقد ذكرنى بوردة من تلك الورود البيضاء التى أوتيت حساسية مرهفة ، حتى لتطوى أكمامها اذا لمستها !

وأخذت أيامى تزدحم بالمشاغل كلما أوغلت فى العقد الثانى من عمرى ٠٠ وكانت مسئولياتى مزدوجة : فى الهند ، بوصفى زعيما لفريق ذى نفوذ فى المجتمع الاسلامى ، فى فترة كانت الامانى السياسية قد بدأت لى تتفتح فيها ٠٠ والشطر الثانى من مسئولياتى ، كان بوصفى رئيسا لجماعة دولية لها أتباع موزعون على نطاق واسع ، وكانت زعامتى الروحية تبسط سلطانى على قلوب كثير من الشعوب والبلدان ٠٠ وقد اتجهت كل أعمالى ، فى السياسة والديبلوماسية ، فى هذين النطاقين ، طيلة عمرى ٠٠

وبانتهاء عام ١٨٩٥ وابتداء عام ١٨٩٦ ، وقفت على أعتاب الرجولة ، وأصبح زمام حياتى فى يدى ، **فاتجه ذهنى - ككل الشباب الذين فى سنى فى الشرق - الى الزواج .. وتلفت حولى فى الاسرة ، فوقع اختيارى على « شاهزاده » زميلة صباى ٠٠ وكان أبوها عمى وأحد الناصحين الذين اتخذتهم قدوة فى باكورة عمرى ٠٠ ولقد قيل - ظلما وافتراء - ان زواجنا كان « زواجا سياسيا » ، فى حين أنه لم يكن أبعد عن الصدق من هذا الزعم .. فقد كنت أنا الذى اخترتها ، عن حب ٠٠ ولكن الاشجان سرعان ما اكتنفتنى وعروسى : كان كل منا جاهلا ، وساذجا ، مما أوجد بيننا « هوة » كانت المعرفة كفيلة بأن تسدها ، لو أنها استغلت فى حكمة ولباقة ٠٠ ولكنا كنا خجولين ، وكانت السذاجة تمنعنا حتى من السعى لمعرفة كيف نصل الى هذه المعرفة ! .. ولم يكن الحنان ، والحب الحائر ، كافيين لاخراجنا من هذا المأزق الحرج .. وخيل الى أن الذنب كان ذنبى فى قيام الأسى وسوء التفاهم بيننا ، فضاعف هذا من شغفى بزوجتى ٠٠ ولكن الحيرة والتخبط العاطفيين لديها ، لم يجدا فى هذا الشغف عزاء ٠٠ وهكذا اتسعت الهوة ، حتى لم يعد ثمة مفر من انفصالنا ٠٠ فعاشت هى فى ندم ، بينما انصرفت أنا الى الحياة العامة ٠٠**

جولتى الاولى فى أوربا

◆ **كنت** قد تجاوزت العشرين من عمرى بقليل ، حين سافرت الى أوربا للمرة الاولى ٠٠ (وان الانسان ليشعر اليوم - فى هذا العهد القلق الذى ضعضعته الحرب - بحنين طاغ الى ما استمتعت به أوربا الغربية فى العقد الاخير من القرن الماضى ، من مباهج وطمأنينة !)

كانت (مارسيليا) أول رقعة من أرض أوربا وطأتها قدماى ، ثم قصدت منها رأسا الى (نيس) ، حيث كانت جميع فنادق « الكوت دازور » مزدحمة ، من فرط اجتماع ابناء البيوت المالكة والامراء والوجهاء الأوربيين ، فى تلك الرقعة الساحلية الساحرة .. ومكثت فى « الريفييرا » عشرة أيام ، ثم رحلت الى باريس .. وبعد أسبوعين ، يممت شطر لندن .. وكنت – حتى الآن – أسافر كشخصية مغمورة ، ولكنى لم أكد أصل الى عاصمة الامبراطورية ، حتى وجدت فى استقبالى مندوبا عن الملكة ، وآخر عن وزارة الخارجية ! ولم ألبث أن زارنى فى الفندق « دوق كونوت » ، الذى مكث معى طويلا – فان اهتمام الاسرة المالكة البريطانية بى ، ورعايتها لى عن كثب ، بدآ من تلك الايام – ثم دعيت فى الوقت المناسب الى المثول بين يدى جلالة « الملكة » فى قلعة وندسور ، فتلقتنى فى أقصى درجات الحفاوة والتلطف .. ولم يشهد المقابلة غير الدوق كونوت ، فلم أشعر بالخجل يطغى على ، بل قبلت اليد التى بسطتها لى الملكة .. **وفى تلك المقابلة منحت لقب « سير » ، لكن الملكة راعت أن لا أركع أمامها لتمس كتفى بالسيف – كما يقضى التقليد المتبع عند منح اللقب – نظرا لأنى أمير ، وأنحدر من سلالة ملوك عديدين ، فأثر اعتبارها هذا وكرمها فى نفسى !.. ثم دعيت الى أن أبيت الليلة فى القلعة ، وأن أتناول العشاء مع جلالتها .. وكانت هذه أيضا تجربة لا تنسى ، فقد تحدثت الى الملكة ، لا سيما عن الهند ، وعن معاملة كبار الموظفين البريطانيين للأمراء والاعيان من الهنود ! – وكان يقوم على خدمة الملكة والضيفين اللذين الى يسارها ويمينها – أنا ووزير المالية – خدم من الهنود ! – وأكلت الملكة وشربت كثيرا ، رغم سنها .. وبعد العشاء انتقلنا الى غرفة جلوس ملكية ، وأهدتنى صورة لها مرصعة بالجواهر .. حتى اذا كان الصباح التالى أرسلت لى كلمة كتبتها بيدها بالحروف العربية والاوردية !**

وتعرفت خلال تلك الزيارة على عدد من أعضاء البيت المالك البريطانى ، وفى مقدمتهم طبعا ولى العهد – الذى أصبح فيما بعد الملك ادوارد السابع – وقد كان حفيا بى من البداية ، حتى انه ضمنى الى ناديه الخاص – نادى « مارلبوره » – وكانت عضوية هذا النادى ذات قيمة اجتماعية وشخصية خاصة ، اذ تشير الى أن صاحبها صديق « شخصى » لولى العهد ! – (ولقد شرفنى الملك ادوارد السابع فيما بعد بصداقة حارة خلال العقد الاخير من حياته .. ولو بحثت عن كلمة تلخص شخصيته ، لكان لفظ « طيب » أو « محب للخير » أصلح وصف له .. كان يعنى عناية فائقة بالعمل على تخفيف الآلام ، فلم تكن رعايته للمستشفيات مجرد واجب بحكم مكانته الملكية .. وكان على قدر كبير من اللباقة في كبير المسائل وصغيرها .)

زياراتى الاولى للشرق الاوسط

◆ **وسعت** التجارب التى اكتسبتها فى لندن وخلال رحلتى فى أوربا ، آفاق فكرى ، وأذكت اهتمامى - الذى كان فى ازدياد - ورغبتى فى أن ألعب دورا فى عالم السياسة والديبلوماسية .. وكنت أثناء صحبتى للاصدقاء المتصلين بالمسائل السياسية ، قد رأيت حركات ديبلوماسية كبيرة الاهمية ، وهى بعد فى طور التكون .. فلما انتهت جولتى الاولى فى أوربا ، رحلت الى افريقيا الشرقية ، حيث كانت فى ارتقابى بعض مهام دقيقة تحتاج الى مهارة ديبلوماسية كبيرة ، اذ كانت ثمة جاليات اسماعيلية على الساحل ، أخذت تنمو سريعا - عددا وثروة - وقد اشتبك بعضها فى منازعات مع السلطات المحلية .. ولم تكن بذور المشكلات السياسية والاجتماعية المقبلة ، بأقل ظهورا اذ ذاك من بوادر الرخاء الاقتصادى التى لاحت فى افريقيا .

ومن افريقيا الشرقية ، عدت الى أوربا ، حيث أمضيت وقتا قصيرا فى الجنوب والشرق ، **ثم عرجت - فى طريق عودتى الى الهند - على مصر فزرتها للمرة الاولى . والذين لم يكن لهم حظ الوقوع فى سحر مصر ، لن يصدقوا بسهولة اننى منذ ذلك الحين أفردت فى قلبى ركنا خاصا لمصر .. وكانت تلك فترة أحداث دقيقة ومثيرة ، اذ كان انتصار كتشنر فى « أم درمان » لا يزال فى الأذهان .. وزرت اللورد كرومر - المعتمد البريطانى فى مصر ، الذى كانت له السلطة العليا اذ ذاك - فكان مما قاله لى ان مصر فى أشد الحاجة الى مصلح دينى .. اذ كانت ثمة هوة واسعة فى ذلك الوقت بين المسلمين المحافظين الذين يتشبثون بالعربية ، ويسخطون على العلوم والفنون .. وبين الطبقات العليا المتأثرة بالثقافة الفرنسية ، والتى لا يقرأ أفرادها سوى الروايات الفرنسية الصفراء ، ولا يجتمعون الا فى الاندية ، ولا تسلية لهم سوى لعب الورق والمقامرة ، ولا حنين الا الى عودة حكم الخديو اسماعيل !**

وكانت القاهرة اذ ذاك تبز الهند كمعقل للسيطرة البريطانية ، فلم يكن البريطانيون يتحكمون فى سياسة البلاد فحسب ، وانما كانوا يستأثرون أيضا بمكانة اجتماعية رفيعة ، بدا ان المصريين تقبلوها فى انصياع .. ولم يكن ثمة صلات سياسية ، أو عسكرية ، أو تجارية بين الجالية البريطانية ، وبين الطبقة الراقية ، أو الطبقة المتوسطة الغنى فى القاهرة أو الاسكندرية .. بل لم تكن ثمة صلات اجتماعية البتة .. ومن ثم لم يكن هناك مفر من أن ينمو خلف الانصياع الظاهرى ، نفور وحقد ، زادا من مرارة الصراع الذى قام فيما بعد بين الوطنية المصرية ومصالح بريطانيا كدولة محتلة .

مقابلاتى للشاه .. وغليوم .. والسلطان عبد الحميد !

◆ **وعدت** الى أوربا فى سنة ١٩٠٠ ، سنة معرض باريس الكبير ، وهناك التقيت بالشاه « مظفر الدين » ، شاه فارس .. وفى رأيى أن أى عاهل فارسى لم يلحق ببلاده أذى قدر ما ألحقه هذا الشاه ! كان ضعيفا ، معلولا ، جاهلا .. وقد سمع وهـــو فى باريس عن مسيو ومدام كورى ، وعـن اكتشافهما للراديوم ، فطلب أن يرى « الراديوم » أثناء توهجه .. وجاء العالمان النابهان بنفسيهما الى الفندق .. وأغلقت جميع نوافذ «البدروم» ، وأسدلت عليها ستائر سوداء .. وما ان أضاء الحجرة توهج الراديوم ، حتى استولى على الشاه خوف مفاجىء ، فراح يصرخ ويصيح ويجرى فى الحجرة وهو يهذى ، ويتهم العالمين بأنهما حاولا قتله !

ومن باريس رحلت الى برلين ، حيث حظيت بلقاء القيصر غليوم الثانى فى « بوتسدام » ، وقد أنذرت قبل اللقاء بأنه شديد الحساسية فيما يتعلق بتشوه تركيبه الجسدى ، ويكره أن ينظر أحد الى ذراعه اليسرى التى كانت متقلصة .. وكاد وهو يصافحنى أن يهشم يدى ، وكان هذا من المظاهر التى يعوض بها القيصر عجزه ، فقد آلى على نفسه منذ الصغر أن يقوى يمناه حتى تؤدى عمل اليدين معا !

وذهبت الى القسطنطينية فى العام ذاته ، فاستضافنى السلطان عبد الحميد فى فندق « بيرا بالاس » ، وحظيت بلقاء طويل معه فى قصر يلدز .. كان السلطان خليفة واماما للمذهب السنى فى العالم الاسلامى ، وكنت من ناحيتى رئيسا للطائفة الاسماعيلية ، وهى قسم من المذهب الشيعى .. وكان عبد الحميد يعيش اذ ذاك فى خوف متهوس من أن يغتال .. كما انه كان مفرطا فى التدخين ، بينما كنت طيلة عمرى أكره دخان السجاير .. وما أن دخلت الى حضرته ، حتى أغلقت الابواب فورا ، ولم يبق معنا سوى مترجم .. وعبق جو الغرفة بالدخان .. وما لبثت أن تبينت انه كان يرتدى حلة عسكرية مصفحة لا ينفذ خـلالها الرصاص .. وعجبت فى نفسى : أتراه حسب اننى جئت لأقتله ؟!

تسع سنوات حافلة بالاعمال

◆ **سافرت** الى لندن لحضور الاحتفال بتتويج « ادوارد السـابع » ، بعد موت الملكة فيكتوريا .. وعندما عدت الى الهند فى نوفمبر سنة ١٩٠٢ ، وجدت خطابا من اللورد كيرزون ـ نائب الملك ـ يعرض على فيه أن أغدو



الصبى « موسى » وقد خبأته أخته فى نهر النيل !

(عن لوحة للرسام الفرنسى بول ديلاروش ١٧٩٧ – ١٨٥٦

.. اقرأ المقال عن حياة موسى فى هذا العـدد)



الملاك يبشر العذراء مريم بحملها بالمسيح !

(لوحة مشهورة لـ«بوتيتشيللى» رسمها عام ١٤٩٠ ، وتعرض بمتحف أوفيزى بفلورنسا)



أغاخان
في شبابه

عضوا فى مجلسه التشريعى .. وكان هذا شرفا عظيما لشاب فى العقد الثالث من عمره .. واضطرنى القبول الى الاقامة فى كلكتا - عاصمة الحكم البريطانى فى الهند - عامين .. لكنى رفضت تجديد العضوية لدورة ثانية .. وقد كان لهذين العامين أثر كبير ، وباق ، على حياتى وشخصيتى : فللمرة الاولى فى حياتى حظيت ببيت خاص لى ، وبالحياة الاجتماعية العادية لرجل فى مركزى . ووجدت نفسى أعمل جنبا الى جنب مع رجال ذوى شهرة ومكانة .. وصرت أعلق أهمية كبرى على تقدم التعليم فى البلاد ، فقد رأيت فى الامية خطرا على الشعب والحكومة ، وفى الفقر والمرض نتيجتين لها ، وصنوين فى الخطر ..

وفى الوقت ذاته رحت أعمل جاهدا للتقريب بين المسلمين والهندوكيين، ولكن الخيبة التى أصيبت بها هذه الجهود ، انتهت بى وبغيرى من الزعماء المسلمين ، الى أن بات أملنا منحصرا فى أن نحظى من الحكومة البريطانية باعتراف باستقلالنا عن بقية الهند ، فنصبح أمة داخل أمة .. وقد أيدنا الزعيم الاسلامى الهندى « السيد أمير على » ، فى سعينا لانشاء هيئة اسلامية منفصلة .. (وقد أعقبت ذلك سنوات حرجة ، وأحداث معقدة ، انتهت بعد أكثر من أربعين عاما الى انقسام الهند الى دولتين !)

وعدت الى زيارة أوربا فى صيف سنة ١٩٠٤ ، ثم قمت فى العام التالى بثانية زياراتى لشرقى افريقيا .. وفى شتاء سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ عدت الى الهند فى الوقت المناسب لأكون فى شرف استقبال ولى العهد (المرحوم الملك جورج الخامس) فى كلكتا ، أثناء زيارته للهند .. وقد قامت بينى وبينه وزوجته - الملكة مارى - صداقة طويلة الامد .. وتنضح ذكرياتى عن هذين الزوجين الصالحين ، الجليلين ، بالدفء والوداد ، حتى انى ظللت أفخر بصداقة الملك - واحتفظت بها - حتى نهاية عمره .. وقد منحنى ما سبق أن منحنى أبوه من ثقة ، فكان يتحدث الى بصراحة تامة فى كل الموضوعات ، من شخصية ، وسياسية ، ورياضية ، واجتماعية ..

تشرشل كما عرفته !

◆ وزرت انجلترا مرة أخرى فى صيف سنة ١٩٠٦ ،وكانت تتولى الحكم وزارة الاحرار ، وبين أعضائها ونستون تشرشل .. ولقد ربطتنى به صداقة منذ أكثر من نصف قرن ، **ولعل أروع ميزة ظاهرة فى أخلاقه هى أنه أوتى القدرة على أن يتعلم من التجارب ، فاذا تعلم محا الصفحة القديمة . وهو يجمع فى شخصيته القوية بين ناحيتين متعارضتين : التفسير الخيالى ، العاطفى ، الشاعرى للتاريخ .. والسياسة الصلبة المبنية على الحساب الدقيق ، الهادىء !.. وكلما ناقشته فى المسائل السياسية ، ازددت اعجابا بما فى نظرته من واقعية عملية فذة .. وهو لا يجعل من نفسه قط عبدا لآرائه القديمة ، أو لرغباته ولأحلامه ، وانما يجعل من نفسه سيدا مسيطرا عليها !.. ومن العسير التفكير فى ونستون الشاب ، دون تذكر أمه .. فقد كان جمالها ، وجلالها ، وذكاؤها ، من نوع يعتبر الآن ضربا من الخيال !**

وفيما يتعلق بالهند ، أذكر أن اتجاه تشرشل أيام مؤتمر الدائرة المستديرة ، كان يؤكد اصراره على معارضة الاستقلال الداخلى للهند .. ومع ذلك ، فقد كان هو نفسه الذى أوفد سير ستافورد كريبس الى الهند فى سنة ١٩٤٢ بتعليمات لا تؤدى الا الى الاستقلال التام ، وقيام الجمهورية الهندية فى نطاق « الكومنولث » .. وقد قال لى بنفسه مرة : « نصف الرغيف خير من لا شىء ! »

وقد كان المسلمون فى الهند موضع تجاهل من البريطانيين ، بكل ما للتجاهل من معنى سياسى .. بيد أن اللورد « مينتو » لم يلبث - فى سنة ١٩٠٦ - أن وافق على استقبال وفد من المسلمين كنت على رأسه ، فطالبنا بعدم اعتبار مسلمى الهند مجرد أقلية ، وانما هم أمة داخل الامة ، فلا بد من أن يكفل لهم الدستور حقوقهم وواجباتهم .. وطالبنا بأن يكون لنا مندوبون مستقلون فى الهيئات المحلية والمجالس التشريعية .. الخ .. فمن تحسب كان أشد معارضينا فى سنة ١٩٠٦ ؟ كان محاميا مسلما بارزا فى بومباى ، ذا مستقبل وسمعة ، يدعى المستر محمد على جنه (جناح) ! .. وكنا دائما على صداقة ، ولكنه فى هذه المناسبة شن علينا حملة شعواء، فقد كان يرى استقلال المسلمين بدوائر انتخابية معناه اشاعة الفرقة فى الامة ذاتها .. وقد ظل معارضا للفكرة زهاء ربع القرن ، ثم شاء له القدر أن يكون زعيم الثمانية الملايين من المسلمين الذين أحرز بهم الفوز باقامة دولة باكستان المستقلة ، وهى الغاية التى عملنا من البداية من أجلها بطريقة غير مباشرة ، ودون أن نفطن ..

زوجتي الثانية

◆ ومنذ سنة ١٩٠٧ اعتدت أن أزور أوربا في كل عام .. وكنت منذ الزيارة الاولى قد أحببت « الريفييرا » الفرنسية ، وقد ازداد حبي لها ونضج مع السنوات .. وفي سنة ١٩٠٨ صادف هذا الحب هدفا شخصيا، اذ التقيت بالآنسة « تيريزا ماجليانو » ، وكانت من أبرع راقصات « الباليه » في مونت كارلو ، وقد أجمع أساتذة « أوبرا باريس » و « لاسكالا » بميلانو على أن أمامها مستقبلا باهرا .. وكانت في التاسعة عشرة من عمرها .. وسرعان ما وقعنا في الحب الى أعمق أغواره ، فصحبتني الى القاهرة حيث تزوجنا وفقا للشريعة الاسلامية .. وقد وفر لي هذا الزواج حالة من الرضى الروحي والذهني .. كما فتح لي أبواب عالم جديد مترامي الاطراف ، عالم الفن ، فقد تحولت زوجتي - اذ هجرت المسرح - الى دراسة الرسم ، ثم النحت .. وقد أحرزت قبل موتها في سنة ١٩٢٦ ، شهرة ملحوظة كناحتة تماثيل موهوبة !

والواقع انه كان في مقدمة ما احببت في عالم الفن : الموسيقى ورقص الباليه .. وقد وجدت مصدرا للسعادة لا ينضب ، في الموسيقى ، والباليه والاوبرا ، والمسرح .. وفي النحت والاثاث ، كان ذوقي مصريا محضا .. واني لأفخر بأن بين أصدقائي المقربين ، كثيرا من كبار الفنانين في هذا القرن ..

مولد ابني « علي » .. ورحلتي الى روسيا

◆ كانت السنوات من ١٩١٠ الى ١٩١٤ حافلة بالعمل ، والنشاط ، والفرح ، والأسى .. وكانت زوجتي تعيش معظم الوقت في فرنسا ، وقد أنجبت لي ابني الاول في سنة ١٩٠٩ ، ولكن حياته كانت قصيرة انتهت في فبراير سنة ١٩١١ . ثم ولد ابني « علي » في يونيو من العام نفسه ، ولكن هناءة زوجتي بمولده اقترنت بالمسئولية والهم ، اذ كان ضعيف البنية ..

وعدت في خريف ١٩١٢ الى أسفاري ، فيممت في هذه المرة شطر روسيا .. ولم تكن الحياة الارستقراطية في انجلترا وكثير من الدول الاوروبية ، لتقارن في شيء بالرفاهية والبذخ والاسراف التي كان ارستقراطيو روسيا ينعمون بها في سانت بيترسبورج ، كما رأيت في ذلك الشتاء !

وعلى الرغم من انني شاطرت شقيق القيصر وأبناء عمه ، وضباطه ، سهراتهم وحفلاتهم ومآدبهم ، الا انني لم احظ قط بلقاء القيصر ، اذ كان

يعيش فى عزلة غريبة ، ازدادت فى السنوات الاخيرة من عهده الحزين ، المضطرب .. كان عصبيا ، خجولا ، يميل بطبعه الى الاكتئاب .. وكانت زوجته تقية ، تتعلق بالخرافات ، فهى بعيدة عن الحقيقة .. أما ابنه وولى عهده ، فكان ضعيفا ، رقيق البنية ، معلولا .. فكانت كل ظروف حياة القيصر تجمع على دفعه الى عزلة كئيبة ..

مهمتى الدبلوماسية .. فى الحرب العالمية الاولى

◆ كنت فى (زنجبار) حين أعلنت بريطانيا الحرب على المانيا فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ ، فكان أول ما خامرنى أن أبادر بالسفر الى انجلترا بأسرع ما يمكن ، لأعرض خدماتى . وأبرقت الى أتباعى فى جميع الاراضى البريطانية وعلى حدودها بأن يقدموا كل ما فى وسعهم من عون الى السلطات البريطانية فى مناطقهم .

وبلغت لندن فى منتصف سبتمبر .. فزرت لورد « كتشنر » وزير الحرب ، وكنت أعرفه من الهند .. كان على بينة بالشرق ، وكانت الحكومة التركية تبدو عاجزة عن اتخاذ قرار فى موقفها من الحرب ، من تلقاء نفسها .. فى الوقت الذى كان فيه من الضرورى لبريطانيا أن تضمن شريان الامبراطورية ، واعنى به الطريق المائى من البحر الابيض المتوسط الى قناة السويس الى البحر الاحمر الى المحيط الهندى .. لذلك رأى كتشنر أن مكانى ليس بين الرتب العسكرية وانما فى ميدان الدبلوماسية ، وسألنى أن استغل كل نفوذى لاقناع الاتراك بالتزام الحياد !

فلما أعلنت تركيا « الجهاد » - الحرب الدينية - لتبرير عدوانها الذى لا مبرر له ، تبلور استيائى وخيبة أملى فى كراهية مريرة ضد حكام تركيا ، لحماقتهم التى لا تتمشى مع الدين فى شىء !.. وعمدت ، بالاشتراك مع الزعماء المسلمين الآخرين ، الى توجيه نداء مخلص الى العالم الاسلامى بأسره ، أهبنا به فيه أن لا يلقى بالا للجهاد المزعوم ، وأن يؤدى واجبه بالوقوف الى جانب الحلفاء الغربيين ..

وكانت مصر فى الحرب العالمية الاولى - كما كانت فى الثانية - قاعدة عسكرية عظيمة الاهمية لبريطانيا وحليفاتها .. فما أن حانت بداية سنة ١٩١٥ حتى رابط عدد من القوات البريطانية ، والهندية ، وقوات الدومنيون - فى مصر - وأخذت تزداد باطراد .. وكان لا بد من توفير أقصى استقرار سياسى داخلى فى مصر .. ولكن ، لم يكن بين زعماء مصر السياسيين رجل كفء ، وكان الخديو نفسه - عباس حلمى - غائبا .. وفى القسطنطينية بالذات .. وبما أنه لم يعد عندما دعي ، فقد اعتقد الحلفاء انه موال

للالمان ، وبدأت دعاياتهم تصوره فى هذا الوضع .. على اننى وقد عرفته فى منفاه ، اقتنعت بانه كان مظلوما !

وأدى الوضع الى تبلبل فى مصر ، لا سيما لدى الرأى العام المسلم ، فأوفدت لتهدئة الرأى العام .. وكان لا بد أولا من كسب ود الاسرة المالكة .. وكان هناك السلطان الذى عين فى غياب عباس .. وأخوه الامير فؤاد - الملك فؤاد فيما بعد - وكان هناك أيضا العلماء المسلمون .. والعامة الذين كانوا جهلة أميين فى الغالب . وحققت بعثتنا ما أوفدت من أجله ..

مشكلات ما بعد الحرب ..

◆ لم تنقض الحرب دون أن تخلف آثارا فى الهند ، فان المساهمة التى كانت قد قدمتها للحلفاء فى الحرب جعلت الحكومة البريطانية تقرر زيادة نصيب الهنود من الوظائف فى جميع فروع الادارة والهيئات الحاكمة، توطئة لاقامة حكومة «مسئولة» فى الهند ، كجزء لا يتجزأ من الامبراطورية .. مسئولة أمام من ؟ .. أمام الحاكم أو نائب الملك ، ومن ثم أمام بريطانيا وبرلمانها ؟ .. أم أمام الناخبين والشعب ؟

وكنت متحمسا فى سنة ١٩١٩ لوجوب قيام اتحاد فى جنوبى آسيا ، يضم الدول ذات الحكم الذاتى ، من شبه جزيرة الملايو حتى أطراف مصر ، فى نطاق الامبراطورية .. وبدا لى اذ ذاك - ولا يزال يبدو لى الآن - ان مثل هذا الاتحاد لو قام ، لكان فيه خير حل لمتاعب العالم .. بيد أن الموقف فى الهند لم يلبث أن تطور من سىء الى أسوأ .. وحاولت أن أكبح الجماح - لا سيما بين أتباعى المسلمين - ولكن الموقف استفحل .. وسئلت ان أقبل عضوية لجنة فى لندن لاعادة تنظيم وزارة الهند البريطانية، وعلاج الاختصاصات المتشابكة بينها وبين وزارة الخارجية .. وكنت فى الوقت ذاته أبذل جهودا سياسية مرهقة للحيلولة دون تقسيم الامبراطورية التركية ، وللوصول الى تسوية عملية عادلة فى الشرق الادنى والاوسط .. ولكن التقسيم كان مقدورا على المهزوم !

وكانت سنة ١٩٢٤ خاتمة مرحلة من حياتى العامة ، تألفت من خمس أو ست سنوات حافلة بالارهاق . وظللت حتى سنة ١٩٢٩ منصرفا الى حياتى الشخصية الخاصة ، والى الاكتفاء بمراقبة الاحداث العامة .. وفى تلك السنوات تضاعف سلطان المهاتما غاندى ونفوذه فى حزب المؤتمر ، وصار نهرو - الاب والابن - من المقربين اليه ..

(ثم خصص « أغا خان » الفصل التالى من كتابه للحديث عن الاسلام وعن تاريخه ، وعن الطائفة الاسماعيلية ، كما خصص الفصل الذي يليه للحديث

عن سباق الخيل ، وخيوله الخاصة ، وما لاسرته من تاريخ فى تربية أصائل الخيل ٠٠)

شائعات الصحف عن زوجتى الثالثة !

◆ وماتت زوجتى فى أواخر سنة ١٩٢٦ ٠٠ وفى أوائل سنة ١٩٢٨ خطبت الآنسة أندريه كارون ، من شامبيرى ، فى اكس ليبان ٠٠ وكنت قد عرفتها وأهلها منذ أربع عشرة سنة ، حين كانت فى السادسة عشرة من عمرها ٠٠ ولقد ترددت طويلا قبل أن توافق ، ولم يتم قراننا الا فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ٠٠ **ومن الخرافات السخيفة التى خلقتها الصحف وأشاعتها ، اننى قابلتها وهى تبيع الشيكولاتة فى متجر للحلويات ! ٠٠ ولم يكن فى هذا كلمة صدق واحدة ٠ والذى حدث انه لم يكد يذاع اننى سأتزوج من فتاة تدعى «مدموازيل كارون» ، حتى سارع الصحفيون الى «شامبرى» يبحثون عمن تدعى «مدموازيل كارون» ٠٠ووقعوا أخيرا على بائعة للحلوى بهذا الاسم ، لم تكن قد رأتنى من قبل ٠٠ أما فتاتى ، فكانت تملك قبل ذلك بسنوات محلا للازياء فى باريس مع أختها ٠٠**

وكان زواجنا وثيقا ، سعيدا ، طويل الاجل .. وقد رزقت منها بابنى الثانى « صدر الدين » الذى ولد فى ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ ٠٠

وفى تلك الاثناء ، اجتذبتنى السياسة والحياة العامة مرة أخرى ٠٠ اذ أعد حزب المؤتمر فى سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ مشروعه للحكومة الذاتية ولوضع الهند كدولة من أملاك التاج ٠ وقد تجاهل فى ذلك الرأى العام الاسلامى، ومن ثم عقد مؤتمر مسلمى الهند فى دلهى فى آخر سنة ١٩٢٨ ، وأستطيع أن أقول اننى كنت «أب» قراراته السياسية الهامة ، الباقية ، التى أصرت على حق المسلمين فى أن يكونوا ممثلين فى الهيئات التشريعية وحكومات الولايات الهندية ٠٠ وكان الاجماع الذى تبدى فى هذا المؤتمر سببا فى ان ارتد مستر « جنه » واتفق مع زملائه المسلمين !

ملك مصر الاسبق « فؤاد » يبكى أمامى !

◆ وأمضيت الاشهر الثلاثة الاولى من سنة ١٩٢٩ فى مصر٠٠وكان المندوب السامى البريطانى فيها هو اللورد لويد ، الذى عرفته مذ كان حاكما لبومباى ٠٠ كان استعماريا صلب الرأس ، وما لبث ان اصطدم مع حكومة بلاده فاستقال من منصبه ٠٠

وآثرنى الملك فؤاد ـ الذى كنت قد عرفته أكثر من ثلاثين عاما ـ بأن دعانى لزيارته ، واستقبلنى على حدة فى قصر عابدين ، حيث دار بيننا حديث صريح ، وان كان محزنا ٠٠ كان الملك اذ ذاك رجلا مريضا ،

وان لم يتبين أحد خطورة مرضه .. ولقد بكى وهو يشكو لى كيف كان مهملا ، يصر المندوب السامى على أن يرفض السماح له بأن يكون له رأى فى حكم بلاده .. وقال لى : « ان لويد يجذب الخيوط ، فترقص الدمى.. لقد أحال كرومر «عباس» الى ألعوبة ، أما لويد فيحيلنى الى جسد ميت!»

ولعل ما حدا بلويد الى هذا التصرف ، هو أنه لم يجد حدودا معينة واضحة تفصل بين سلطات الملك ، وسلطات الوزراء ، وسلطات المندوب السامى البريطانى .

واستغرقتنى السياسة والمشكلات السياسية الهندية ، وما كان بين المسلمين والهندوس من خلافات فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد اجتماعات كثيرة طويلة ، لم تثمر الا نتائج قليلة ..



أغاخان بين المهاتما غاندى ومسز ساروجينى نايدو فى لندن عام ١٩٣١

أما حياتى الخاصة ، فظلت فى تلك الاثناء هادئة . وفى أواخر سنة ١٩٣٣ ، قامت زوجتى الاميرة «أندريه» بأولى زياراتها للهند بصحبتى ، تاركة ابننا «صدر الدين» فى جنوب فرنسا . ثم عدنا الى «كان» فى أبريل سنة ١٩٣٤ لنجده كامل الصحة ، قوى البنية ..

ومرة أخرى وجدتنى فى غمرة السياسة ، اذ لم يلبث أن عقد مؤتمر المائدة المستديرة الثالث ..

دورى فى عصبة الامم !

◆ **بانتهاء** مؤتمر سنة ١٩٣٤ انتهت صلتى بالشئون السياسية الهندية . بيد اننى وجدت نفسى خلال المناقشات الرسمية فى المسألة الهندية ، استطلع الشئون الدولية .. لم يكن ثمة مفر اذ ذاك - كما هو الحال الآن - من مواجهة المسألة الالمانية . فنحن اليوم ندرك ان عقدة العقد فى متاعب أوربا ومشكلاتها توجد فى ألمانيا ، وانه لا سبيل فى الواقع الى سلام عالمى حقيقى ، باق ، بدون حل نهائى للمسألة الالمانية ! .. كذلك كان الامر فى سنة ١٩٣٠ .. ولم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة فى المعترك الدولى ، ففى الجنوب هبت ايطاليا الفاشية ، تحركها مطامع موسولينى

الاستعمارية ·· ولقد كان موسولينى - رغم كل جرائمه وحماقاته ، التى دفع حياته ثمنا لها - رجلا ذا شخصية لامعة ، قوية ، حقق لايطاليا فى الفترة التى بين الحربين نهضة كبرى شاملة ··

وفى الشرق الاقصى كانت اليابان منهمكة فى تطلعها الى الصين ، بعين الطامعة ، فقد بدت لزعمائها اذ ذاك حاجة ماسة الى سياسة التوسع الاستعمارية ··

وتوثقت فى تلك الاثناء صلتى بالسير صمويل هور ، ودارت بيننا مناقشات طويلة جعلته يلفت نظر نائب الملك فى الهند ، الى أننى يجب أن أحظى بفرصة كى أخدم الهند في الميدان الدولى ·· وقبل أن أتحدث عن ولوجى هذا الميدان ، يحسن أن أمهد لذلك بحديث قصير عن مختلف التيارات التى كانت تتجاذبه فى ربيع سنة ١٩٣٢ : **كانت روسيا بعد برنامج السنوات الخمس الاول ، منهوكة ، وستالين هو المسيطر الاوحد على مقادير الدولة ، فرغب فى فترة تنخفف فيها روسيا من عبء التوتر السياسى الخارجى .. وكانت الولايات المتحدة قد خذلت الرئيس ويلسون من قبل ورفضت الانضمام لعصبة الامم ، وأعلنت سياسة العزلة .. بيد أن آثار الازمة الاقتصادية فى سنة ١٩٣٢ كانت تتطلب العدول عن هذه العزلة ، كما ازداد شعور وزارة الخارجية بأن أمريكا لا تستطيع أن تنفض يديها من بقية الدنيا ، ومن هنا رأت فى مؤتمر نزع السلاح فرصتها لارتياد الميدان الدولى··**

وكان «نزع السلاح» هو الموضوع الذى يجرى على كل لسان فى سنة ١٩٣٢ ·· وكان تيار الشك والخوف يختفى وراء ستار التفاؤل الزائف ! ·· وتحققت رغبة السير صمويل هور ، فعينت عضواً فى الوفد الهندى لدى مؤتمر نزع السلاح - ثم خلفت السير صمويل فى رئاسة الوفد - كما عينت مندوبا اعلى للهند لدى الجمعية العامة لعصبة الامم فى سنة ١٩٣٢ · ولم أكن أقر جو التفاؤل الذى كان يسود «جنيف» اذ ذاك ، فقد كان الموقف العالمى يحتاج الى مزيد من الجهد الواقعى ، الشاق ·· واستغرق العمل فى العصبة وفى مؤتمر نزع السلاح معظم وقتى واهتمامى ، اذ وجدت نفسى وسط أحداث مثيرة للقلق ومخيبة للرجاء : استهانة اليابان بالعصبة ·· خروج ألمانيا منها ·· العدوان المباشر الذى وجهه موسولينى الى الحبشة·· الخ ·· وكانت سنة ١٩٣٥ - التى وقع فيها هذا العدوان - من السنوات التى لاتنسى ، اذ صدر فيها قانون حكومة الهند ، وكان آخر تشريع كبير أصدره برلمان المملكة المتحدة قبل القانون الموجز ، المؤثر ، **الذى أصدره بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ،فوضع به نهاية للحكم البريطانى فى الهند !**

يوبيلى الذهبى .. وارتقاء « ادوارد الثامن » العرش

◆ وأخذ الموقف الدولى يزداد اكفهرارا وقتامة .. وأخذت أضواء السلام الواهنة التى أوقدت منذ نهاية الحرب العالمية الاولى تخبو ، ضوءا بعد آخر.. **وفى أواخر سنة ١٩٣٥ ذهبت الى بومباى للاحتفال باليوبيل الذهبى لتبوئى منصب امام الاسماعيلية - فقد انقضى على ذلك نصف قرن - وبلغ الاحتفال أوجه بذلك التقليد القديم الذى اقتضى وزنى بالذهب .. ولكن أفراحنا لم تمض الى نهايتها ، اذ ورد نبأ وفاة صديقى الملك الامبراطور جورج الخامس ، فى يناير سنة ١٩٣٦ .. فأصدرت بيانا لاعضاء الطائفة بايقاف الاحتفالات ، وبإعلان الحداد ، وبأن يرتدى أعضاء الطائفة أزياء الحزن القومية**

ولقد عرفت الملك الجديد - ادوارد الثامن - مذ قابلته للمرة الاولى فى القصر الملكى فى سنة ١٨٩٨ وهو بعد طفل فى الرابعة من عمره .. وكان يلوح عليه الذكاء ، واللطف ، وصفاء الطلعة والذهن .. وقد قابلته فى مناسبات كثيرة بعد ذلك ، ولا أزال أتصوره ذلك الفتى النحيل ، الخجول ، الذى ذهب الى باريس فى أواخر العقد الثانى من عمره ليتعلم الفرنسية .. ثم أذكره فى أوائل عهده بولاية العهد .. ثم حين غدا شابا ، جنديا ، شهما ، يكافح للتملص من الامر الحازم الذى أصدره كتشنر بعدم السماح لولى العهد بالاقتراب من الخطوط الاولى للقتال فى الحرب الاولى !.. وما زلت أذكر كيف انه كان بعد الحرب « سفيرا للامبراطورية » لا يكف عن الاسفار ، متنقلا بين أرجاء الامبراطورية ، وفى مختلف أنحاء العالم ، فى خدمة بلاده وشعبه ..

ولقد قابلته مرارا بعد أن صار ملكا .. **وكنت فى المقابلات الخاصة أجد معه « مسز واليس سمبسون » - دوقة وندسور - وكان من الطبيعى أن أحدا منهما لم يحدثنى عن علاقتهما الخاصة ، ولكن الهمسات والشائعات كانت تطبق لندن بأسرها فى ذلك العام (١٩٣٦) .. وأذكر أن صديقة حميمة للملكة مارى أخبرتنى فى شهر يوليو بأن الملكة كانت تبكى أمر البكاء فى كل يوم اذ تفكر فى النكبة التى كانت تقترب فى صمت واستتار .. وكنت ألمس فى أحاديثى مع الملك حزنا ينذر بالمأساة التى كانت تزحف على حياته وحياة بلاده**

وعندما تبوأ جورج السادس العرش - فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ - بعد تنازل أخيه ، شعرنا جميعا بالارتياح والتفاؤل ، لما كان عليه من تفان ودأب فى خدمة بلاده .. ولم تكن زوجته - الملكة اليزابيث الأم ، الآن - أقل منه انكارا لذاتها وخدمة للبلاد .. والآن ، تتولى الحكم على رأس البلاد ملكة شابة ، فاتنة ، حملت معها الى منصبها صفات عقلية وروحية من أسمى درجة ..

انتخابي رئيسا لعصبة الامم

◆ **كان** السؤال الذى ظللنا نعالجه فى جنيف عاما بعد عام ، ونكافح كى نجد له جوابا ، هو هذا : « هل نستطيع أن نستبقى السلام ، أو لا بد لنا من أن نواجه الحرب فى النهاية ؟ » .. وكان فشل مؤتمر نزع السلاح ، فرصة استغلها الالمان .. وكان هتلر منذ سنة ١٩٣٣ يردد نغمة التنبؤ بعجز الديمقراطيات وفشلها ، دون أن يشعر بخجل أو حرج .. بل انه ما لبث أن أخذ يرددها فى تحد وقحة !

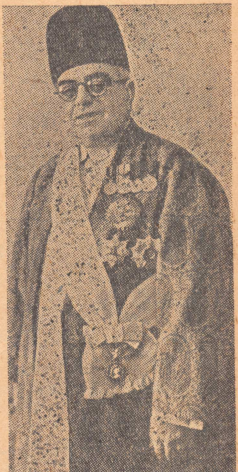
وفى سنة ١٩٣٧ انتخبت بالاجماع رئيسا لعصبة الامم ، فان السنين التى قضيتها فى العمل فى جنيف ، لم تضع دون عرفان .. وحين انتهت الدورة السنوية ، طلب الى أن أواصل الرئاسة عاما آخــر ، وهو شرف نادر ، ومسئولية جسيمة ..

وفى نهاية سنة ١٩٣٧ تلقيت برقية من الهند بأن أمى فى حالة خطيرة .. وكانت فى الثامنة والثمانين من عمرها ، ولكن حالتها لم تدع قط من قبل الى أى قلق .. وماتت بعد وصولى الى جوار فراشها بدقائق .

سنوات الحرب وتقسيم الهنـد

◆ **كان** قيام الحرب العالمية الثانية قاضيا على الآمال التى لازمتنى طيلة العمر .. وأصدرت النداءات الى أتباعى فى كل مكان بأن يبذلوا للبريطانيين والقضية البريطانية كل مساعدة ممكنة .. غير أنه لم تكن ثمة مناسبة لان أبذل أنا أى جهد سياسى أو ديبلوماسى كما فعلت فى الحرب الاولى ، اذ لم تكن بين المتحاربين دولة اسلامية ، ولم يكن هناك خليفة أعلن «الجهاد» !

وكنت وزوجتى وابنى الاصغر فى جنـوب فرنسا ، حين حصلت مفاجأة تداعى المقاومـة الفرنسية ، فأسرعنا الى سويسرا .. وكان ابنى «على» قد تولى مهاما عسكرية، وألحق - بموافقة رسمية من الجيش البريطانى - بالقوات الفرنسية التى كانت اذ ذاك فى سوريا .. بينما كانت زوجته وابناه «كريم» و «أمين» فى القاهرة . وبدت لى الحياة فى سويسرا معزولة ، موحشة،



أغاخان
فى زيه الرسمى



البيجوم أغاخان
زوجته الرابعة

بعد أن حرمت من أى نشاط سياسى ، وبعد أن انقطعت صلاتى بالعالم الخارجى ، فابتدأت سلسلة أمراضى الخطيرة ..

انفصالى عن زوجتى .. وزواجى الرابع

◆ **وحدث** خلال اقامتى الاضطرارية فى سويسرا ، تغير جوهرى هام فى حياتى الخاصة: **فقد انفصلت عن زوجتى الثالثة «الاميرة أندريه» ، وان لم يؤثر هذا فى شىء على حبنا واحترامنا وصداقتنا .. وبعد ثلاثة عشر شهرا بنيت بزوجتى الحالية ، التى كنت قد التقيت بها لاول مرة فى القاهرة ، وظللت على تعارف بها سنوات عديدة .. واذا كان ثمة زواج سعيد ، كامل الوحدة والتفاهم ، والانسجام الروحى والفكرى والعاطفى ، فهو هذا الزواج! وكمسلم صالح ، لم أسأل قط أية مسيحية أن تغير دينها لتتزوج منى .. ولكن زوجتى كانت قد أسلمت من تلقاء نفسها أثناء اقامتها فى القاهرة ..**

اسباب خلع شاه ايران السابق

◆ **وكان** نشاطى السياسى الوحيد فى سنوات الحرب الثانية، متعلقا بدخول الحلفاء ايران فى سنة ١٩٤١ .. وكان هذا العمل الذى أملته الضرورة الحربية يستوجب خلع رضا شاه بهلوى ، ذلك العاهل الفذ ، عن عرشه .. ومع انه كان قد تلقى دراسته العسكرية على الضباط الروس ، الا أنه كان من أصل ايرانى محض ، لم تشبه أية شائبة دخيلة . وكان ذا قوة خلقية وجسدية ، وذكاء فائق .. كما كان حاكما قديرا ، ومواطنا تحمل آلاما حقيقية من أجل بلاده .. وكان يأبى فى اصرار أية محاولة من أية قوة أجنبية للتدخل فى الشئون الداخلية للبلاد .. ولم يكن الحياد مستحيلا على ايران ، حتى هاجمت ألمانيا روسيا فى صيف سنة ١٩٤١ .. وعندئذ قرر قادة الحلفاء فتح طريق الى روسيا خلال ايران بأى ثمن ، لامدادها بالمعونات .. وقد خشى

الشاه الأبى الغيور على استقلال بلاده ، أطماع البريطانيين والروس ، وبهرته ضخامة النجاح العسكرى الالمانى ، فضن على الحلفاء بكل عون ، مما جعلهم يعتزمون خرق حياد ايران بالقوة .. وكنت فى سويسرا حين دفع الحلفاء قوة هندية صغيرة الى دخول ايران ، فأرسلت الى الشاه برقية طويلة أنبهه فيها الى الخطر الذى يتهدد عرشه وبلاده اذا أصر على عدم التعاون .. بيد أن الحوادث كانت تتطور اذ ذاك بسرعة ، وأظن أن برقيتى وصلته بعد الاوان ، بعد أن كان نزوله عن العرش قد أصبح أمرا لا مناص منه !

النحاس ((ملكى)) النزعة .. وفاروق ((ناقص التربية)) !

◆ وكان مركز القيادة العامة لحملة الشرق الاوسط قد استقر فى القاهرة منذ سنة ١٩٤٠ .. وكانت العلاقات المصرية الانجليزية تسير فى استقامة ومودة ، وقد رأس السفارة البريطانية اللورد كيلرن ..

وكان لى أصدقاء لا عدد لهم فى البلاط المصرى والدوائر السياسية ، منهم « الامير » محمد على الذى ارتبط معى بالصداقة منذ خمس وخمسين سنة .. وكنا قد نزلنا فى فندق واحد حين زرت لندن لاول مرة فى سنة ١٨٩٨ .. وكان ذا شخصية متعددة الجوانب ، يمارس نفوذا ناعما - ولكنه قوى التأثير - فى الحياة والسياسة المصرية ، من وراء ستار !

وكان من أصدقائى مصطفى النحاس (باشا) ، الذى قابلته لاول مرة حين دخلت مصر عصبة الامم .. لتأثيره الخطابى .. ومن السخرية العجيبة، أنه كان - رغم منازعاته الخطيرة مع العاهل - ملكيا فى قرارة نفسه !.. وقد حدثتنى زوجته بأن عمق الولاء الذى كان يستشعره نحو الملك فاروق ، هو الذى كان يقنعه بأن خير ما يخدم به الملك هو أن يذكره باستمرار بحدود سلطانه كعاهل دستورى ..

وفاروق نفسه ؟.. كان صبيا حين مات أبوه، وقد بادرت أمه بالرحيل الى الخارج ، فحرم نفوذ الابوين وحبهما .. ولم يكن قد تلقى تعليما مدرسيا صحيحا ، ولا التحق بجامعة - فيما عدا بضعة شهور قضاها فى كلية ((وولوينش)) العسكرية - ومن ثم أظنه كان دائما يحس بنقص تربيته .. ولعل هذا خلق فى نفسه شعورا بالنقص - مركب النقص - اذا ما وجد نفسه فى صحبة شخص ذى تعليم عال !.. وأعتقد أن من هذه الظروف نبتت الاسباب الحقيقية للعادات التى أكسبته الانتقاد فى مصر ، وسوء السمعة فى الخارج ، وهى انهماكه فى المقامرة ، ونشدانه اللهو فى « الكباريهات » والنوادى الليلية !

وزنى بالماس فى سنة ١٩٤٦

◆ وكان العيد الستينى- الماسى - لتبوئى الامامة فى سنة ١٩٤٥ .. ولكن اضطرابات الشهور الاخيرة من الحرب الثانية ، لم تجعل من المناسب اقامة الاحتفالات بذلك اليوبيل الماسى .. فقررنا الاكتفاء بحفلتين : احداهما تتضمن وزنى بالماس فى بومباى فى مارس سنة ١٩٤٦ .. والاخرى فى دار السلام بعد خمسة شهور ، يستخدم فيها نفس الماس ..

وكان للاحتفال الذى أقيم فى الهند جانب بالغ الاهمية ، فقد جمع مبلغ معادل لقيمة الماس - وقد زاد على نصف مليون من الجنيهات - فرأيت تخصيص هذا المال لمشروع للترفيه عن الاسماعيليين ..

وعدت الى أوربا بعد اليوبيل الماسى ، وصحتى مهدمة .. وكانت الاحداث تتتابع فى الهند فى تلك الاثناء .. حتى انتهت الى انسحاب بريطانيا منها نهائيا ، وتقسيم البلاد الى دولتين : الهند ، وباكستان ..

شارلى شابلن ليس شيوعيا !

◆ وفى نهاية هذه المذكرات أستطيع أن أقول ، اننى لم أشعر بالملل فى حياتى لحظة !.. ورغم انى عانيت منذ نهاية الحرب الثانية من الامراض ماكان كفيلا بأن يقضى على لذة الحياة فى نظرى ، فانى لم أحس أبدا بشىء من هذا! .. بل كان ذهنى دائما يشغل بأمور خارجة عن نطاق نفسى : كشئون طائفتى .. وكمطالعاتى ، ورحلاتى ، ورياضاتى .. واكتساب الاصدقاء .. الخ

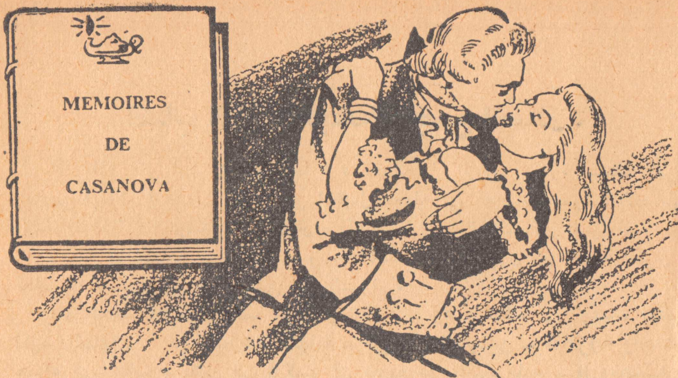
ومن هؤلاء الاصدقاء ، واحد من أصدق وأعظم الفنانين المجددين فى عصرنا ، وأقصد به مستر تشارلى شابلن ، الذى تعرفت اليه فى سنة ١٩٥٣، فتحدثنا طويلا - والى ساعة متأخرة من الليل - عن الاحلام الحبيبة الى قلبينا، وعن الالغاز التى أحزنتنا .. وشابلن ثائر ، ثائر على طيش ونزق المجتمع الحديث فى غمرة التكتل المادى والتنافس على التفوق فى القوة !.. ومن الامثلة على ما يشغل باله ، تقرير للمنظمة الدولية للاغذية صدر متضمنا أن أغلبية كبيرة من البشر يعيشون « تحت » الخط الفاصل بين الشبع والجوع ، وبالتالى يعيشون فى ألم ، وطاقة انتاجية متناقصة ، ومستوى للعمر فى انخفاض !.. وفى الوقت ذاته ، فان معدل انتاج الاطعمة يكفى لكى ينال كل انسان قسطا كافيا من التغذية اللازمة ، لو أحسن توزيعه .. فلو ان بعض الاموال الضخمة التى تنفق فى العالم بأسره على الاسلحة الهدامة المدمرة التى لا جدوى لها ، انفقت على مشروع انتاجى ضخم ، كحفظ المياه ، أو بناء الخزانات لامداد المناطق الصحراوية الشاسعة فى العالم ، لازداد

مجموع الانتاج الزراعى بنسبة هائلة وسريعة ، ولارتفع معـــه مستوى المعيشة !

هذه مسألة من المسائل التى اتفقت حولها أفكار شابلن مع أفكارى .. ولقد حاول أعداؤه أن يتهموه بالميل للشيوعيـــة ، ولكنى اكتشفت نواحى للشيوعية تثير ذعر شابلن واستبشاعه .. ومنها الستار الحديدى ، الذى يحول دون أى تبادل حقيقى حر للافكار بين شطرى العالم !

علمتنى الحيـاة !

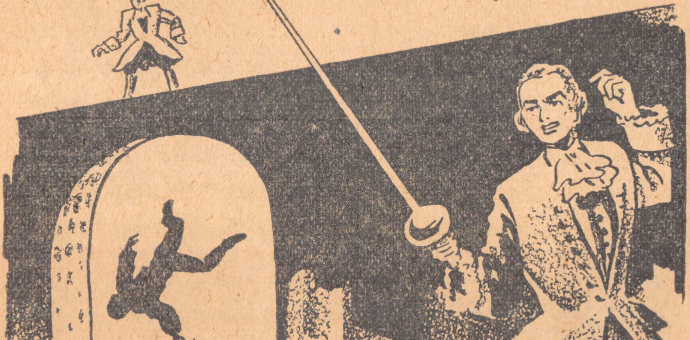
◆ ولقد علمتنى الحياة درسا واحدا باقيا هو أن المادة يجب أن تغيب دائما عن النظر عند تحديد أهدافنا .. ففى تعاطفنا العادى ، وفى عملنا اليومى باليد والعقل ، لا يلبث معظمنا أن يكتشف أن أى ارضاء مستديم للنفس ، وأى رضى أو سرور نبلغه ، انما يأتى نتيجة نسيان النفس ، ومزج ((المادة)) و ((الغاية)) فى انسجام ينبعث من الجسد والعقل والروح !.. وفى أسمى عوالم الوعى ، يتحرر كل المؤمنين - بوجود قوة عليا - من كل قيود النفس الذليلة ، بالصلاة ، وبالتفكير فى التوبة !



مغامرات في الحب والسياسة!

مذكرات كازانوفا

الكتاب الكلاسيكي الخالد
في أدب العشق والمغامرة



الكتاب الذى « مجدته » جميع المصادر !

◆ **اذا** ذكر اسم « كازانوفا » ، قفزت الى الذهن صورة أستاذ الهوى وفارس الغرام ، الملتف بغلائل من الخيال تجعله فى عداد شخصيات الاساطير والخرافات ! .. ولقد عاش «كازانوفا» - فى ايطاليا - فى عصر جمع بين الفروسية والشهامة من ناحية ، وبين الاستهتار والفجور من ناحية أخرى ، فكان له نصيب فى الناحيتين على السواء !

ولقد أحب كازانوفا ألف امرأة وامرأة .. وغرر بملك .. وعبث بعقول قارة بأكملها !.. ثم كتب فى النهاية - فى سن السبعين - مغامراته وأحداث حياته فى كتاب ، يكفى فى تزكيته أن تجمع على الثناء عليه - « وتحتشد » لتقريظه - آراء كل هؤلاء الافذاذ من أدباء العالم ونقاده :

◆ « **ياله** من كتاب ! بل يالها من رواية ! .. انها تعرض - فى قصص مستطردة ، تثير فى تناقضها العواطف - جميع طبقات المجتمع ، وألوان الشعوب ، وأنواع المناظر ، وترسم لنا صورة لا مثيل لها فى الادب ، للقرن الثامن عشر .. بمحاسنه الخلقية ومثالبه ! .. ومنذ عاش كازانوفا حياته ، وكتب قصته ، لم يقدر لروائى ولا لمفكر أن يبتكر قصة أكثر روعة ورواء .. ولا أن يصور شخصية أغرب من شخصيته .. وأقرب الى الاساطير ! »

«ستيفان زفايج»

◆ « .. **ان** مذكرات كازانوفا تعتبر الآن مرجعا هاما لتصوير الحياة الخاصة فى القرن الثامن عشر ! »

«دائرة المعارف الامريكية»

◆ « **كل** أديب وطيد السمعة والمكانة ، يدرك أن أية اشارة عامة الى «كازانوفا» يجب أن تبدأ وتنتهى باستنكار أدبى لمباذله التى لا وصف لها. على أنه اذ سجل سيرته بقلمه ، حبانا بتاريخ شخص رائع حملته الاجيال الينا مع السير الخاصة التى كتبها «أوجستين» و«سيلليني» و«روسو» عن حياتهم .. وهى تعد اسمى سيرة من نوعها ! »

«هافلوك اليس»

◆ «**لا مراء** فى شهرة «كازانوفا» ، فقد كتبت سيرته بجميع اللغات - حتى أنه ليفوق معاصريه « جيته » و « فردريك الاكبر » فى الشهرة العالمية ! - وكم من ملايين ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، يبتسمون لذكر اسمه .. فى حين انهم لا يعرفون عن أولئك العظماء الآخرين سوى

بعض معلومات جافة !؟ لقد غطى تألقه على بريق الملوك والشعراء فى عصره بل انه يعتبر أشهر رجال قرنه بعد نابليون ، الذى قورن به فى معرض الفكاهة ! »

«اميل لودفيج»

◆ « ان روعة هذه المذكرات ترقى بها فى رواء ، من مغامرات «فاجر» الى «أوديسة» صغيرة ! .. فهى قصة رجل قدر له أن يتخذ مكانا الى جوار الخالدين من أهل الارض. بل انه بلغ من الشهرة ذروة لا يشاطره اياها الا القليلون ، فأصبح اسمه علما فى كثير من اللغات .. واذا كان التاريخ لم يعرف الا «قيصر» واحدا ، و «داروين» واحدا ، و «يهوذا» واحدا ، فانه لم يعرف أيضا الا .. «كازانوفا» واحدا ! »

« جيمس ستيوارت مونتجمرى » فى كتابه « كازانوفا العجيب »

◆ اذا أنكرنا على مذكرات كازانوفا قيمتها التاريخية، كسيرة حقيقية لكاتبها ، فان ذلك يرفع من قدرها « كقصص غرامية خيالية ! »

« س. جاى اندور » فى كتابه: «كازانوفا: ما عرف وما لم يعرف عن حياته »



صورة لرسام مجهول، تمثل كازانوفا فى سن ٦٣



صورة جانبية لكازانوفا فى شبابه ، من رسم شقيقه الاصغر «فرنشسكو»

◆ وماذا لو ظهر ان المذكرات رواية «خيالية» ؟ .. لا بأس ، فان هذا يجعل من كازانوفا أعظم روائى فى جميع العصور ! بيد ان هذا مستحيل ، فليس من امرىء يستطيع أن يبتكر كل هذه السلسلة من الاحداث الشديدة التباين !

«ريمى دو جورمون»

◆ كتبت بأسلوب جيد ، بارع .. وهى فوق هذا طريفة ، اذ تبدو كصورة موثوق بها لاخلاق وسلوك عصره ..

«دائرة المعارف البريطانية»

◆ لقد غدت هذه المذكرات أعظم وأدق صورة للحياة الخاصة فى المجتمع الاوربى ..

«دائرة المعارف الايطالية»

.. وانه ليسر كتابى ان يستهل عامه الجديد بتقديم هذا الكتاب الى قرائه مسلسلا ، ابتداء من هذا العدد :

العاشق الاشهر .. لم يكن وسيما !

◆ رغم شهرة كازانوفا العالمية منذ القرن الثامن عشر ، فقد كان شكل «أعظم عاشق عرفه التاريخ» ما يزال لغزا ، لا يحتفظ له العالم بغير الصورتين الصغيرتين ، غير الواضحتين ، المنشورتين فى مكان آخر من هذا المقال .. الى أن أزيح الستار عن هذا اللغز أخيرا ، فى يوليو عام ١٩٥٣ ، حين عثر تاجر للصور الفنية فى مدينة بولونيا بايطاليا على صورة مطمورة فى أحد المخازن ، فلما أزال عنها الغبار قرأ عليها هذه العبارة : « جان جاك كازانوفا ، ١٧٦٧ » .. وقد تحقق الخبراء من صدق ذلك بعدة قرائن ، ونسبوا الصورة الى رسام من أصدقاء كازانوفا كان يدعى «رافاييل منجز» .. وقد رسمت الصورة للعاشق الايطالى الاشهر وهو فى سن الثانية والاربعين ، وهى تظهره مصابا بتضخم الغدة الدرقية ، جاحظ العينين ، ذا ذقن مدببة ، وأنف ضخم ، وشفتين تنمان عن ميل شهوانى .. ولا شك ان مواهب أخرى ، غير وسامة الوجه ، هى التى خلعت على المغامر الاشهر سحره الفتاك الذى لا يقاوم ! (وترى الصورة التى أكتشفت له ، على الصفحة المقابلة)



العاشق الخالد .. بصحبة صديقيه الملازمين : الكتاب .. وكيوبيد اله الحب!

الجـزء الاول

ينحدر من أسرة « عشاق » !

◆ كانت أسرة «كازانوفا» تنحدر من أصلاب ابن غير شرعى للدون فرانسيسكو كازانوفا يدعى « دون بيتر » ، قدر له أن يغدو

سكرتيرا للملك الفونسو الاسبانى ، ثم اختطف فى سنة ١٤٢٨ راهبة جميلة فر بها الى روما ٠٠ وما لبث البابا أن صفح عنه وأحل الراهبة من مواثيقها ، وبارك زواجهما !

وولد « جايتان جوزيف جاك » ـ والد مؤلف هذه المذكرات ـ فى سنة ١٦٩٦ ، ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى هجر أسرته ، وهام وراء ممثلة كانت تقوم بأدوار الوصيفات، فحترف الرقص ـ ليكسب عيشه وينفق عليها ـ ثم غدا بعد خمس سنوات ممثلا ٠٠ وما لبث أن هجر الممثلة وسافر الى البندقيه ، حيث التحق بفرقة فكاهية ، وأحب ابنة « اسكافى » ، وهى الحسناء الفاتنة «تسانيتا» . واذ خشى أن لا يوافق أبواها على زواجها منه ، هرب معها ، وتقدم الحبيبان ومعهما الاوراق اللازمة والشاهدان الى بطريرك البندقية ، فعقد قرانهما ٠٠ ومات «الاسكافى» محسورا ، لزواج ابنته من «ممثل» ! ٠٠ أما زوجته «مارتسيا» فاكتفت بابداء دهشتها مما جرى !

- ١ -

◆ وولدت أنا فى ٢ أبريل سنة ١٧٢٥ ، بعد هذا الزواج بتسعة شهور ٠٠ وفى العام التالى ، تركتنى أمى فى رعاية أمها ـ التى كانت قد صفحت عنها ـ لتصحب أبى فى رحلة الى لندن ، حيث قدر لها الظهور على خشبة المسرح للمرة الاولى٠٠ وحيث أنجبت أخى «فرانسوا» الذى غدا نقاشا ذائع الصيت ٠٠

وعاد والداى الى البندقية فى نهاية سنة ١٧٢٨ ٠٠ وما لبثت أمى أن أنجبت بعد عامين أخى «جان» الذى غدا مديرا لاكاديمية الرسم فى (درسدن) ٠٠ ثم رزقت فى خلال السنوات الثلاث التالية بابنتين ، ماتت احداهما فى الصغر ، وتزوجت الاخرى فى درسدن ٠٠ كذلك كان لى أخ أصبح قسا ، ومات فى روما منذ خمس عشرة سنة ٠

أما أنا ، فلم يستيقظ ذهنى الواعى قبل أول أغسطس سنة ١٧٣٣ ، حين كان عمرى ثمانى سنوات وأربعة شهور ـ فقد كان ادراكى مغلقا قبل ذلك ! ـ **وكل الذى أذكره عن هذا التاريخ ، هو أننى كنت أقف منحنيا الى الجدار فى ركن من غرفة ، وأنا أحملق فى سيل من الدم أخذ يتدفق من أنفى ٠٠ وأسعفتنى جدتى «مارتسيا» ، وكنت أثيرا لديها مدللا ، ثم أخذتنى دون أن يفطن أحد الى جزيرة على مسافة نصف فرسخ من البندقية ، حيث**

ولجت بى بيتا كانه الجحر ، وجدنا فيه عجوزا تهامست معها جدتى برهة ، ثم دست فى يدها قطعه نقدية ، ففتحت العرافة صندوقا وادخلتنى فيه ، ثم اغلقته على وهى توصيننى بأن لا أخاف ! ٠٠ ولم أحفل بالاصوات التى أخذت أسمعها وأنا فى الصندوق : ضحك ، وبكاء ، وغناء ، وصرخات ، وطرقات ٠٠ ثم رفعت من الصندوق أخيرا ، وقد توقف النزيف ، وأرقدتنى العجوز على فراشها وخلعت عنى ثيابى وأشعلت بعض الاعشاب وأخذت تتلقى دخانها فى قطعة من قماش لم تلبث أن لفتنى بهـا وهى تتلو بعض التعويذات٠٠ ثم أعطتنى خمس قطع من الحلوى، وأخذت تدلك صدغى و قفى بزيت عذب الرائحة ، وأنبأتنى بأن النزيف لن يلبث أن يفارقنى رويدا ، على شريطة أن لا أفضى لاحد بشىء مما جرى ، والا تسرب منى كل دمى ومت ! .. كذلك قالت لى ان سيدة جميلة ستزوروننى خلال الليل وتسعدنى ، بشرط أن لا أصارح أحدا بشىء أيضا ٠٠ وما كانت بحاجة الى هـذه التحذيرات فى الواقع ، اذ لم يكن لى أصدقاء أروى لهم أسرارى !

وفعلا ، استيقظت بالليل لارى سيدة جميلة تهبط من مدخنة المدفأة ، فتفرغ على رأسى ما كان فى جيوبها ، وهى تردد كلمات لم أفقه لها معنى !٠٠ ثم انصرفت كما جاءت وأنا لا أدرى أكانت هذه الزيارة من فعل السـحر أم من أثر الوهم ! ٠٠ ومنذ ذلك اليوم أخذ النزيف يقل رويدا٠٠ وبدأ ذهنى يتحسن ، حتى اننى تعلمت القراءة فى أقل من شهر !

ومات أبى بعد ذلك بشهور ، وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين٠٠ وأحاطت بجنازته أحزان الرأى العام ، فقد كان فى طليعة الممثلين ٠٠ وكان قبـل موته بيومين قد جمعنا حول فراشه فى حضور السادة «جريمانى» — وهم ثلاثة من نبلاء البندقية — فعهد بنا الى رعايتهم ، وأمى غارقة فى دموعها ٠٠

❖

وعلى الرغم من جمال أمى وشبابها ، فقد رفضت كل الزيجات التى عرضت عليها بعد وفاة أبى ، وكرست حياتها لتربية أولادها ٠٠ وقد وجدت من واجبها أن تفكر فى أمرى قبل سواى ، لا لشىء الا لمرضى ٠٠ **فقد كنت ضعيفا ، فاقد الشهية ، عاجزا عن أداء شىء ٠٠ كنت أبدو غبيا ، وقد حار الاطباء فى تعليل سر ضعفى ٠٠ وقرر أحدهم ان خير علاج لى هو تغيير الجو الذى كنت أعيش فيه ٠ وقد اهتم بذلك مسيو «بافو» — وكان أعز صديق لوالدى — فعمل على ارسالى الى «بادوا» .. ورحلت بصحبة الاسقف «جريمانى» وأمى الى هناك ، حيث كان فى انتظارنا كيمياوى من أصدقاء الاسقف يدعى «أوتافيانى» ، صحبنا الى منزل أرملة تدعى « سنيورميدا » ، تقرر أن أعيش فى رعايتها ..**

- ٢ -

◆ **وأخذ** كازانوفا يتردد على مدرسة يديرها قس شاب يدعى الدكتور «جوتزى» .. بيد أنه لم يكن ذا عهد بشظف العيش وبالمتاعب التى كانت تحوطه فى بيت الارملة العجوز . كانت الجرذان والهوام فى ذلك الجحر تستبقيه مسهدا طول الليل ، فتنسيه لدغات الهوام خوفه من الجرذان .. ويشغله الخوف من هذه عن الشعور بالالم من تلك ! .. واذ لاحظ الدكتور « جوتزى » أنه كان ينام فى الفصل ، رغب فى تفقد الوسط الذى كان يقيم فيه ، وأنحى باللائمة على الارملة العجوز لاهمالها شأنه .. وشيئا فشيئا ، أخذ كازانوفا يتفوق فى دراسته ، مما قربه الى القس ، فجعله « ألفة الفصل » ، وصار يستعين به فى تصحيح أعمال بقية الطلبة .. ولما كان الفتى الصغير لا ينال كفايته من الطعام ، فقد راح يفرض على الطلبة «أتاوات» من الاغذية والنقود ، كى يحابيهم فى الدرجات !

على أن الدكتور جوتزى لا يفتأ يغرى الفتى على الكتابة لاهله عن الحياة الزرية التى يلقاها لدى العجوز ، حتى تفد جدته لتتفقد الامر بنفسها ، وتنتهى الى أن تنقله ليقيم فى كنف القس الشاب ، وتبتاع له ثياب رهبنة ، وتزيل شعره الذى امتلأ بالقمل ، وتشترى له طاقية شعر مستعار .. ويذهب أستاذه فى اكرامه الى حد أن يشركه معه فى فراشه الكبير .

*

◆ **كانت أسرة الدكتور جوتزى تتألف من أم تبالغ فى اكباره وتوقيره ، وأب كان «اسكافيا» متواضعا ، وأخت تدعى «بتينا» ، حلـوة ، جميلة ، شغوفة بقراءة الروايات الغرامية ! .. وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وقد لاحظت اننى أثرت اهتمامها ـ لغير ما سبب أدريه ـ وما لبثت أن أذكت فى فؤادى رويدا أولى جذوات العاطفة ..**

لكن تلاميذ القس أخذوا ينصرفون عنه تباعا ، لانه أخذ يقصر كل عنايته على .. وفى هذه الاثناء ، كان قد فتح أمامى كل الطرق للعلم ، ودربنى على العزف على الكمان ، ولقننى أصول الشعر ، والفلسفة ، والجدل ، والتاريخ..

وحدث أن اعتزمت أمى فى أثناء الصوم الكبير من عام ١٧٣٦ السفر الى «سانت بيترسبورج» ، فأرسلت الى أستاذى تدعوه الى أن يصحبنى الى البندقية لكى تتزود منى قبل سفرها .. ورافقنى القس مترددا ، ولكن أمى

استقبلته فى حفاوة واكرام ٠٠ وكانت باهرة الجمال ، مما جعله يحس بحرج وارتباك ٠٠ وقد فطنت أمى لذلك ، فشاءت أن تتخذ منه مادة للتسلية ! .. وفى الوقت ذاته أثرت اهتمام المحيطين بأمى ، لما استطعت أن أصيبه من تقدم خلال عامين اثنين ، مما عزى الفضل فيه الى أستاذى ٠٠

وكان مما ساء أمى أن الشعر المستعار الذى كنت أستعمله لم يكن يتفق مع سمرة بشرتى ٠٠ واذ سألت أستاذى عن السر فى عدم اطالتى شعرى الطبيعى، أجاب ببساطة وصراحة بأن «بتينا» كانت ترى فى استعمال الشعر المستعار ما يخفف عليها مشقة العناية بنظافتى !٠٠ فوعدته أمى بهدية طيبة لشقيقته ان هى عنيت بشعرى الطبيعى ٠٠

وظل القس بعد عودتنا الى «بادوا» ثلاثة شعور أو أربعة ولا حديث له الا أمى ! ٠٠ وكانت هذه قد حملته ثوبا من الحرير الاسود واثنى عشر زوجا من القفازات الى «بتينا» ، فلم يعد للفتاة من شاغل سوى العناية بى وبشعرى الذى أخذ ينمو ويسترسل ٠٠ وكانت تسرف فى تقبيلى ولمس جسدى وبشرتى ، فيغيظنى هذا لعجزى عن أن أفعل معها مثله – فقد كنت أصغرها بثلاث سنوات ، وكان مجرد التفكير فى أنها يمكن أن تحب غلاما مثلى ، ضربا من القحة وسوء الادب فى رأيى ! .. على أننى ما لبثت أن تشجعت وأخذت أرد على قبلاتها بقبلات حارة ، حتى اذا شعرت أننى أوشكت أن أتجاوز حدودى ، أمسكت ٠٠ فاذا ما انصرفت عدت أنحى على نفسى باللوم لاننى لم أزد !

وفى أوائل الخريف ، تلقى الدكتور جوتزى ثلاثة تلاميذ جدد ليقيموا فى كنفه ، وكان بينهم فتى فى الخامسة عشرة سرعان ما اكتسب ود «بتينا»، فاذا بى أحس نحوه بشعور جديد ، أدركت بعد سنين أنه كان «غيرة» ! أما يومئذ فلم يخطر لى ببال ان اقتراب ذلك الفتى من الرجولة كان يجعله مفضلا عنى ٠٠ ولاحظت «بتينا» غيرتى النامية ، فجاءتنى ذات صباح وأنا بعد فى الفراش ، وكنت أرتدى جوربين من نسيج يديها ، فأرادت أن تتلطف معى فتقيسهما بنفسها ٠٠ وفيما كانت تفعل ، لاحظت أن ساقى قذرتان ، فعمدت فى الحال الى تنظيفهما بنفسها ٠٠ وأخذت تتمادى ، وترتفع بالنظافة الى أعلى ٠٠ وأشاع عملها ولمساتها فى نفسى شبقا ٠٠ لم ينته الا فى أبعد حد لا ينبغى تجاوزه !

واذ استعدت هدوئى ، رحت استغفرها ، فقالت فى رفق انها الملومة ، ووعدت بأن لا تعود الى اقتراف هذا الذنب ثانية ٠٠ ثم انصرفت وتركتنى ألوم نفسى ، وأرى فيما فعلت انتهاكا لشرفها ، وخيانة لاستاذى الذى ائتمننى .. وانتهيت الى أن لا علاج لما فعلت من جرم الا بالزواج من الفتاة !

واشتد بى الحزن يوما بعد يوم .. وحرصت الفتاة على أن لا تفد الى مخدعى فى الصباح ، وكان خليقا بى فى الاسبوع الاول أن أعزو ذلك الى « تحفظها » ، لولا أن ما كانت تبديه نحو « كورديانى » ـ الفتى الآخر ـ سمم بالغيرة دمائى .. ومع ذلك فما خطر لى قط أن أتهمها بأنها كانت تقارف معه عين الجريمة التى ارتكبتها معى !.. وكتبت اليها رسالة ـ خيل الى أنها تحفة أدبية ـ حاولت فيها أن أسترضيها ، ولكنها مضت تعد ، وتخلف ، فلا تزيدنى الا انشغالا بها !.. وسألتنى أن أصحبها الى حفلة راقصة وأنا فى زى فتاة ، فلما أبيت ، زادت صدودا واعراضا !

وحدث أن رحل القس وأبوه الى الريف تلبية لدعوة صديق يحتضر .. **وخطر لى أن الفرصة مناسبة لتوطيد علاقتى ببتينا ، فأنبأتها باننى سأترك باب غرفتى مواربا أثناء الليل كى توافينى بعد أن ينام الجميع !.. وكان التلاميذ الثلاثة ينامون فى طرف ناء من البيت .. أما هى فكانت تنام فى حجرة ضيقة بالطابق الارضى . وكنت وحيدا فى مخدعى فى تلك الليلة ، لغياب أستاذى ، فظللت أنتظرها .. وانتصف الليل ، وأخذت كل ساعة تمر تزيدنى انفعالا ، حتى اذا لم يبق على انبثاق الفجر غير ساعة ، تسللت حافى القدمين الى الطابق السفلى ، وقبعت على مقربة من باب غرفتها ، الذى وجدته مغلقا من الداخل !.. وخيل الى أن عمرا انقضى وأنا جاثم ، أرتجف من البرد والانفعال .. ثم فتح الباب فجأة ، فأسرعت اليه .. ولكن بدلا من أن تبرز منه « بتينا » ، خرج منه « كورديانى » فركلنى بقدمه فى بطنى ، وأسرع الى الغرفة التى يشترك فيها مع زميليه !**

وحاولت أن أفتح باب « بتينا » فاذا به موصد من الداخل ، فأخذت أركله بعنف ، وأخيرا عدت الى غرفتى ذليلا ، مهينا ، يزيدنى غيظا تغلب « كورديانى » على !.. ورحت أفكر فى الانتقام ، فى أن أفشى لشقيق الفتاة كل شىء .. وفيما أنا أدبر خطتى ، أقبلت أم « بتينا » تسألنى أن أهبط لان الفتاة تحتضر !.. ووجدتها تتلوى على الفراش ، وقد التف الجميع حولها . ولست أدرى كيف وقفت أشهد المنظر هادئا ، وأمامى غريمى الذى كنت أتوق الى أن أقتله ، والفتاة التى كنت أعتزم أن أفضحها !

وأقبل الطبيب فأمر بأن تظل فى الفراش ، ونصح بعمل « كمادات » باردة لها .. وكدت أضحك ، فقد كنت أدرك أن ما بها انما هو نتيجة لجزعها مما حدث بينى وبين « كورديانى » .. وقبل أن أغادر الغرفة لمحت ثوبها ، فعبثت أصابعى فى جيبه ، **واذا بى أعثر على وريقة حملتها الى غرفتى .. وكانت رسالة بخط « كورديانى » وقد كتب فيها : « بما أن أباك**

غائب ، فلا داعى لان تتركى بابك مواربا ، فلسوف أتسلل الى غرفتك بعد العشاء وأنتظرك فيها .. »

ولم أحفل ببتينا ولا بصرخاتها المتوجعة طيلة اليوم ! وعندما عاد القس وأبوه فى المساء ، أقبل « كورديانى » على غرفتى يسألنى عمـا انتويت ، فأشهرت فى وجهه مدية ، واضطررته الى الانسحاب .. ولو انى عولت فى تلك الاثناء على أن لا أروى للدكتور قصة الفضيحة ، اذ شعرت بتقزز من الوشاية ..

وزعمت الام فى اليوم التالى أن ابنتها وقعت فريسة لسحر صنعته لها الخادم ! .. ومع انكار شقيقها لمثل هذا التفكير ، الا أنه استدعى فى اليوم التالى أشهر مشعوذ فى « بادوا » ، وكان راهبا دميم الخلقة ، لم تكد الفتاة تراه حتى راحت تقهقه وترميه بأقذع السباب ، فلم يزد هذا الا من الاعتقاد بأن روحا شريرة مستها ، فأخذ يضربها بصليب خشبى كبير .. لكن الفتاة أخذت تسخر من الراهب وتسفهه فى جرأة غريبة ، دون أن تثير عجب من كانوا حولها ، اعتقادا منهم بأن الروح الشريرة هى مصدر تلك القحة والفحش .. ولم أستطع أن أدرك خطتها من التمادى فى هذا الدور !

.. لكننى رأيت — اثباتا لرغبتى فى الوئام — ان أرد اليها فى تلك الليلة رسالة « كورديانى » التى سرقتها منها ، والتى كانت الدليل الوحيد على جرمهما !

- ٣ -

كانت « بتينا » ولا بد فى أقسى حالات القلق لضياع رسالة « كورديانى » ، لذلك كان ردى اياها اليها دليلا عظيما على صداقتى .. بيد أنها كانت فى الوقت نفسه دليلا على أننى كنت مطلعا على خافية سرها ، اذ كانت الرسالة شاهدة على أنها اعتادت أن تستقبل الفتى فى كل مساء !

وفى الليلـة التالية تظاهرت « بتينـا » فجأة بالمرض .. ولكن الاسرة أصبحت فى اليوم التالى وليس لديها أدنى شـك فى أن الروح الشريرة قد سيطرت على عقل فتاتها ! .. وقرر أخوها أن يعهد بها الى رعاية قس يدعى الاب مانشيا ، اشتهر بأنه لم يخفق قط فى شفاء صرعى الارواح الشريرة ..

وأقبل الاب فى الصباح التالى فتبعته الاسرة كلها الى سرير الفتاة ، أما أنا فقد أخذت بمنظر الراهب : كان طويل القامة ، مهيب الطلعة ، فى الثلاثين من عمره ، أزرق العينين .. وألفينا بتينا نائمة أو متناومة ، ففتحت عينيها حين نثر عليها الماء المقدس ، ثم أغلقتهما فورا .. وعادت تفتحهما وتتطلع للراهب ، وتعود فتغمضهما بسرعة .. ثم استسلمت

لوسن هادىء ، ووضع الرجل صليبه والكتاب المقدس على صدرها ، وراح يتمتم ويصلى بعد أن أمرنا بأن نركع معه بجوار السرير ..

وفى الصباح التالى أخذت بتينا تتحدث حديثا رائعا يفوق ما يجول بخيال الشاعر .. ولم تكف حين دخل عليها الراهب ، الذى أمرنا بالانسحاب من الحجرة ، ثم بقى مع الفتاة حتى الظهر ، دون أن نسمع لاحدهما صوتا أو حركة .. حتى اذا سمح لنا أخيرا بالدخول ، بدت بتينا حزينة ، هادئة .. أما الراهب فقد انصرف راجيا موافاته بأنبائها !

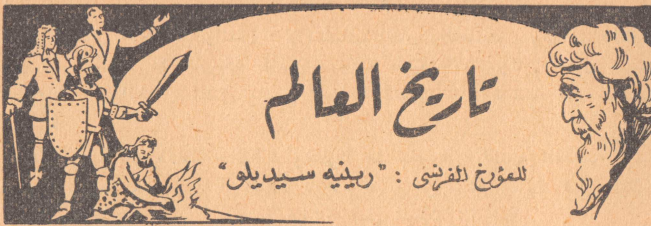
وقضت بتينا بقية اليوم ، وطيلة اليوم التالى ، على خير حال .. ثم حدثت الظروف التى أكدت لى أنها ليست مجنونة ، ولا بها مس من روح شريرة : ففى الصباح التالى ، حضرت الى حجرتى ودست فى يدى وريقة كتبت فيها : « احتقرنى ، ولكن تستر على شرفى واحترم الطمأنينة التى أصبو اليها . سيطلب الاب مانشيا الى من فى البيت أن يمارسوا فريضة الاعتراف له ، وهذا ما لا ينبغى ، وأنت وحدك الذى يستطيع أن يحول دون ذلك ! وسيكون نجاحك برهانا على أنك تكن لى شيئا من الصداقة .. »

وفعلا انتهزت فرصة خلوت فيها الى الدكتور جوتزى ، فأعربت له عن عدم رغبتى فى أن أعترف للاب « مانشيا » ، وقلت اننى أخشى أن يؤول امتناعى على غير حقيقته ، ولذا يحسن أن لا يعترف له أحد . فقال انه يفهم الاسباب التى تحدونى الى ذلك ، ويقرنى عليها ..

وأويت الى فراشى فى عصر ذلك اليوم لجرح فى قدمى ، بينما صحب أستاذى تلاميذه الى الكنيسة .. وانتهزت بتينا الفرصة ، وأقبلت فجلست على حافة فراشى ، وبدأت تعرب عن أملها فى أن لا أكون غاضبا منها ، فقلت لها اننى لا أكن لها سوى الصداقة ، فلا داعى لان تخشى أن تكون قد سببت لى أى استياء ، بل ان لها أن تفعل ما يروق لها : « اننى لم أعد أشعر نحوك - بعد ما جرى - بغير عدم اكتراث ، لم يلبث بدوره أن زايلنى حين لمست ما لعقلك من قوة .. لقد أدركت مدى مهارتك ، وانى أقدرها حق قدرها ! »

فأجابتنى بقولها : « ان كل ما ذكرت مبنى على مظاهر خادعة ، فلست أحب « كوردياني » ، ولم أحببه يوما ، بل انى أكن له كراهية يستحقها ! » .. ومضت تحاول أن تبرر ما حدث وهى تذرف الدمع ، ولكنى كنت قد خبرت دهاءها ، فسألتها أن تفسر لى التناقض بين اعتزازها بفضيلتها بالنسبة لى ، مع سماحها لكوردياني بأن ينتهكها فى كل ليلة !.. واذ ذاك رمقتنى وقد التمع فى عينيها بريق الانتصار ، وقالت : « الآن وصلت الى ما كنت ابغى أن افاتحك فيه : اليك قصتى مع كوردياني :

« يتبع »



هذه السلسلة الجديدة ..

◆ مطالعة التاريخ قد تكون متعة ، وقد تكون « علقة » ، تبعا لطريقة معالجة هذا التاريخ ، والاسلوب الذى يكتب به .. لذلك فاننى عندما فكرت فى ان اقدم لك تاريخ هذا العالم الذى نعيش فيه ، منذ بدء الخليقة حتى اليوم - استكمالا لرسالة كتابى فى مزج الثقافة بالمتعة - وضعت نصب عينى أمرين : اولهما ان اختار لك امتع كتاب من بين عشرات الكتب العالمية التى اختصت فى رواية التاريخ كقصة ، لا كمادة « دراسية » جافة ! .. والأمر الثانى الذى استهدفته أن اقدم لك الكتاب الذى اخترته فى هذا الباب ، فى فصول « قصيرة » .. كيما تتورط فى قراءته دون ان تشعر ، ودون ان تمل !

ومؤلف هذا الكتاب - الذى أطلق عليه « تاريخ العالم فى ٢٤٠ صفحة » - هو « رينيه سيديلو » رئيس تحرير صحيفة « لافى فرانسيز » ، وقد نجح فى ان «يروى» التاريخ « بحرارة » جعلت منه شبه «لذة» حسية ! .. أو على حد تعبير ناقد مجلة « تايم » العالمية : « انه جعل من التاريخ قصة شائقة جريئة ، تبهرك وتعاق انفاسك ! » .. كما وصفته صحيفة (هاربرز) المعروفة ، بانه « الكتاب الذى ضغط تاريخ العالم فى صفحات معدودة ، تنطوى على ادراك رفيع للعلاقات بين الاجيال والافكار ! »

وارجو ان اكون ، بعد هذا ، قد « أغريتك » بالشروع فورا فى مطالعة هذا الكتاب !

تاريخ ما قبل التاريخ

◆ كانت المعرفة الوحيدة لدى الانسان فى بدء ظهوره على الارض ، هى أنه لم يكن يعرف شيئا !.. لذلك كان من السهل أن يؤمن بالخرافات التى

تتناول أصول الاجناس والمدن ، واكتشاف النار والحديد ، وما الى ذلك من أمور تلقى ضوءا على تاريخه الماضى ، وكنه طبيعته .. وكان جمال هذه الخرافات ، والخيال الذى يشيع فيها ، كفيلين بأن ترسخ فى أذهان البشر !

واذا تركنا الخرافات جانبا ، وفسرنا ما جاء فى الكتب المقدسة ثانية مصادر التاريخ ، لوجدنا أن ميلاد « آدم » يوافق سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، وأن « الطوفان » كان فى سنة ٢٣٤٨ قبل الميلاد .. الخ

وثالث مصادر التاريخ - بعد الكتب المقدسة ، والخرافات - هو العلم .. وهو فقير فى الخيال اذا قيس بالخرافات ، ولذلك فهو يقترح - مترددا - أن الارض وجدت منذ مائة ألف سنة !.. وهو يسأل أكثر مما يؤكد .. ويستعين بأبحاث الجيولوجيين فى الارض والحفريات ، وبدراسات علماء الاجتماع فى أوساط القبائل التى لا تزال قريبة من الفطرة ، ليصل الى اجابات تفسر أسئلته ..

ولكن ينبغى أن لا نسخر من هذا البحث البطىء ، المضنى .. بل لنحاول أن نصور لأنفسنا ما يراه العلماء من أن الارض والانسان جاءا نتيجة تطورات ومعجزات طبيعية متتالية .. لنتصور أن تكوين الارض بدأ منذ حوالى ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأن ظهور الكائنات الحية يرجع الى حوالى ألفى مليون سنة ، وانها كانت على شكل « بكتريا » تعيش فى أعماق الماء ولا ترى بالعين المجردة .. ثم ظهرت الكائنات ذات العمود الفقرى منذ خمسمائة مليون من السنوات ، فالحيوانات الثديية منذ مائة مليون سنة ، فالحيوانات الشبيهة بالانسان منذ بضع عشرة ملايين من السنوات ، وأخيرا ، أدى التطور فى الرقى الى ظهور الانسان فى الغابات الاستوائية التى تجمع بين الحرارة والرطوبة .. وما لبثت هذه الحيوانات التى كانت تسير على أربع ، أن تأثرت بحياتها بين الاشجار ، فأصبحت تسير على اثنتين .. بينما تحولت القدمان الاخريان الى يدين تساعدان الحيوان على التعلق بالاغصان وهو يتنقل من شجرة الى أخرى .. وبمرور الايام استقام عوده ، واستوى رأسه ، وكبر حجم مخه ..

نشوء العقل : ثم جاءت المعجزة التى طفرت بهذا الحيوان الى الآدمية ، اذ جاء العصر الجليدى ، فجرف الغابات ، وترك جماعات قلائل من هذه الحيوانات معزولة عند سفوح الجبال وقد جردت من مآويها فى الغابات ، فاضطرت الى أن تلوذ بالكهوف فرارا من الوحوش .. كما اضطرها الدفاع عن كيانها الى الاعتماد على نعمة أتاحتها لها غريزة حب البقاء : تلك النعمة هى العقل .. وكانت لحظة البدء فى الاعتماد على العقل هى .. مولد الانسان !.. وبفضل هذا العقل راح الانسان يعمل على فرض سلطانه على

العالم الذى استقبله فى غير حفاوة ، بل أحاطه بالصعاب والاخطار .. وكان العقل سلاحا لم يتح مثله لسوى الانسان من الكائنات ..

وبدأ الانسان ينقب .. كان عليه أن يكتشف كل شىء - ونفسه وجسمه ودنياه قبل ما عداهما - وأن يخترع كل شىء ، فتعلم وارتقت معلوماته واتسعت .. **ولكن كل ما عرفه لا يزال أقل بكثير مما لا يزال أمامه أن يعرفه فى آلاف السنين المقبلة .. على أن من المؤكد أن المعرفة والمهارة الفنية اللتين أخذ الانسان يدخرهما ، تزدادان باطراد أثناء حياته ، ومن جيل الى جيل ، على الرغم مما كان يطرأ عليهما أحيانا من فترات تقهقر .. وهذا الكنز المدخر الذى وصل الينا اليوم ، هو الذى نسميه « المدنية » أو « الحضارة »** .. ولم يقدر لاى نوع آخر من الكائنات أن يدخر ويتوارث ما كان يحرز على مر الاجيال من معرفة ، فان هذه الميزة اقتصرت على الانسان .. ومن ثم كان مولده هو مولد التاريخ .. أو فجر التاريخ !

اللغة .. والنار .. والدين !

◆ **كانت الغزوات - المعنوية - الاولى التى أحرزها الانسان** وهو يضرب فى الظلمات التى كانت تحيط به فى ماضيه ، تفوق كل ما عداها من أمور تميزه عن الوحوش ، ولا تزال نتائجها قائمة الى اليوم ، وستظل قائمة تسيطر على مقادير الامم .. تلك الانتصارات هى : اللغة ، والنار ، والدين.. فليس من ثقافة اكتشف قيامها قبل التاريخ الا وتحمل ما يدل على أن أبناءها عرفوا هذه الامور الثلاثة !

١ - ذلك لان الانسان هو الوحيد بين الحيوانات الذى يستطيع النطق ، والذى يمارس فن التفكير .. لذلك لم يلبث أن تعلم النطق بأصوات معينة اصطلح على أن يعطيها معانى خاصة . ومن ثم ولدت **اللغة** ، مركبة الفكر ، والأداة الرائعة للتخاطب .. ومنذ مولدها بدأت الحياة فى المجتمع تؤتى ثمارها ، وسرعان ما تقدم فن استحداث الاصوات واللهجات والمقاطع ، وضم بعضها الى بعض .. وكذلك ولدت الشهوات ، ومعها البحث عن وسيلة لاشباعها .. فكان أول اعتراف بالحب .. وأولى المشاجرات .. وبدأت الحياة « الانسانية » الصحيحة ..

٢ - ولقد عرف البشر **النار** منذ القدم الجانب الطيب منها ممثلا فى دفء الشمس .. والجانب الخطر ممثلا فى الصواعق والبراكين ، والحرائق التى كانت تندلع من حيث لا يعرفون ، فتأتى على الغابات والاحراش !.. وما لبثوا اذ تقدمت بهم المعرفة أن اكتشفوا وسائل ايقاد اللهب ، ولعل الحظ هو الذى هداهم الى أن ارتطام قطعتين من الصخر فى احتكاك حاد يولد شرارة !.. **وما أن وفقوا الى ايقاد النار ، حتى تملكهم الشعور بالقوة . ولم**

ينفكوا عن عبادة النار ، لان مظاهرها كانت تلقى الرعب فى قلوبهم . ولكنهم ما لبثوا أن ذللوها لخدمتهم ، وبعد أن كانوا يقتاتون على المواد النيئة ، تعلموا فن الطهو . كما تعلموا فيما بعد كيف يستخدمون النار فى حرق الطين لعمل الطوب للبناء ، وفى صهر المعادن .. وقد مكنهم العلم عن طريق استخدام المعادن - بعد ذلك بعدة آلاف من السنين - من انشاء السكك الحديدية ، والدبابات . ومع ذلك ، فقد ظلوا - بعد هذا التقدم - يوقدون الشموع فى المحراب والمذبح بمعابدهم ، ويكرمون قبر الجندى المجهول بشعلة بدائية من اللهب !

٣ - **أما الدين** ، فقد ملك قلوب بنى الانسان منذ العصور الاولى ، فلم تهن قبضته عليها حتى الآن .. وكانت الطقوس فى البداية تتعلق بالسحر أكثر منها بالعقائد والعبادات المنظمة ، لان الانسان الاول لم يقو على أن يحرر نفسه من الفزع الذى كانت تبثه فى نفسه قوى الطبيعة ، وخطر الحيوانات المفترسة . والخوف يتحول بسهولة الى عبادة ، لذلك بدأت الطقوس الدينية الاولى بعبادة الحيوان ، والاشياء النامية ، والاشياء التى فوق الادراك البشرى . كذلك انبعثت الطقوس عن خوف الموت ، ففى جهل الاولين بما يسبب جمود الحياة ، وفى خوفهم من أن يكون الموتى قادرين على تعذيب الاحياء ، ورجائهم فى أن يكونوا قادرين على مساعدتهم ، حرصوا على أن يدفنوا موتاهم فى احترام وتكريم ، وأن يضعوا فى مقابرهم الاثاث والغذاء ، وأن يربطوا أطرافهم ليمنعوهم من الاتيان بأى أذى . وتعودوا بعد زمن أن ينادوا أرواح أجدادهم يسألونها العون على أعدائهم . وابتكروا الذبائح والقرابين ، والتعاويذ ، كما ابتدعوا الخرافات يكرمون بها الارواح الهائمة والآلهة . وأخذ واحد من كل قبيلة يتفرغ لدراسة فن الدين ليصبح وسيطا بين الاحياء والقوى الغامضة التى تلوح وراء الحياة .. وعلى مر الزمن تطورت العبادات حتى انتهت الى التوحيد ، ثم زاحمت اللادينية التوحيد ! .. بيد أن الانسان لم يتخل قط عن ألوان من الخرافات والشعوذة ، لشعوره بالعجز ازاء المجهول !

وبظهور العناصر الثلاثة : اللغة ، والنار ، والدين ، بدأ البشر يتغلبون على بدايتهم الحيوانية !

حضارة عصر الصيد

◆ **كان** هم البشر فى البداية أن يصونوا سلامتهم ، فكانوا يكافحون الوحوش للاستئثار بالكهوف التى تعيش فيها ، وكان عليهم أن يدفعوا عن أنفسهم شر الحيوانات الكاسرة . ولعلهم آمنوا بأن أكل قلب الحيوان المفترس يبث فى الانسان القوة للصراع .. وبأن أكل لحم الوعل أو الغزال يهب

الانسان ما لدى هذا الحيوان من سرعة فى الجرى .. وبأن شرب دم الاسد ينقل الى الانسان جرأته وجبروته .. وهكذا بدأ الأولون يعرفون أكل اللحوم بعد أن كانوا يقتاتون على النبات فقط .. ثم عرفوا كيف ينضجونها على النار .. وما لبثوا أن أصبحوا يسعون وراء الحيوانات يصيدونها لينعموا بلحومها .. وهكذا أصبح صيد الحيوان ، وصيد السمك ، من الاعمال الرئيسية للانسان ..

وكان أن تعلم الناس كيف يعيشون فى جماعات - كالفيلة والقرود - ليكونوا أقدر على حماية أنفسهم .. وتعلموا كيف يعوضون ضعفهم بالاسلحة .. فمن الخشب والصخر اتخذوا عصيا وهراوات ، ورماحا ، وسكاكين ، وفؤوس ، ثم صنعوا الاقواس والسهام ليصيبوا على البعد .. وتعلموا على مر الايام فنون الايقاع بالفرائس ، بالتربص لها ، ونصب الفخاخ فى طريقها .. ومن ثم دبت فيهم القسوة والمكر والزهو بأنهم رغم ضعفهم استطاعوا أن يتغلبوا على الوحوش التى تفوقهم قوة ! .. ومهد الزهو لروح الشر أن تستولى عليهم .. فمن الصيد تولدت الحرب ، اذ اخترع الناس الاسلحة ، ثم شرعوا يستخدمونها ضد بعضهم بعضا ، فى فض الخلافات الفردية والعائلية ، والقبلية .. وما لبث المنتصر أن أخذ يستعيض عن قتل المهزوم باستعباده ! .. ومن المكر بالحيوان تعلم الانسان أن يمكر بجيرانه ويغرر بهم .. فكان القوم يعقدون الصلح مع القوم المعادين لهم ، ثم لا يلبثون أن يشهروا ضدهم أسلحتهم زاعمين انهم يسعون بالحرب الى القضاء على كل الحروب !

◆ **بذرة الفنون** : وفى فترات السلام ، أخذ الناس ينظمون حياتهم ، فتعلموا اللهو والرقص ، وأدخلوا التحسينات على مساكنهم وثيابهم ، واخترعوا ابرا من الصخر ذات ثقوب ، ليخيطوا بها لانفسهم ثيابا من جلود الوحوش .. كما اخترعوا المصابيح ليغيروا كهوفهم ، وابتكروا القلائد والحلى من الاصداف ، والكهرمان ، والمرجان ، وأسنان الذئب والكلاب ، بغرض الزينة ، وربما أيضا لاستجلاب الارواح الطيبة وطرد الارواح الشريرة .. وهل تراهم كانوا يحفرون على جدران أكواخهم رسوم الحيوان وقد اخترمتها الرماح والسهام ، لمجرد اجتلاب الحظ فى الصيد ؟.. لقد بدأت الفنون كتعبير عن رموز سحرية ، ثم أخذت لنفسها قيما خاصة .. وان الرسوم الملونة التى تناهت الينا من عصر الصيادين - قبل التاريخ - لدليل على أن هؤلاء الصيادين كانوا على فن كبير ..

« يتبع »

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



منيرفا الهة الحكمة ، تحنو على الوحش الذى نصفه حصان ونصفه انسان ! (لوحة تمثل احدى أساطير الاغريق ، رسمها «بوتيتشيللى» عام ١٤٨٥ ، معروضة بمتحف أوفيزى بفلورنسا)



صورة فتاة

(لوحة للرسام الخالد «بوتينشيللى» رسمها عام ١٤٧٨ ،
وهي محفوظة بمعهد «ستاديل» بمدينة فرانكفورت ، ألمانيا)



لوحة الغلاف

.. كان "مارس" اله الحرب أول من أحبته "ڤينوس" ربة الحسن والجمال. وكانا يلتقيان أثناء الليل، ويفترقان قبل أن يفتح الفجر بوابته ليفسح الطريق لـ "أبوللو" اله الشمس القادم في عربته الذهبية .. ورزق الحبيبان ابنهما "كيوبيد"، الطفل المجنح الذى زودته أمه بقوس وجعبة من السهام واطلقته ليقوم بمهمته كاله للحب!.. وفي اللوحة التى تراها في صدر هذا العدد ترى ڤينوس وهى "تواسى" كيوبيد بعد أن فشل في احدى مهامه الغرامية! وقد استوحى الرسام صورة الهة الجمال في هذه اللوحة من وجه "مدام دى بومبادور" عشيقة الملك لويس الخامس عشر، وكانت تقدر فن هذا الرسام وترعاه ..

و"فرانسوا بوشيه" رسام فرنسى، ولد في باريس عام ١٧٠٣ ومات فيها بعد ٦٧ عامًا، قضى منها ٤ أعوام في روما يدرس فنونها ويهضمها، ثم عين مديرًا لأكاديمية الرسم على النسيج بباريس. وتوجد أكثر آثاره الفنية في متاحف لندن، فيما عدا هذه اللوحة المعروضة بالمتحف الأهلى بأدنبره (اسكتلندا)

كتابي

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩